الغارة الكبرى

المجلد الأول: ولادة النظام



روبرت كازانوفاس

رواية تاريخية



نبذة

باريس، **1794**. الجمهورية تُخضِع. لكنها لا تنتزع من المهزومين أراضيَ فحسب، بل تنتزع منهم أيضًا، وقبل كل شيء، روائعهم الفنية. وبينما تجتاح الجيوش الفرنسية الفلاندر وإيطاليا وروما والبندقية، تدور حرب أخرى في الأسقفيات والقصور: حرب مفوضي الفنون، المسلَّحين بقوائم الجرد وأوامر المصادرة، الذين ينهبون بمنهجية أعظم المجموعات الفنية لإثراء متحف باريس. فان آيك، روبنس، رفائيل، تيتيان، فيرونيزي: كل ما تملكه أوروبا من كنوز ثمينة يشق طريقه إلى فرنسا. من الأب غريغوار، المُنَظِّر المعذَّب للنهب الشرعي، إلى الجنرال الشاب بونابرت الذي يفرض قانونه على أمراء إيطاليا بابتسامة رجل يعرف تمامًا قيمته، تروي رواية "الغارة الكبرى" ولادة نظام غير مسبوق: السرقة التي ترعاها الدولة وتُقام مقام سياسة ثقافية. المجلد الأول من ملحمة تاريخية في أربعة أجزاء، بنَفَس ملحمي، راسخة في الوقائع، لا هوادة فيها في نظرتها إلى البشر والسلطة.

عن المؤلف

روبرت كلزانوفاس، الذي سبق أن نشر "الغرفة المسروقة" و"الوصية التي كانت مزوَّرة" و"النهب"، أستاذ جامعي متقاعد وعضو في جمعية أهل الأدب الفرنسية (**Société des Lettres de Gens**). وهو حقوقي شغوف بتاريخ المجموعات الفنية، كرَّس سنوات طويلة لدراسة استيلاء الدول على الأعمال الفنية. رئيس المنظمة غير الحكومية **International Restitutions**، نشر العديد من الأعمال الأكاديمية حول هذا الموضوع.

ISBN 9782488999663

الغارة الكبرى

الرواية التاريخية

في أربعة مجلدات

روبرت كاسانوفاس

casanovas@hotmail.com

الإيداع القانوني أبريل 2026 – النسخة الرقمية من الكتاب الإلكتروني والورقي

© 2026 كازانوفاس. جميع الحقوق محفوظة

رقم الكتاب المعياري الدولي:978-2-488999-66-3

www.international-restitutions.org

الغلاف: توقيع بونابرت. مقتطف من المجلة الإسبانية

«La Ilustración Artística» العدد 711 بتاريخ 12 أغسطس 1895.



النسخة الفرنسية المجلد الأول1794-1798 - فلاندرز وإيطاليا - التحضير للحملة المصرية

بقلم نفس المؤلف:

الغرفة المسروقة (رواية تاريخية)

الوصية كانت مزورة (رواية تاريخية)

النهب (رواية تاريخية)

تحذير

هذه الرواية هي رواية تاريخية مبنية على أبحاث حقيقية. جميع الأعمال المذكورة تم أخذها بالفعل خلال الفتوحات الفرنسية بين 1794 و1813.

معظم الشخصيات كانت موجودة.
مجرى الأحداث يعيد تتبع الحقائق الحقيقية والمثبتة .
لأغراض السرد، يمكن تخيل الشخصيات والمشاهد والحوارات.
تمت ترجمة النسخة الأصلية من الرواية، المكتوبة بالفرنسية، إلى عدة لغات أجنبية. قد تحتوي النسخ المترجمة على أخطاء لغوية أو تفسيرات خاطئة أو تقريبيات.

جدول المحتويات

المجلد الأول

المقدمة

الفصل الأول: المصادرات الفلمنكية (1794)

الفصل الثاني: السباق نحو إيطاليا (1796)

الفصل الثالث: روما والبندقية (1797)

الفصل الرابع: المشروع المصري (1796-1798)

الغارة الكبرى
رواية تاريخية في 4 مجلدات

المجلد الأول – ولادة النظام
1794-1798 - فلاندرز وإيطاليا - التحضير للحملة المصرية

مقدمة

باريس، يونيو 1794

كانت غرفة لجنة التعليم العام تفوح منها رائحة الغبار والحبر. كان الوقت متأخرا. كانت الشموع قد احترقت حتى ثلاثة أرباع الطريق. في الخارج، كانت باريس نائمة أو تتظاهر.

أعاد الأب غريغوار قراءة الوثيقة المعروضة أمامه للمرة الأخيرة. تقرير إلى لجنة السلامة العامة حول مستقبل الثروات الفنية للأراضي التي استولت عليها جيوش الجمهورية حديثا. كتبها في ثلاثة أسابيع، وصححها عشر مرات.

كانت الأراضي النمساوية المنخفضة قد سقطت للتو. بلجيكا، فلاندرز، كل ما كانت تحتفظ به النمسا لمدة قرن ونصف، أصبح الآن ملكا لفرنسا. وفي هذه الأراضي، في كاتدرائياتها وقصورها وأكاديمياتها، كان هناك تركيز للأعمال الفنية لا مثيل لها في أوروبا.

السؤال الذي استغرق غريغوار أسابيع لصياغته كان بسيطا: ماذا سنفعل به؟

لقد وزن كل حجة. الحرب كانت مكلفة، والجمهورية بحاجة إلى موارد. لكن الأعمال الفنية لم تكن موارد عادية. لم تباع دون فضيحة. كانت تُنقل. تُركَّز. تُقدَّم للشعب في شكل متحف، درس حيّ، دليل على أن الحضارة انتقلت إلى معسكر آخر.

باريس تستحق أن تكون عاصمة الفنون. كانت كذلك بالفعل بفضل طموحها. وقد تصبح كذلك بفضل الوقائع.

أخذ غريغوار قلمه ووقع التقرير.

كان مجرد وثيقة. كان هذا واحدا من مئات التوصيات التي تتلقاها اللجنة أسبوعيا. قد تبقى دون متابعة، وتغرق في طوارئ أخرى، وحروب أخرى، وأزمات أخرى. كان للجمهورية اهتمامات أخرى غير اللوحات الفلمنكية.

لكن غريغوار كان يعلم أن هذا لن يكون الحال. كان يعرف ديفيد. كان يعرف رغبة اللجنة. كان يعرف منطق الغزو. الجيش المتقدم دائما يترك شيئا خلفه ويأخذ شيئا في المقابل.

أطفأ آخر شمعة وغادر الغرفة.

في الخارج، كان الليل حارا. لا تزال شوارع باريس تعج بالشائعات. مدينة لم تنام تماما، خاصة في السنوات الخمس الماضية. في مكان ما في الشمال، خارج الحدود، كانت جيوش الجمهورية تتحصن في سهول فلمنك. لقد انتصروا.

الآن كان على الجميع أن يقرروا ما سيفعلونه بهذا النصر.

الفصل الأول: المصادرات الفلمنكية (1794)

I — لجنة النهب

باريس، أغسطس 1794

حول طاولة مليئة بالخرائط والقوائم كان هناك سبعة مفوضين. ترأس الأب غريغوار الاجتماع. كان عضوا في المؤتمر، ومروجا للغة الفرنسية بوصفها لغة الجمهورية، ومؤخرا مؤلف التقرير الذي أدى إلى إنشاء هذه اللجنة. وعلى يمينه، كان ليبرون، تاجر فنون، وكانت مخزوناته سلطة في المجموعات الفلمنكية. أمامه كان ديفيد، الرسام وعضو لجنة الأمن العام، الذي لم يكن بحاجة لأن يقال له لماذا تستحق باريس أجمل الأشياء في أوروبا. هاسنفراتز، كيميائي ومهندس، الرجل الذي يحسب كيفية نقلها. فوجا دي سانت-فون، جيولوجي، متخصص في الأراضي والطرق. ثوين، عالم النبات في حديقة النباتات، لديه خبرة واسعة في عمليات الجمع والتغليف في الميدان. ليفيسك، هيليني، مسؤول عن جرد المخطوطات والوثائق القديمة.

طرق غريغوار على الطاولة ليطلب الانتباه.

— أيها المواطنون، يجب أن نضع اليوم المبادئ التي ستوجه مصادراتنا الفنية في بلجيكا. غزت جيوش الجمهورية هذه الأراضي. الأمر متروك لنا لنقرر ما سنفعله بغنائمها الثقافي.

أخرج ليبرون قائمة مكتوبة بخط اليد من حقيبته.

— لقد أعدت جردا أوليا للأعمال الرئيسية الموجودة في هولندا النمساوية. فلاندرز تمتلك كنوز استثنائية. في غنت توجد لوحة مذبح *غنت* من تصميم الأخوين هوبيرت ويان فان إيك، والتي اكتملت عام 1432. يعد هذا أحد الأعمال المؤسسة للرسم الفلمنكي. لا يوجد شيء مماثل في باريس.

قلب صفحة.

— في أنتويرب، في كاتدرائية سيدة العذراء، توجد لوحة «نزول من الصليب» لروبنز، رسمت بين عامي 1611 و1614، وهي ثلاثية بارتفاع أربعة أمتار وعشرين سنتيمترا وعرض ثلاثة أمتار وعشرة سنتيمترات. في كنيسة القديس والبورغا في نفس المدينة، نصب الصليب، هناك ثلاثية أكثر هيبة، بارتفاع أربعة أمتار وستين سنتيمترا وعرض ثلاثة أمتار وأربعين سنتيمترا، رسمها روبنز بين عامي 1610 و1611. ناهيك عن العديد من اللوحات المحفوظة في كنائس سانت جاك، سانت بول، سانت أندريه.

قاطعه ديفيد.

— لماذا تركز على الأعمال الدينية؟ يجب أن تكون هناك أيضا مجموعات خاصة. القصور. الأكاديميات.

— بالتأكيد، أجاب ليبرون. يضم قصر الحاكم النمساوي في بروكسل فان ديكس، تينيير، وجوردان. تمتلك أكاديمية غنت مجموعة من البدائيات الفلمنكية. لكن أعظم الأعمال، والأكثر روعة، والتي سيكون لها أكبر تأثير في المتحف، هي أعمال الكنائس. لوحات المذبح. الثلاثيات العظيمة. أعمال تم تكليفها للمناسبات الرسمية.

تدخل غريغوار.

— هناك مشكلة لاهوتية وسياسية يجب أن نأخذها في الاعتبار. هذه الأعمال ليست لوحات بسيطة. إنها أشياء للعبادة يصلي أمامها المؤمنون لأجيال. أن تقتلعهم من الكنائس، أليس ذلك تجديفا؟

— تجديف؟ صرخ ديفيد. بل العكس تماما. هذه الأعمال محاطة في ممرات مظلمة حيث يراها بعض المصلين دون رؤيتها. بإحضارها إلى باريس، نحن نحررها. ستكلف الكنائس بأعمال جديدة. هذا سيكون تقدما.

— الكنائس ستأمر بأعمال جديدة، رد غريغوار بصوت هادئ. هذا ما نقوله لأنفسنا لجعل الأمر محتملا.

لم يجب ديفيد على ذلك. نهض وذهب ليفتح خريطة فلاندرز.

تحدث ليبرون مرة أخرى.

— ثلاثة معايير. القيمة الفنية أولا، الروائع، القمم. ثم حالة الحفظ. وإمكانية النقل.

— وماذا عن الحجم؟ سأل هاسنفراتز. بعض الأعمال ضخمة. كيف ننقلها؟ تم قطع الطرق الفلمنكية بسبب مرور الجيوش. الجسور أحيانا تدمر. جلب ثلاثية روبنز بارتفاع أربعة أمتار من أنتويرب إلى باريس هو إنجاز لوجستي. وبعدها سيكون مكلفا جدا...

— لا يوجد نقص في المال، رد غريغوار. وقد صوت المؤتمر مؤخرا على ميزانية قدرها مئتي ألف ليفر ل «إثراء المتحف الوطني». هذا أمر كبير. لدينا الوسائل لتحقيق طموحاتنا. بالنسبة للحجم، سيتعين عليك التكيف.

— دعونا نضع خطة عمل. نشكل ثلاث فرق. تذهب الأولى إلى غنت وتأخذ لوحة مذبح فان إيك بالإضافة إلى بقية البدائيين الفلمنكيين في المنطقة. تذهب الثانية إلى أنتويرب وتتولى أعمال روبنز وفان ديك. أما الثالثة فتبقى في بروكسل وتجرد مجموعات قصر الحاكم والمؤسسات الأكاديمية.

— من سيقود هذه الفرق؟ سأل ليفيسك.

— أنت، ليبرون، لديك الخبرة اللازمة لتقييم الأعمال. ستقود فريق أنتويرب، الأهم. فوجا وثوين، ستذهبان إلى غنت. سيبقى هاسنفراتز في بروكسل للتعامل مع الجوانب الإدارية.

— وأنت؟ سأل غريغوار.

— سأذهب معك إلى غنت. أريد أن أرى فان إيك بعيني. ثم، وجودي سيعطي وزنا للعملية. أنا عضو في لجنة الأمن العام. السلطات المحلية لن تستطيع رفض أي شيء لنا.

تنهد غريغوار.

— حسنا. متى سنغادر؟

— بعد ثلاثة أيام. الوقت اللازم لتحضير المعدات اللازمة والحصول على تصاريح المرور العسكرية. الطرق غير آمنة. سيكون هناك حاجة إلى مرافقة مسلحة.

نحو نهاية فترة بعد الظهر، عندما أصبح الحر لا يحتمل، أنهى غريغوار الجلسة.

— أيها السادة، نعلم ما علينا فعله. ليغفر لنا الله إذا أخطأنا.

سخر ديفيد.

— الله؟ أنت لا تزال كاهنا، غريغوار، رغم كل شيء. لسنا بحاجة إلى مغفرة إلهية. نحن نحقق عملا جمهوريا، عملا من التقدم. التاريخ سيحكم علينا، وليس الله.

— ربما، تمتم غريغوار. لكنني آمل أن يكون التاريخ لطيفا.

تفرقوا. ذهب الجميع إلى منازلهم استعدادا لمغادرتهم.

غنت، بعد ثلاثة أيام.

كانت كاتدرائية القديس بافو تقف في ضباب الصباح، ضخمة وصارمة. بنيت من الحجر الرمادي، وأبراجها القوطية تخترق السماء المنخفضة كأنها رماح. وهنا، في كنيسة فيد، كانت توجد لوحة مذبح *غنت*، وهي تحفة من الأخوين هوبرت ويان فان إيك.

نزل غريغوار وديفيد وفوجا وثوين من عربتهم أمام البوابة الرئيسية. خلفهم، كانت ثلاث عربات تحمل المعدات اللازمة: الصناديق، القش، الحبال، الأدوات. كانت مرافقة مكونة من عشرين جنديا من الحرس الوطني تراقب الأطراف، والحراب مثبتة.

كان القس دي فوس ينتظرهم في الساحة. منحنيا بفعل السنين، ووجهه مجوف بتجاعيد عميقة، لا يزال يرتدي رداءه الأسود رغم المراسيم الثورية التي تحظر الزي الكنسي. كانت عيناه حمراوين كما لو كان يبكي.

— أيها السادة، أرجوكم. لا تفعل ذلك. هذا المذبح موجود هنا لأكثر من ثلاثة قرون. هو جزء من كنيستنا. لمدينتنا. من أرواحنا.

تقدم ديفيد للأمام، غير صبور.

— أيها القس، ليس لدينا وقت لنضيعه في النقاشات. لدينا تفويض لجنة السلامة العامة والممثل في المهمة جوبرت. تم نقل لوحة المذبح إلى باريس. هذا قرار لا رجعة فيه.

— تسمي هذا ثقافة؟ إنه نهب! سرقة خالصة وبسيطة!

أشار ديفيد إلى الجنود.

— أوقفوه! إنه يعيق تنفيذ مهمة جمهورية.

تقدم جنديان وأمسكا بالكاهن من ذراعيه. كافح دي فوس بضعف.

— خذوه بعيدا، أمر ديفيد. احبسوه بينما ننهي عملنا.

سحب الجنود الكاهن العجوز بعيدا، الذي استمر في إلقاء اللعنات. تردد صوته في الساحة الفارغة، ثم خفت عندما دفع إلى منزل مجاور.

كان غريغوار غاضبا جدا.

— هل كان ذلك ضروريا، ديفيد؟ إنه رجل مسن. لم يستطع منعنا من أخذ لوحة المذبح.

— كان يسبب المشاكل. كان بإمكانه إثارة الناس. الوقاية أفضل من العلاج.

دخلوا الكاتدرائية. كان الداخل مظلما وباردا. كانت الأعمدة النحيلة تدعم أقبية ضخمة. رائحة البخور والحجر الرطب كانت تملأ الجو. ترددت خطواتهم على الأحجار.

كانت كنيسة فيد في نهاية الممر الخارجي، على اليسار. كانت مساحة صغيرة نسبيا، محاطة ببوابة من الحديد المطاوع. وهناك، يحتل الجدار الخلفي بأكمله، وقف المذبح.

تجمد ديفيد، مأخوذا بالمشهد.

حتى هو، المعتاد على الأعمال الفنية، كان معجبا. كان المذبح ضخما. خمسة أمتار وعشرين سنتيمترا عرضا وثلاثة أمتار وخمسة وسبعين سنتيمترا ارتفاعا عندما

كان مفتوحا بالكامل. أربعة وعشرون لوحة مرسومة بدقة استثنائية. ألوان زاهية بشكل لا يصدق رغم مرور السنوات.

اقترب ثوين وفحص البناء.

لمس الخشب برقة.

— الألواح مصنوعة من خشب البلطيق. كثيف جدا. مستقر جدا. لكن أيضا ثقيل جدا. اللوحات المركزية الثلاثة في السجل العلوي التي نأخذها معنا — العذراء في جلالة الملكة، الإلهة الجالسة على العرش، القديس يوحنا المعمدان — تمثل بالفعل عدة مئات من الكيلوغرامات. ستبقى المصاريع المتحركة في غنت. نقلهم جميعا في نفس الوقت سيكون جنونا.

كان فوجا يدون الملاحظات.

— الأبعاد الدقيقة؟ أحتاج إلى قياسات دقيقة لتصميم الصناديق.

— الشخصيات الثلاثة المركزية في السجل العلوي تقع على ألواح بحجم حوالي متر واحد وأربعين في خمسين سنتيمترا لكل منها. اللوحة الكبيرة للوحة *عبادة الحمل* كبيرة وهشة جدا لهذه الرحلة. رأت اللجنة أن الشخصيات الإلهية الثلاثة كانت كافية لتمثيل عبقرية فان إيك.

وأثناء حديثهما، كان ديفيد ينظر إلى اللوحات.

أما اللوحة المركزية فكانت تصور مرجا شاسعا حيث تجمعت مجموعات مختلفة: شهداء، معترفون، عذراوات حكيمات، جميعهم يتجمعون حول مذبح يقف فيه *الحمل الصوفي*، رمز المسيح المذبوح. تدفق دم الحمل إلى كأس. في المقدمة، ينبوع حياة ينبثق منه ماء صافي كالكريستال. في الخلفية، مدينة مثالية بها عدد لا يحصى من الأبراج وأبراج الأجراس: القدس السماوية.

والألوان! أحمر عميق، أزرق مضيء، أخضر قوي، ذهبي زاهي. أتقن فان آيك تقنية الرسم الزيتي، مما سمح بتراكم الحجاب من الألوان الذي أعطى عمقا ولمعانا لا مثيل لهما. حتى في ضوء الكنيسة، بدت الألوان وكأنها تتلألأ من الداخل.

— إنه... استثنائي، تمتم ديفيد رغم نفسه. أفهم لماذا يسمى تحفة روائع الفلمنكية.

— تخيل التأثير الذي سيحدثه على المتحف، قال غريغوار. سيبهر الزوار. لم تمتلك باريس قط بدائية فلمنكية بهذه الجودة.

— إذن يجب أن نأخذها بالتأكيد. ثوين، كم سيستغرق منك أخذ الألواح المركزية وتعبئتها؟

فكر عالم النبات، وهو يفحص المثبتات، والمفصلات، وبنية الإطار.

— إذا عملنا بحذر، فريق معزز... يومان. ربما ثلاثة. يجب فصل الألواح دون إتلاف الستائر، والتي ستبقى. بناء صناديق فردية. إنه عمل دقيق. إذا استعجلنا، فإننا نخاطر بتلف اللوحات.

— ثلاثة أيام طويلة جدا. قد ينتفض سكان غنت. علينا أن نتصرف بسرعة.

— لا أستطيع أن أُسرع دون أن أخاطر بمخاطر غير مقبولة، أجاب ثوين بحزم. الخشب هش. المفصلات قديمة. التعامل الخشن قد ينكسر كل شيء.

كان ديفيد على وشك الاعتراض عندما قاطعه غريغوار.

— ثوين محق. لسنا مخربين. دعونا نأخذ الوقت اللازم. سأزيد عدد المرافقة العسكرية إذا لزم الأمر. لكن يجب أن تصل هذه العلامات إلى باريس سليمة. وإلا، ستفشل العملية بأكملها.

— حسنا، استسلم ديفيد على مضض. ثلاثة أيام. لكن ولا يوما آخر. وفي هذه الأثناء، سيتولى ليبرون روبنز في أنتويرب. علينا تنسيق عملياتنا بحيث يغادر كل شيء إلى باريس في نفس الوقت.

غادروا الكاتدرائية لتنظيم العمل. نادى ثوين العمال وبدأ يشرح كيف يتقدمون. تم تركيب سقالات في الكنيسة. تم جلب الأدوات اللازمة: مفكات براغي، كماشة، مناشير دقيقة، مطارق مبطنة بالقماش.

بدأ حشد يتجمع في الساحة. كان سكان جنت قد عرفوا ما يحدث. جاءوا للاحتجاج على ذلك. بعضهم كان يبكي علنا. وألقى آخرون الإهانات على الجنود الفرنسيين.

— لصوص! برابرة! أعد لنا لوحة المذبح!

أمر ديفيد الجنود بتشكيل طوق لمنع أي شخص من دخول الكاتدرائية. لم يعد غريغوار إلى المنزل الذي كان دي فوس محتجزا فيه. صرخات الحشد غطت على كل شيء آخر.

II — الانتزاع: غنت وأنتويرب

في تلك الليلة، قام ثوين وفريقه بإقامة السقالة في كنيسة فيجد. كان العمل سيبدأ عند الفجر. ثلاثة أيام إجمالا.

كانت تعمل ببطء أغضب ديفيد، لكنها كانت ضرورية. في اليوم الأول، اكتفوا بنظرهم إلى الهيكل، وفهموا كيف تتناسب العناصر المختلفة معا. كان المذبح معقدا. كانت الألواح مثبتة بإطار من خشب البلوط الصلب، مثبتة على البناء بواسطة تركيبات حديدية مطاوعة من القرن الخامس عشر. كان فصلها دون لمس الألواح المتحركة التي ستبقى في مكانها يتطلب أقصى درجات الدقة. كانت المفصلات التي

تربط الأغطية بالإطار هشة، مؤكسدة في بعض الأماكن. القوة الزائدة قد تجعل المجموعة بأكملها تنهار.

في اليوم الثاني، بدأوا في أخذ العينات. حدد ثوين ترتيبا دقيقا: سيتم تفكيك الإطار الحامل لتحرير الألواح المركزية الثلاثة في السجل العلوي. تم إعداد كل عملية بدقة. قبل فك الوصلة، تم تركيب حوامل مؤقتة. وضعت أقمشة سميكة في كل مكان لتوسيد الصدمات. وقف فريق مكون من ستة رجال جاهزين لالتقاط كل لوحة بمجرد إطلاقها.

تم فصل اللوحة الأولى حوالي الظهر. استغرقت العملية ساعتين. عندما تحرر أخيرا، رفعه أربعة عمال على الأرض بشكل مسطح، تنفس الفريق تنهيدة ارتياح.

كان غريغوار يفحص لوحة الإله الجالس على العرش، الموضوعة الآن على الطاولة المبطنة. كان الوجه ينظر إلى سقف الكنيسة. كانت هذه النظرة عمودية، موجهة نحو المؤمنين. الآن نظر إلى خشب السقالات.

في اليوم الثالث، كاد حادث أن يتحول إلى مأساة. بينما كان يتم تنفيذ اللف النهائي للوح القديس يوحنا المعمدان—آخر الثلاثة التي تم تعبئتها للنقل—انقطع الحزام الذي كان يثبته أفقيا. سقط. فوجئ العمال الذين دعموه. انزلقت لوحة البلوط الثقيلة من أيديهم.

سقط ستين سنتيمترا قبل أن يتمكنوا من الإمساك به. لكن هذه الستين سنتيمترا كانت كافية لاصطدام الزاوية اليمنى السفلية بحافة السقالات. سمع صوت فرقعة شريرة.

اندفع ثوين للأمام. ظهر شق في الخشب، طوله حوالي خمسة عشر سنتيمترا، يبدأ من الزاوية التالفة ويرتفع بشكل مائل. لحسن الحظ، لم يتم لمس طبقة الطلاء. كان الشق موجودا في الخلف. لكن الخشب نفسه كان ضعيفا.

— هل يمكن إصلاحه؟ سأل ديفيد فجأة بقلق.

— نعم. لكن سيكون من الضروري ترميمه. سيتم تثبيت الشق بالغراء القوي وأعمدة خشبية، ثم الصنفرة، والتلوين، والتلميع. ستستغرق العملية عدة أسابيع.

— عدة أسابيع؟ لكن علينا عرض هذا المذبح بسرعة! لجنة السلامة العامة تريد حفل تنصيب!

— إذا سينتظرون. لن أقدم عملا تالفا.

قبض ديفيد على قبضتيه بغضب. لكن عرض لوحة متشققة كان سيكون كارثيا على سمعة المتحف.

بقي ثوين وحيدا في المصلى بعد أن خرج الآخرون. كانت المشاعل توشك على الانطفاء في حواملها الحديدية. جلس على حافة السقالة، ولوحة القديس يوحنا

المعمدان موضوعة أمامه على الطاولة المبطنة، والشق لا يزال ظاهرا رغم أولى نقاط الغراء.

كان قد قال لديفيد إن العملية ستستغرق عدة أسابيع. كان ذلك صحيحا. وكان قد قال إنه لن يسلم عملا تالفا. كان ذلك صحيحا أيضا. لكن ما لم يقله لأحد هو أن الحزام قد انقطع لأنه هو نفسه من ربطه بسرعة زائدة، قبل ساعة من ذلك، مدفوعا بضيق الوقت وإرهاق الليلة الثالثة بلا نوم.

مرر إصبعه على طول الشق. خمسة عشر سنتيمترا تقريبا. كان يعرف ثمنها بالضبط: أسابيع من الترميم في باريس، رجل مثل جوريس منحنيا فوق هذا الخشب لستة أسابيع، يد ليست يده تصلح خطأ كان خطأه هو.

طوال حياته، كان يقيس، ويحسب، ويتوقع. هذا ما كان يميزه عن ديفيد: لم يكن يخطئ في الأشياء التي يمكن قياسها. وها هو قد أخطأ في عقدة.

فكر في أن يقول الحقيقة لغريغوار، في اليوم التالي، في الاجتماع الطارئ. لم يفعل. قال إن الحزام قد انقطع، وهذا صحيح، دون أن يقول من ربطه. إغفال، لا كذبة. كرر لنفسه هذه العبارة عدة مرات تلك الليلة، دون أن تتوقف عن أن تبدو صادقة.

أطفأ آخر مشعل وخرج إلى ظلام الكاتدرائية.

في الخارج، علم أهل غنت بسرعة ما حدث. انتشرت شائعات بأن قطعة المذبح قد تعرضت للتلف. تحدث بعضهم حتى عن ألواح مكسورة، وعن لوحات مدمرة. ارتفع الغضب إلى حد ما.

في تلك الليلة، تم رمي الحجارة على نوافذ الكاتدرائية. اضطر الجنود للهجوم لتفريق الحشد. تم اعتقال ثلاثة من غنت. كان التوتر في ذروته.

غريغوار دعا إلى اجتماع طارئ.

ـــ نحتاج إلى التسريع. إذا بقينا هنا طويلا، ستحدث وفيات. السكان على وشك اندلاع أعمال شغب.

ـــ لا يزال هناك لوحة القديس يوحنا المعمدان التي يجب توحيدها وتجهيزها بشكل نهائي، قال ثوين. يمكنني إنهاء الليلة إذا عملنا بلا كلل. لكن سيكون ذلك محفوفا بالمخاطر. التعب يزيد من خطر الخطأ.

ـــ ليس لدينا خيار، قال ديفيد. لننهي هذه الليلة. غدا صباحا، سنحمل كل شيء على العربات ونغادر. الأهم هو مغادرة غنت قبل أن تتدهور الأوضاع تماما.

لذا عملوا طوال الليل. تم تركيب المشاعل في المصلى لإضاءة الموقع. كان العمال يتناوبون في الورديات. حوالي الساعة الرابعة صباحا، تم أخيرا تعبئة لوحة القديس

يوحنا المعمدان في علبتها. فحصها ثوين لفترة طويلة تحت ضوء المشاعل قبل أن تغلق الغطاء.

عند الفجر، كانت اللوحات الثلاثة في السجل العلوي جاهزة في صناديقها الفردية. في مصلى فيجد، بقيت لوحة المذبح في مكانها، مقطوعة من قلب الدرجة العليا منها.

تشكلت القافلة أمام الكاتدرائية. في المقدمة كان عشرون فارسا من الحرس الوطني. ثم العربتان اللتان تنقلان الألواح. ثم عربة أخرى مع المعدات والعمال. وأخيرا، خلف مكون من خمسة عشر جنديا مشاة.

تجمع سكان غنت رغم الوقت الباكر. اصطف عدة مئات من الناس على طول الشوارع.

عندما بدأت القافلة تتحرك، بدأت امرأة تبكي. ثم أخرى. ثم العشرات. سرعان ما بدأ الحشد كله يبكي. خلع الرجال قبعاتهم. النساء رسمن الصليب على أنفسهن. بعضهم ركع على الحجارة.

غادرت القافلة غنت. لم تكن أجراس الكاتدرائية تدق. ظلت صامتة لمدة ثمانية أيام، كعلامة على الاحتجاج الصامت.

على واجهات عدة بيوت، ظهرت نقوش بالطباشير في الأيام التالية: «فرنسا الجمهورية تنهب مثل النمسا الملكية».

تم مسح هذه النقوش بسرعة من قبل سلطات الاحتلال.

لم ينتظر ليبرون. بينما كان غريغوار وثوين يعملان في كنيسة فيد، كان يدير عمليته الخاصة في أنتويرب، على بعد مئة كيلومتر شمالا. كانت المدينة الساحلية، ثاني أكبر مدينة في هولندا النمساوية، تمتلك المزيد من الكنوز الفنية. عاش روبنز وعمل هناك لعقود. زينت أعماله تقريبا كل كنيسة مهمة.

وصل ليبرون إلى أنتويرب في 12 أغسطس، بينما كان ثوين لا يزال يعمل في كنيسة فيد. لقد قضى حياته في شراء وبيع اللوحات. كان يعرف التقنيات، والمدارس، والفنانين. كان بإمكانه التحقق من صحة العمل بنظرة واحدة، وتقدير قيمته، واكتشاف ترميم أو تزوير.

جعلته هذه المهارات الرجل المثالي لاختيار الأعمال التي سيتم أخذها. لكنها أيضا جعلته يدرك ما كان يجري. على عكس ديفيد، الذي رأى هذه العينات كعمل سياسي وأيديولوجي، كان ليبرون يعلم أن واحدة من أغنى المجموعات في أوروبا يتم تفكيكها. أن أنتويرب تفرغ من تراثها الفني.

كان الهدف الأول هو كاتدرائية سيدتنا، التي تضم لوحة «نزول من الصليب» لروبنز. وفي الوقت نفسه، أرسل ليبرون فريقا إلى كنيسة سانت-والبورج لأخذ لوحة إقامة الصليب، وهي التحفة الأخرى التي كانت باريس تنوي الاستيلاء عليها.

ذهب ليبرون إلى الكاتدرائية صباح 13 أغسطس، برفقة فريقه ومرافقة عسكرية مكونة من خمسة عشر جنديا. كان عميد الفصل، المونسنيور فان دير نوت، ينتظرهم في الساحة، بوجه صارم ونظرة حادة.

— السيد ليبرون، يجب أن أحتج رسميا على هذه العملية. هذه اللوحات تنتمي إلى الكاتدرائية. تم تكليفها من قبل أسلافنا. مدفوعة بأموال المؤمنين الأنفرسيين. ليس لك الحق في أخذها.

أخرج ليبرون وثيقة من جيبه.

— سيدي، لدي هنا أمر من الممثل في مهمة، جوبرت، يحمل ختم لجنة السلامة العامة. يخولني من كنائس الأراضي الملحقة الأعمال الفنية التي اعتبرها ضرورية لإثراء المتحف الوطني. هذا الأمر قانوني وقابل للتنفيذ.

— وماذا لو رفضت؟

— إذن جنودي سيكسرون الباب. وسيتم اعتقالك. أفضل أن أتجنب ذلك، من أجل كرامتك وكرامتي أيضا.

ثبت فان دير نوت نظره عليه. ثم تنهد وأخرج مفتاحا كبيرا من رداءه.

— حسنا. لكن اعلم أنني أخضع تحت الإكراه. وأن هذا العنف لن يبقى بدون عواقب. أنت تزرع الكراهية، سيد ليبرون. ويوما ما، ستحصد الثمار.

دخلوا الكاتدرائية. كان الداخل جميلا. كانت الأعمدة البيضاء الطويلة تدعم أقبية أنيقة. تسلل الضوء عبر نوافذ الزجاج الملون، محدثا ألعابا من الألوان على أرضية الرخام.

زينت ثلاثية روبنز الكبيرتان أكثر المواقع شهرة. احتل النزول من الصليب كامل الجناح الشمالي: ثلاثية ضخمة. اللوحة المركزية مثلت اللحظة التي نزل فيها جسد المسيح من الصليب. كان التكوين جريئا بشكل مذهل: الجسم ينزلق قطريا، مثبتا بكفن أبيض يشكل منحنى أنيقا. حوله، كانت الشخصيات — مريم المجدلية، يوحنا، العذراء مريم، نيقوديموس، يوسف الريماتي — مرتبة بتوازن مثالي بين الحركة والثبات.

اقترب ليبرون وفحص السطح المطلي. كانت تقنية روبنز فريدة من نوعها. طبقات شفافة مكدسة خلقت عمقا استثنائيا. كان اللحم يتمتع بتوهج شبه حي. سقط الستائر

بسلاسة طبيعية. والتفاصيل—الدموع على وجه مريم المجدلية، عروق يدي نيقوديموس، ملمس الكفن—كانت مصغرة بدقة لا نهائية.

— إنها تحفة فنية بحق، تمتم المرمم، خبير اللجنة في الترميم. واحدة من قمم الرسم الباروكي.

— الأبعاد؟ سأل ليبرون.

— اللوحة المركزية تبلغ أبعادها أربعة أمتار وعشرين سنتيمترا في ثلاثة أمتار وعشرة سنتيمترات. النوافذ الجانبية، حوالي مترين في متر وخمسين لكل منها. يجب أن يزن الجميع أكثر من خمسمائة كيلو.

— كيف سننقله؟

— سيتعين تفكيكه. افصل المصاريع عن اللوحة المركزية. ربما حتى تقطيعه إلى أقسام إذا سمحت الإطارات بذلك. ثم بناء صناديق فردية.

تدخل المونسنيور فان دير نوت، الذي استمع إلى هذا الحوار التقني، بصوت غاضب.

— هل تتحدث عن تقطيع هذا العمل؟ أن تقطعها مثل قطعة خشب عادية؟ هذا همجية!

— لن نقطع إلا إذا كان ذلك ضروريا للغاية. وإذا فعلنا ذلك، فسيكون ذلك مع كل الاحتياطات. سيتم إعادة تجميع الأقسام في باريس. سيتم ترميم اللوحة بالكامل.

— «مرمّم»؟! تسمي هذا استعادة؟ عمل مقطع، نقل لمسافة مئات الكيلومترات، أعيد تجميعه بأيد مجهولة؟ لن يعود كما كان أبدا!

— ربما. لكن على الأقل سينجو. سيشاهده آلاف الناس.

— لا أريد سماع هذه التبريرات المنافقة! قاطع فان دير نوت. أنت تسرق، هذا كل ما في الأمر. سمها ما تريد — مصادرة، نقل، إثراء — إنها سرقة.

ظل ليبرون صامتا. لم يكن لديه خيار. التخلي عن هذه المهمة يعني نهاية مسيرته. ربما حتى السجن. لم تتسامح الجمهورية مع العصيان. لذلك ركز على الجوانب التقنية ودرس الروبنز الثاني الذي يجب أخذه.

كان نصب الصليب، الذي رسمه روبنز لكنيسة القديسة والبورغا، أكثر هيبة: أربعة أمتار وستين سنتيمترا في ثلاثة أمتار وأربعين سنتيمترا.

قضى ليبرون الأيام الثلاثة التالية في تنظيم العملية. جلب نجارين لبناء السقالات، وصنّاعا لصنع صناديق مخصصة، ونساجين لتوفير أقمشة الحماية.

قام مرمموه بفحص كل لوحة بعناية. لاحظوا المناطق المتضررة: تشققات، رفع طبقة الطلاء، ترميمات قديمة معيبة. يجب معالجة كل هذا قبل أو بعد النقل.

تم تفكيك *النزول من الصليب* أولا. تقرر تقطيعه إلى ثلاثة أقسام — علوي، وسطي، سفلي — مع قطع على طول الوصلات الطبيعية للهيكل لتقليل الضرر.

عُبئت الأقسام الثلاثة، ثم الأجنحة الجانبية. وفي الأيام التالية، تم التعامل مع إقامة الصليب وفقا لنفس الإجراءات. في 26 أغسطس، كانت لوحتا روبنز في أنتويرب مستعدتين للمغادرة. تسع صناديق في المجموع. أكثر من طن من اللوحات، والخشب، والقماش، والإطارات.

غادرت القافلة أنتويرب في الصباح الباكر. تجمع حشد من الناس. كانت هناك دموع، وصلوات — كما في غنت. ولكن أيضا صرخات الكراهية، تهديدات لم تتلقها غنت.

III — فان رين وقصر كودنبرغ

بروكسل، 15 أغسطس 1794

في الوقت الذي كان فيه غريغوار وثوين ينهون اليوم الأول في كنيسة فيد، دخلت عربة هاسنفراتز بروكسل عبر بوابة هال.

لم ينام هاسنفراتز منذ فالنسي. كان جالسا منتصبا على المقعد، وظهره لا يلامس الجلد، ومرفقيه على ركبتيه، وكان يحمل منذ خمس ساعات كتاب جان-باتيست ديكامب «الرحلة الجميلة في فلاندرز والبرابانت» التي كان قد علق عليها بالقلم الرصاص على الهوامش حتى لم يعد هناك مجال للكتابة. قائمة مجموعات الدوق. أسماء الرسامين المذكورين في كل مبنى. أبعاد القطع الرئيسية، كما يمكن تقديرها وفقا لوصف ديسكامب، الذي لم يكن دائما دقيقا، وكان أحيانا يكتب «لوحة كبيرة» حيث كانت هناك حاجة لأرقام.

نام ليفيسك على يساره، رأسه منحني على كتفه، وفمه نصف مفتوح، وسجل فارغ ينزلق ببطء من يديه. لم يكن لدى هاسنفراتز تلك القدرة، أن يترك نفسه، أن يترك جسده في تمايل العربة كما لو أن شخصا آخر يعتني بالباقي.

بروكسل لم تكن غنت.

كانت غنت تحمل طابع بلدات المنتجعات الصحية بالكامل: قنواتها السوداء، واجهاتها التي تميل نحو انعكاسها، ورائحة الحجر الرطب التي تملأ حتى أبعد شوارع المركز. كانت بروكسل عاصمة، أو كانت عاصمة، وربما كانت أسوأ: مدينة معتادة على الهيمنة، والنظام، وعلى الطقوس، وتحمل كل هذا في عمارتها كرامة موروثة لم تعد تعرف كيف تتعامل معها. المنازل في أعلى المدينة، حول القصر،

كانت تحمل ذلك الاستقامة المتحفظة التي تميز مباني الإمبراطورية: لا تفاخر ولا تواضع، هندسة تعني أن الأمور في مكانها ولا تحتاج لتبرير نفسها لذلك.

كانت العربة تمر بمحاذاة ساحة مونيه، وتعبر الجزء السفلي من المدينة عبر شارع ضيق تفوح منه رائحة البيرة ونشارة الخشب، ثم صعدت إلى حي كودنبرغ. تبع المرافقة المكونة من اثني عشر جنديا سيرا على الأقدام، نفس الرجال من باريس، المعتادين على تعليمات البعثة، الذين تعلموا عدم طرح الأسئلة.

كان المفوض بوتيي ينتظرهم في الفناء الداخلي لمجلس برابانت. بحاجبين كثيفين، كان يرتدي ملابس وظيفية كموظفي البيروقراطيين الإقليميين الذين مروا بعدة أنظمة دون أن يرتبطوا بها. لقد خدم النمسا. سيخدم الجمهورية. كان سيؤدي عمله في كلتا الحالتين بنفس الكفاءة.

تعرف هاسنفراتز على هذا النوع من الرجال على الفور: فقد التقى ببعضهم في باريس، في مختبرات مدرسة المناجم، وفي لجان المؤتمر: أشخاص بلا شغف خاص بالمبادئ، لكنهم موثوقون تماما في إجراءاتهم.

كانت العروض التقديمية موجزة. أعد بوتيي ملفا: خرائط للمباني المعنية، قائمة أولية بالمجموعات، أسماء الحراس والمسؤولين المناوبين، وحالة الطلبات العسكرية التي تؤثر على كل مبنى. وضع كل هذا على حافة النافذة وبدأ يتحدث قبل أن ينهي هاسنفراتز حتى خلع قفازيه.

— الوضع هادئ. تسيطر الحامية الفرنسية على المناطق الرئيسية منذ ثلاثة أسابيع. كان هناك بعض المشاكل في البداية. بعض المشاجرات بالقرب من سوق الحبوب، محاولة لإشعال النار في مستودع عسكري في أسفل المدينة. الآن، الناس قبلوا ذلك.

— مجموعات قصر كودنبرغ؟ سأل هاسنفراتز.

— مدرج لمدة أسبوعين. وفقا لتعليمات لجنة التعليم العام. ستجد الجردات الأولية في هذا الملف. هي غير مكتملة. فريقي غير مدرب على التمييز بين الأصل والنسخة أو تقييم حالة الحفظ. لكن بالنسبة للمواقع، فهي موثوقة.

— القيم المسؤول؟

تردد بوتيي قبل أن يجيب، ليس من الخجل، بل بحكمة من يختار كلماته لأنه يعلم أن لها عواقب.

— م. فان رين. تم تعيينه تحت الحكومة النمساوية قبل اثنين وعشرين عاما. أبقيته في مكانه. يعرف كل لوحة، كل غرفة، كل ركن من قصر. بالنسبة لمهمتك، هذا لا يمكن تعويضه.

— وهو يتعاون؟

— ضمن حدود ما يمكن توقعه بشكل معقول من رجل في منصبه. يقوم بعمله. هو يوثق.

— هل يوثق؟

— كل شيء. بعناد يستحق أن يلاحظ. كل لوحة تلتقطها، سيحتفظ بسجل مواز للوحة لوحتك. التواريخ، الأبعاد، الأوصاف، حالة الحفظ وقت الجمع. يحتفظ بنسخ منه. يرسلها إلى مراسلين لم يبلغني بأسمائهم.

أغلق هاسنفراتز دفتر ملاحظاته.

— هذا لا يشكل مشكلة قانونية. الجمهورية لا تمنعه من الاحتفاظ بالسجلات.

— لا. لكنني فضلت أن تعرف قبل دخولك المعرض.

قال ليفسك، الذي استيقظ في لحظة المرور تحت قوس الفناء واستمع إلى هذا الحوار بصمت، ويداه مطويتان على السجل الفارغ الذي يمسكه الآن على صدره:

— رجل يوثق ما يؤخذ منه. إنها طريقة للمقاومة لا تمنحنا أي تمسك.

— هذا ما فهمه، قال بوتيي.

ذهبوا إلى القصر في ذلك العصر. كان فان رين ينتظرهم في المعرض الكبير.

كان قصير القامة، بنحافة جعلته ملابسه الداكنة أكثر وضوحا. ضعف دستوري طويل الأمد، ليس النوع الذي يفرضه الندرة. وضعت نظاراته الفولاذية في منتصف الوجه بدقة جهاز قياس. كان يحمل تحت ذراعه دفتر ملاحظات مغلف بالكتان الأسود، سميك، لم تتركه يداه. كانت هذه الأيدي مذهلة: طويلة، ثابتة تماما، بجودة الهدوء التام التي تميز أيدي الرجال الذين قضوا حياتهم في التعامل مع الأشياء الهشة وتعلموا أن الارتجاف هو شكل من أشكال الوقاحة تجاه ما يمسك به المرء.

راقب فان رين هاسنفراتز وليبرون وهما يأتيان دون أن يغير تعبير وجهه. عندما أنهى بوتيي التعارف، قال:

— أنا جاهز.

امتد المعرض على طول الجناح الشمالي للقصر بالكامل، ربما خمسة وثلاثين مترا، وربما أربعين. كانت النوافذ العالية تطل على ساحة داخلية حيث يقف جنديان للحراسة دون سبب واضح، من باب العادة. سقط الضوء على أرضية البلوط المشمع في مستطيلات لم تصل إلى الجدران. كانت اللوحات معلقة في صفين، بعضها لعقود حسب الاختلافات الطفيفة في اللون على الورق الممتد على الجدران، مستطيلات داكنة حيث كانت الإطارات واقفة لأجيال، تحمي السطح من الغبار.

لم ينتظر فان رين أن يطلب منه البدء. تقدم إلى أول صورة في الصف العلوي، صورة للعذراء والطفل، متوسطة الحجم، زيت على خشب، وبدأ يملي بصوت منخفض دون أن يلتفت، كما لو أنه كان يكرر هذا المشهد في رأسه لعدة أيام وأنه لم يعد يتطلب جهدا لأدائه.

في زاوية المعرض كانت امرأة جالسة على طاولة صغيرة، وبيدها قلم. لم يقدمها أحد. كان قلمه يمر على الورق بسرعة ودقة أشخاص كرسوا حياتهم كلها لإيماءة واحدة. لم تنظر إلى اللوحات ولا إلى المفوضين. كتبت ما كان يفرض عليها.

— الصفحة السابعة من مخزوني، قال فان رين. استوديو روبنز، حوالي 1618 إلى 1622. الأصل أنتويرب، وصل هنا تحت حكم الأرشيدوق ألبرت. خشب البلوط، لوحان مركبان مع لسان وأخدود. شقوق سطحية في الزاوية السفلية اليسرى. حالة عامة مرضية.

اقترب ليبرون. مال رأسه إلى الجانب، في حركة معتادة بالنسبة له، الزاوية المائلة كشفت ما كانت الرؤية الأمامية تخفيه عنه.

— الورشة، بالتأكيد. لكن يد روبنز في العذراء. انظر إلى الضوء على الحجاب. هذه الطريقة في تطبيق الأبيض لمستين منفصلتين للإشارة إلى شفافية القماش، هذا هو، وليس طالبا.

— هل ستأخذ هذا معك؟ سأل فان رين من هاسنفراتز.

— نعم.

— أطلب منك إيصالا. مؤرخا. مع الوصف الذي سمعته للتو، وأسماء المفوضين الحاضرين، والوقت الدقيق لأخذ العينة.

— ستحصل عليه.

— سأحتفظ بنسخة هنا. أخرى ستغادر الليلة في ظرف لمستلم سري. سيتم إعطاء نسخة ثالثة للسيد بوتيي لأرشيف البلدية.

نظر هاسنفراتز إليه للحظة.

— هل أعددت كل هذا قبل أن نصل؟

— لقد أعددت النماذج. لم يكن لدي الأسماء أو التواريخ. الآن لدي.

عملوا لمدة أربع ساعات دون انقطاع. كان فان رين يمشي بجانبهم بانتظام الساعة: الصورة الأولى، الوصف، الحالة، الأبعاد، ثم التالية، ثم التالية. فحص ليبرون اللوحات، وتحقق منها، واختارها أو استبعدها. قام هاسنفراتز بقياس وتسجيل في سجله الخاص. حمل الجنود القطع المعروضة في الفناء، حيث كان المعبئون يعبئونها في صناديق جلبت من باريس.

فان رين لم يحتج أبدا. لم يقل أبدا إن هذه اللوحة كانت ثمينة جدا لتركها، أو أن أخرى لها معنى خاص يجب أن يحميها من أن تؤخذ. كان يصف. كان يملي عليه، بعد أن تحقق من كل مصطلح، وعيناه مثبتتان على قلم السكرتير الذي كان ينسخ تصحيحاته دون إظهار نفاد الصبر. عندما اختار هاسنفراتز قطعة، قام فان رين بتسجيلها. عندما تردد هاسنفراتز، انتظر فان رين دون كلمة.

في منتصف المعرض، أمام منظر شتوي كبير — مدرسة فلمنكية، مجهولة، من أواخر القرن السابع عشر، مصنوعة بشكل جيد لكن بدون توقيع يمكن تمييزه — توقف هاسنفراتز. الطريقة التي كان بها الضوء البارد يتساقط على الثلج بين الأشجار أوقفته لفترة أطول مما تستحقه القيمة السوقية للقطعة. انتهى به الأمر إلى استبعاده.

— ليس لديك ما تقوله؟ سأله دون أن يرفع عينيه عن الصورة.

— على أي واحد؟

— على ما نفعله. بشكل عام.

— على اللوحة: لقد قمت بحكمة في التخلص منها. إنها لوحة جيدة، ليست عظيمة. على مبدأ ما تفعله: لقد قلت كل ما في التقرير الذي أرسلته إلى لجنة التعليم العام قبل عشرة أيام. عبر القنوات الرسمية. أنا أعبر عن نفسي عبر القنوات الرسمية.

تدخل ليبرون، الذي استمع لهذا الحوار من المشهد التالي، دون أن ينظر خلفه.

— هل تعتقد حقا أن الوثائق ستكون كافية؟

— لا. لكن لا أستطيع أن أفعل أكثر.

استمروا. الرتبة العليا، ثم الرتبة الدنيا. ثلاثة وعشرون قطعة مختارة في المعرض الرئيسي قبل أن يبدأ الضوء في الخفوت في النوافذ العالية ويقرر هاسنفراتز التوقف ليوم واحد.

في اليوم الثاني، عملوا في الغرف الجانبية والمخازن. ثلاثة وعشرون قطعة أخرى، صيغ أصغر، وأصول مختلفة كان فان رين يمليها بنفس الانتظام.

في الشقق الخاصة، الأثاث مرتب للاستخدام اليومي، كرسي يسحب نحو المكتب مستعدا لاستقبال شخص ما، جرة ماء فارغة على طبق فضي لم يفكر أحد في أخذه منها، كتب مفتوحة على صفحات لم يكملها القارئ. فعلت الحرب ذلك: أوقفت الإيماءات في منتصف الطريق.

في غرفة الدراسة كانت ثلاث لوحات معلقة بخطاطيف تبدو أحدث من الجدران، تم تركيبها أو إعادة تركيبها على عجل، ربما في لحظة الرحلة، كما لو أن أحدهم أراد أن يثبت في ذاكرته موقع هذه الأعمال الدقيقة قبل المغادرة. منظرا طبيعيا للشمال،

المدرسة الفلمنكية في القرن السابع عشر، بجودة عمل صحيحة، لكن بدون أي تفرد خاص. وبينهما، لوحة جعلت ليبرون يحدد خطوة من عتبة الغرفة.

لم يدخل فورا. وقف في المدخل، ويده اليمنى مسطحة على إطار الباب، ونظر.

كانت لوحة شبه مربعة، ربما خمسة وثمانين سنتيمترا في تسعين سنتيمترا، يصعب تقديرها دون الاقتراب. أربعة شخصيات نصف الطول، مضغوطة في الإطار: ثلاثة رجال مسنين يرتدون ملابس داكنة، وفي الوسط، شخصية شابة، شبه أندروجينية، مرتدية الأبيض. على أقصى اليسار، كان هناك رجل من الجانب، يرفع يده قريبا من وجهه، وكأن فكرة تمنعه. على اليمين، كان هناك آخر يحمل القلم. كان هناك كتاب مفتوح كبير يحتل أسفل التركيب. كان الضوء يأتي من اليسار، كثيفا، مع تلك الصفة الخاصة للديكورات الفلمنكية حيث يبدو أن الضوء يسقط أقل مما يتراكم. ضرب الضوء الشخصية المركزية بشكل خاص، مما جعل بياض ملابسه نقطة ثابتة يبدو أن الثلاثة الآخرين يتجمعون حولها. كانت الوجوه مجوفة، ليس بسبب العمر فقط، بل بسبب اهتمام عميق جدا جعل الملامح تتآكل مع تآكل الحجارة من الماء.

كان فان رين خلفهم في الممر.

— الصفحة الثانية والأربعون من مخزوني. الإنجيليون الأربعة ليوردانس، حوالي 1625-1630. تركيب هادئ لأربع شخصيات نصف جسد حول كتاب إنجيل مفتوح. تم اقتناؤها لصالح المجموعة الملكية الفرنسية في مزاد فودروي عام 1784. زيت على قماش. حالة مرضية من الحفظ.

— لم يتم ترميمه أبدا؟ سأل ليبرون.

— أبدا، على حد علمي. هو في هذه الحالة منذ بدأت العمل هنا. لم يلمس النمساويون مجموعاتهم. كانوا يحافظون عليها، لكن بضبط النفس من يعرفون ما لديهم.

دخل ليبرون. اقترب من اللوحة حتى أصبح وجهه على بعد أربعين سنتيمترا من السطح، قريبا جدا لدرجة أن هاسنفراتز رأى انعكاس اللوحة في نظارات الرسام. ظل هكذا لفترة طويلة دون أن يتكلم، وتنفسه بطيء ومنتظم.

— انظر إلى تلك اليد. الشخص على اليسار، انظر كيف رفع أصابعه قرب وجهه. ليس للعرض. ليس لتفسير ذلك. إنها إيماءة شخص يتوقف في منتصف فكرة، يمسكه قبل أن يتركه. قضى جوردينز وقتا في تلك اليد. هناك تصحيحات هنا، أشعر بها تحت الورنيش. غير وضع الأصابع، ربما مرتين. النسخة الأولى كانت مبالغ فيها في التعبير. تعليمي جدا. هناك، وجد الإيماءة المناسبة: رجل لم يعد يُظهر، ولا يزال يبحث.

— سنأخذها، قال هاسنفراتز.

— أعلم.

— تغليف معزز. هيكل النقل، لا تدحرج.

— بالطبع.

كان فان رين يملي على سكرتيرته بنفس الانتظام كما في المعرض، جمال اللوحة، أو حزنه لرؤيتها تختفي، لم يكن له تأثير على إيقاع صوته.

كان ليبرون هو من طرح، عندما استدار ليغادر المكان، السؤال.

— لن تقول شيئا؟ لا كلمة عن شعورك؟

نظر إليه فان رين من فوق نظارته.

— لم أعين أمينا لأشعر بذلك. تم تعييني للحماية. وبما أنني لم أعد أستطيع الحفظ، أوثق. هذا ما سيبقى عندما ترحل.

في تلك الليلة، أعاد هاسنفراتز قراءة قوائم اليوم في غرفته المخصصة. تم اختيار ثلاثة وعشرين قطعة من المعرض الرئيسي. ثمانية في الشقق الخاصة. اثنان في غرفة الأرشيف، واثنان صغيران من تينير، مشاهد قرية بدقة مصغرة، رصدها ليبرون خلف خزانة محركة. ثلاثة وثلاثون قطعة في المجموع.

أغلق سجله. غدا، كانوا يؤدون التحضيرات النهائية. بعد غد، مغادرة إلى ميخلين.

قضى ليبرون جزءا من الليل على تغليف لوحة فان دايك متوسطة الحجم، «الإيداع»، وهي لوحة واحدة رسمت حوالي 1636-1640 لإخوة ريكوليه في أنتويرب، حيث قدمت طبقتهم التصويرية هشاشة مزعجة استمرت في انتباهه لفترة أطول مما توقع.

كان يعمل مع معبئيه في ساحة القصر منذ الفجر، تحت سماء بيضاء تعد بالدفء. راقبه هاسنفراتز من نافذة في الطابق الأول، ثم نزل إلى الطابق السفلي ليحل مع بوتيي الأسئلة الإدارية التي بقيت مفتوحة. أوامر استيلاء على عربات إضافية. تصاريح المرور. قائمة الجنود المتاحين للمرافقة. ستُفقد عشرة رجال في بروكسل، ويُستبدلون باثني عشر جنديا من الحامية المحلية التي نظمها بوتيي.

— ميشلين، قال بوتيي وهو يطوي الوثائق. هل هو للوحة واحدة؟

— فان دايك. في ما تبقى من كنيسة ريكوليه، التي دمرت الخريف الماضي، لكن اللوحة تم تأمينها في كاتدرائية سانت رومبولد من قبل الفصل.

— هل أنت متأكد أنه لا يزال هناك؟

— العميد رد على رسالتنا. أكد ذلك.

لم يعبر بوتيي عن رأيه في هذا الأمر. ثم، بعد لحظة:

— كانت هناك حوادث في ميشلين وقت الاستيلاء على المدينة. استخدم الجنود كنيسة الريكوليه كمستودع ذخيرة. اندلع حريق. احترقت الكنيسة جزئيا. يحمل فصل سان رومبو الفرنسيين مسؤولية الدمار.

— أعلم.

— أود أن أشير إلى أن الاستقبال في ميخلين قد يكون أقل حيادية من هنا.

— لم يكن يوما محايدا في أي مكان، قال هاسنفراتز.

سلم فان رين مستنداته في نهاية الصباح. ثمانية وستون صفحة مكتوبة بخط يد محكم ومنتظم، دون محو أو تصحيحات ظاهرة، كما لو أنه كتب كل جملة قبل أن يضعها على الورق. لكل عنصر تم أخذ عينة منه: الوصف الكامل، الأبعاد، الدعم، التقنية، حالة الحفظ وقت الجمع، المصدر المعروف، التاريخ ووقت السحب الدقيق، أسماء المفوضين الحاضرين. قسم بعنوان ببساطة «الملاحظات » احتوى، حيثما كان ذلك مناسبا، على ملاحظات حول المخاطر المحددة المرتبطة بالنقل أو على الترميمات السابقة التي من المحتمل أن تضعف العمل في ظروف مناخية معينة.

— هذه الوثيقة لك، قال وهو يضع الحزمة أمام بوتيي. ليس لي، لدي نسخي. لكي تعرف باريس ما الذي تستقبله وفي أي حالة. إذا وصلت قطعة متضررة، سيكون من الممكن تحديد مكان وموعد حدوث الضرر.

قلب هاسنفراتز الصفحات دون أن يقول شيئا. الكتابة كانت واضحة تماما. فكر في تصحيحات جوردانس تحت الورنيش. لكن فان رين لم يتراجع. كان يعرف ما يريد قوله قبل أن يكتبه.

— لقد أخذت كل شيء، لكن كل شيء مكتوب.

خرج دون انتظار إجابة. خطواته على أرضية الممر بدأت تتلاشى تدريجيا، ثم تختفي.

IV— ميخلين: *المسيح على الصليب*

كان الطريق من بروكسل إلى ميخلين مستقيما وسيئا. الجيوش التي استخدمتها منذ يونيو حفرت أخاديدا عميقة حولتها العواصف الصيفية الأولى إلى مزاريب ذات حواف صلبة. تقدمت العربات المحملة، وكل هزة تبعها فحص من ليبرون، الذي أرهف السمع إلى الصناديق كرجل يستمع إلى تنفس رجل مريض.

نظر هاسنفراتز من نافذة العربة. في أغسطس، كانت برابانت تحمل هذه الجودة الخاصة للسهول المزروعة في ذروة الموسم. الحقول المحصودة، القش الذهبي الجاف في ضوء العصر المتأخر، على جانب، وعلى الجانب الآخر القطع التي لا تزال قائمة، ثقيلة بحصاد لم يتحقق بعد، ولا يبدو أن أحدا مستعجل لصنعه. كانت الحرب تمر من هناك. لقد غير الأولويات.

من حين لآخر، كانوا يصادفون مجموعات من الفلاحين يتوقفون على جانب الطريق لمشاهدة مرور القافلة. لا عدائية ظاهرة. بل هو حذر الأشخاص الذين تعلموا أن القوافل العسكرية تجلب تعقيدات وأنه من الأفضل تركها تمر دون أن يلاحظها أحد. ركض بعض الأطفال للحظة بجانب الخيول قبل أن تناديهم أصوات النساء.

كان ليبرون قد نام مرة أخرى. فتح هاسنفراتز دفتر ملاحظاته مرة أخرى وأعاد قراءة ملاحظاته عن فان دايك في ميخلين.

المسيح على الصليب. كنيسة الريكوليتس، ميشلين. ذكرها ديسكامبس كواحدة من الأجزاء الرئيسية في المدينة. رسمت للمذبح العالي في الدير، ربما في النصف الثاني من عشرينيات القرن السابع عشر. زيت على قماش. الأبعاد التقريبية: حوالي مترين وعشرين سنتيمترا ارتفاعا، وعرض متر وستين سنتيمترا. نقل إلى سان-رومبو بعد الحريق في كنيسة ريكوليه في أكتوبر 1793.

لم ير العمل بعد. عمل من باريس مع أوصاف مستعملة، وتقديرات للأبعاد، وأحكام جودة اتخذها مسافرون من القرن السابق لم يكن لديهم نفس المعايير التي يحملها. كان يعلم أن فان دايك قد رسم عدة نسخ من *المسيح على الصليب*، وكانت التركيبة من مواضيعه المتكررة، وتمت مراجعتها وإعادة صياغتها طوال مسيرته. بعض النسخ كانت رئيسية. وآخرون، أقل من ذلك.

ظهر برج سانت رومبولد فوق الأشجار قبل أن تظهر المدينة. كان يشير إلى سماء المساء بطريقة تبدو المباني غير المكتملة أكثر حضورا من تلك المكتملة، كما لو أن غياب التاج يجذب العين إلى الأعلى إلى نقطة لم تكن موجودة بعد. قيل إن البرج كان قيد الإنشاء منذ قرنين من الزمن، وأن كل جيل تخلى عن المهمة بسبب نقص المال، تاركا الجيل التالي دينا معماريا تحول تدريجيا إلى طابع خاص. توقفت في منتصفها، ولم يفكر أحد في ميشلين بجدية في أنه قد ينتهي يوما ما.

قدر هاسنفراتز الارتفاع بأربعة وتسعين مترا. كان لديه عادة الحسابات المستمرة وغير الإرادية، والتي جاءت من تدريبه ككيميائي ومهندس: القياس، التقدير، التحويل. كل ما رآه حوله إلى أبعاد، وزن، مقاومة. كان ذلك وسيلة لإبقاء العالم على مسافة آمنة. ليحصل فقط على ما يمكنه علاجه.

استيقظ ليبرون في اللحظة التي مر فيها الطاقم عبر أول منازل المدينة.

ـــ هل وصلنا؟

ـــ نعم.

ـــ هل فان دايك في الكاتدرائية؟

ـــ هذا ما قيل لنا.

استقبلهم عميد الفصل، الأب هويسمانز، في غرفة الملابس. كان لديه بنية فلاحة لم تمحوه عقود من الحياة الكهنوتية، وعيون زرقاء عميقة لا ترمش. لم يعرض عليهم مقعدا. خلفه وقف اثنان من الكهنة الأصغر سنا والساكريستان، رجل ضعيف يداه، على عكس فان رين، لم تتوقفا أبدا. كانتا تبحثان باستمرار عن شيء يمسكونه، حافة قطعة أثاث، ظهر رداء، المسبحة الموضوعة حول حزامه.

ـــ لقد جئت من أجل فان دايك، قال هويسمانز.

ـــ نعم.

ـــ لقد تلقيت رسالتك. وقبل رسالتك، تلقيت رسالة من الجنرال القائد لحامية بروكسل يطلب مني أن أبقي اللوحة تحت تصرفك. هذه إجراءات مصادرة. لكن الكلمات لن تغير شيئا، على ما أظن.

ـــ هل يمكنك أن تقودنا إلى العمل؟

أخذ هويسمانز مفتاحا من خطاف خلف باب غرفة الملابس ونهض دون أن يقول شيئا. تبعوه إلى صحن البحر.

كان داخل كنيسة سانت رومبولد يتميز بارتفاع بارد أبيض يشبه الممرات القوطية العظيمة في برابانت، وأعمدة من الحجر الجيري الخفيف، وقباب مضلعة أنتجت نظامها الهندسي تأثيرا يكاد يكون هادئا رياضيا. لم تزال نوافذ الزجاج الملون بعد كما هو الحال في بعض كاتدرائيات فلاندرز الفرنسية. كان الضوء الملون يتساقط على الحجارة. كان يمكن سماع الحمام في مكان ما أثناء عبور الجناح العرضي. همهمة متقطعة ومشتتة تبدو وكأنها تأتي من مكان رائع ومن لا مكان محدد.

مروا بجانب حاجز الجوقة وعبروا الجوقة. أشار هويسمانز إلى الجدار الخلفي للحنية، إلى يسار المذبح الرئيسي. كانت اللوحة هناك، معلقة منخفضة جدا بالنسبة للمكان، والخطاطيف المؤقتة لا تزال مرئية بجانب الخطاطيف الدائمة القديمة التي تحمل لوحة أخرى، العمل الذي صمم لهذا الموقع. تم تركيب لوحة فان دايك هناك لعدم وجود شيء أفضل، بعد تدمير كنيسة ريكوليت، حيث كان يتم وضع لاجئ في غرفة لم تكن مخصصة له.

توقف ليبرون.

كان مختلفا عن توقفاته المعتادة أمام الأعمال الفنية، الطريقة التي يحدد بها خطوة، وينحني برأسه، ويقيم بمسافة التاجر والخبير. توقف تماما، وذراعاه بجانبيه، ويداه مفتوحتان. ظل على بعد خمسة أمتار من اللوحة ولم يتحرك للأمام فورا.

المسيح على الصليب. ارتفاعها حوالي مئتين وعشرين سنتيمترا، وعرضها مئة وستين سنتيمترا. المسيح وحده، لا شخصية حوله، لا مريم عند قدميه، لا يوحنا الإنجيلي، لا لص في فضاء اللوحة. فقط الجسد في الفضاء المظلم، وخلفه خلفية شبه سوداء بنية داكنة، يبرز عليها اللحم بدقة تشريح حي. ليس جسد رجل ميت، بل جسد لا يزال يحتضر، وينظر نحو شيء خارج الإطار، قليلا إلى اليمين والأعلى، مع نظرة استسلام في وجهه.

رسم فان دايك هذه اللوحة في النصف الثاني من عشرينيات القرن السابع عشر، بعد عودته من إيطاليا. وقد لوحظ التأثير الفينيسي في معالجة الضوء. هذه الطريقة في تطبيق اللون، والحصول من خلال هذا العمل على عمق شفاف، لم يكن الرسم المباشر ليتمكن من إنتاجه. لم يكن جسد المسيح أبيض. كان عاجيا دافئا قليلا في المناطق المضاءة، يميل إلى اللون الأزرق الرمادي في الظلال، مع انتقال تدريجي لدرجة أنه لا يمكن تحديد أين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر. كانت الأذرع الممدودة دقيقة بشكل لافت. شد العضلات تحت الجلد، ووزن الجسم الذي يسحب للأسفل ضد مقاومة المعصمين المثبتين، كل هذا تم تقديمه دون تمثيل درامي أو تأكيد، بنفس الاقتصاد في الوسائل الذي ميز التكوين بأكمله.

الشخصيات الأخرى، الملائكة، المشهد المعذب، السماء الممزقة، كان شيئا مختلفا عن التأثير الإيطالي. فهم ليبرون ذلك كقرار رسام: عزل ما هو أساسي وإزالة كل شيء آخر، حتى يبقى الجسد فقط والسؤال الذي يطرحه على المشاهد.

— رسم عدة نسخ. النسخة في فيينا ربما تكون أكثر شهرة. لكن هذه أكثر مباشرة. أقل بناء. كان لا يزال يبحث عن شيء عندما صنعها.

— وهل وجده؟

— هذا ليس السؤال. السؤال هو أننا نراه يبحث. هذا هو النادر.

ظل هويسمانز على الهامش، في منتصف السفينة. راقب المفوضين الاثنين ينظران إلى اللوحة بتعبير لم يستطع هاسنفراتز تفسيره بالكامل. ليس فقط ألم فقدان شيء محبوب، بل فضول مريب، شبه تحليلي تجاه الرجال الذين يفحصون ما سيأخذونه معهم بهذا القدر من الانتباه ويبدو، بطريقتهم الخاصة، حساسين له.

— تم رسم هذه الصورة للمذبح العالي لدير الريكوليتس. قام الريكوليتس بطلبه، ودفعه، ورحبوا به لمدة مئة وخمسين عاما. عندما دمرت كنيستهم على يد قوات

جمهوريتكم الذين كانوا يستخدمون المبنى كمستودع وفشلوا في مراقبة حريق، جمعناها هنا لمدة عشرة أشهر. كان يشعر بالراحة هناك. هنا، هو زائر.

— وفي باريس؟ سأل ليبرون.

— في باريس، سيكون في المنفى. ليس متكافئا.

— سيتم رده، قال هاسنفراتز.

نظر إليه ليبرون وهويسمانز.

— لا أعرف بالتأكيد. لن تقبل القوى الأوروبية إلى أجل غير مسمى أن باريس تركز ما أنتجته القارة بأكملها. يجب أن يعقد مؤتمر. سيكون هناك حاجة لتعويضات. ستُعاد المجموعات البلجيكية جزئيا.

— هل تحسب سياسات الأمم كما تحسب وزن الصندوق؟ قال هويسمانز.

— أنا أحسب ما أستطيع حسابه. هذه طريقتي في العمل.

— وماذا عن انتظار هذا المؤتمر الافتراضي؟

— وفي هذه الأثناء، سيكون في المعرض الكبير للمتحف المركزي. آلاف الناس سيشاهدونه. سيدرس الفنانون تقنيته. طلاب الفنون الجميلة سيصنعون نسخا عنها.

— شعب ميخلين لا يحتاج إلى عمل نسخ. جاءوا لرؤيته هنا. في كنيسته، أمام مذبحه، مع الشموع المضاءة والصمت المناسب.

— بأعداد أقل.

— بمعرفة أكبر بما كانوا ينظرون إليه.

أخرج هاسنفراتز دفتر ملاحظاته وبدأ في القياسات الأولية. الارتفاع، العرض، السماكة المقدر للنقالة، الحالة المرئية للقماش على الحواف، جودة الخطاطيف. أرقام. حقائق. بيانات مستقلة عن المشاعر التي كانت لدينا أمامها.

خلال هذه الفترة، لم يغادر هويسمانز الكاتدرائية. كان يمشي ذهابا وإيابا في الممرات، أحيانا يتوقف في الجوقة، ينظر إلى الكهنة الذين أسسوا جولة حضور. اتخذ المجتمع قرارا جماعيا بأن فان دايك لن يترك وحيدا في ساعاته الأخيرة في ميخلين.

أما الساكريستان، فقد وجد مشاغل في أبعد أجزاء غرفة الملابس. لم يعد يرى كثيرا.

في اليوم الثاني، تم إزالة اللوحة.

شاهد هويسمانز العملية من مقاعد الجوقة، جالسا، ويداه مسطحتان على ركبتيه. ظل الكاهنان واقفين خلفه. لم يتحدث أحد.

ركع ليبرون على الحجارة ليفحص السطح من ارتفاع منخفض.

— حالة مثالية. لا يوجد ترميم قديم ظاهر. الهيكل سليم، لا يوجد أي ارتخاء في التجميعات. يبدو أن الورنيش الأصلي سليم. يجب ذكر ذلك في التقرير.

ركع للحظة، وعيناه على وجه المسيح.

— سأعود إلى ميخلين يوما ما. عندما يعود.

نزل هويسمانز، من المقاعد، درجات الجوقة. عندما وصل إلى مستوى ليبرون، توقف.

— هل تصدق حقا ما قلته الليلة الماضية عن الاسترداد؟

— أصدق ما أحسب. هذا ليس هو نفسه الإيمان.

— هل يهمك أن تعرف أنه سيعود؟

فكر ليبرون بجدية في السؤال قبل أن يجيب.

— لا. لكن ربما من أجلك.

نظر هويسمانز إلى اللوحة لفترة طويلة.

— ربما. سأموت قبل ذلك. لكن الكنيسة ستكون هناك.

استغرق وضع القفص ساعتين إضافيتين. تم سد المفاصل بالشحم لمنع الرطوبة. لصق ليبرون نفسه ملصق الورق القوي على الغطاء، مكتوبا بيده بحبر أسود: *فان دايك — المسيح على الصليب — ميشلين، سانت رومبولد — 25 أغسطس 1794 — النقل مسطحا إجباري — هش.*

حمل أربعة جنود الصندوق من الصحن إلى العربة إلى الشارع الجانبي. كان وزنها، مع اللوحة، بين مئة وخمسين ومئة وثمانين كيلوغراما حسب تقدير هاسنفراتز. كان الجنود ينفخون في حرارة الظهيرة.

في الشارع على طول سان رومبو، تجمع حوالي ثلاثين شخصا. ليس حشدا. كانت امرأة تحمل طفلا على ذراعها. رجل مسن جدا كان يمسك قبعته بكلتا يديه أمامه دون أن يرتديها. لم يكن أحد يصرخ. لم يبدو أن أحدا يبكي.

راقب هاسنفراتز هذه الوجوه من عتبة الفناء.

ركب العربة. انطلقت القافلة إلى بروكسل.

في تلك الليلة، في المنزل المصادَر الذي كان بمثابة مقر لهم في بروكسل، جلس ليبرون على الطاولة في غرفة المعيشة وفتح الدفتر الشخصي الذي يحتفظ فيه بملاحظاته. ليس السجل الرسمي للمهمة، بل دفتر صغير بغلاف مرن لم يقرأه أحد غيره.

لاحظ أبعاد فان دايك. الجودة الخاصة للضوء في هذه اللوحة. لاحظ التصحيحات التي خمنها خلف اللوحة. تغيير في زاوية الذراع اليمنى، صححه فان دايك بعد البداية.

توقف. ثم كتب أدناه سطرا لم يكن يخطط لكتابته:

يقول هويسمانز إنني أحسب حيث كان يجب أن أشعر. يوثق فان رين حيث كان يجب أن يحتج. أنظر أنا إلى حيث ربما يجب أن أغلق عينيّ. نحن ثلاثة رجال نفعل ما بوسعنا بما لدينا. لا أعرف إذا كان هذا يعفينا من أي شيء.

أغلق دفتر الملاحظات، وأطفأ الشمعة، وذهب لينظر من النافذة إلى الشارع المهجور.

كانت الصناديق في الفناء، تحت الحراسة. في غضون يومين، انضموا إلى القافلة المشتركة الكبرى في فالنسيان مع القطع القادمة من غنت وأنتويرب، ثم الطريق الطويل إلى باريس. ثلاثة وثلاثون قطعة من بروكسل. فان دايك من ميخلين.

فكر في فان رين مع صفحاته التي تتكون من ثمانية وستين صفحة. إلى هويسمانز في مقاعد الجوقة. لكل أولئك الذين شاهدوا دون أن يصرخوا.

٧ — قافلة طرق فلاندرز

فالنسيان، نهاية أغسطس 1794

وصل هاسنفراتز قبل يومين من بروكسل ومعه قطع من ميخلين. كان ينتظر. وصلت القافلة من غنت أولا، في نهاية الصباح. رآها هاسنفراتز تدخل ساحة الثكنات من نافذة الغرفة المخصصة له في الطابق الأول. ست عربات ثقيلة، مغطاة بقماش رمادي، يرافقها عشرون من الفرسان الذين تحمل زيهم آثار طريق أطول وأصعب من الطريق الذي أنجزه هو للتو. كانت الخيول منهكة. ترجل الجنود بحركات جامدة لرجال قضوا ساعات طويلة على الخيول دون توقف كاف.

نزل ثوين من العربة الأخيرة، ليس من العربة التي تبعتها، بل من العربة نفسها، جالسا على جانب الصندوق الضخم، ساقاه تتدليان في الهواء، كما لو أنه رفض الابتعاد عن الأجزاء التي كان مسؤولا عنها حتى طوال الرحلة. قفز إلى الأرض، ووضع كلتا يديه على القماش المشمع على الفور، وبقي هكذا للحظة، وعيناه مغلقتان، في موقف من يتأكد باللمس أن هناك شيئا ما لا يزال موجودا.

نزل هاسنفراتز لينضم إليه في الفناء.

— اللوحات؟ سأل.

— سليمة. ثلاث توقفات قسرية. عجلة مكسورة في أول عربة تبعد عشرين كيلومترا عن غنت. انتظرنا ساعة في الحقل حتى نجد واحدة احتياطية في أقرب قرية. ثم هطول مطر عنيف في آث كاد أن يغمر غطاء العربة الثانية، التي تحمل لوحة الإله الجالس على العرش. قضيت الليل أتحقق من أن الرطوبة لم تخترق. ثم تلة شديدة الانحدار عند مدخل كوندي بحيث لا تستطيع الخيول تسلقها، محملة بالكامل. كان علينا تفريغ الصناديق، حملها إلى الأعلى، إعادة التحميل. ست ساعات ضاعت.

— وماذا عن الألواح نفسها؟

— قلت لك ذلك. سليمة. كنت أتحقق في كل محطة.

سحب يديه من القماش المشمع ونظر إلى راحتيه وكأنه يتوقع أن يقرأ شيئا عليها.

— غريغوار ليس بخير. الطريق أرهقه. وشيء غير الطريق.

— ديفيد؟

— ديفيد لم يأت إلى هنا. غادر القافلة في آث. كان هناك رسالة من باريس ينتظره هناك. أخبار من تيرميدور، على ما أظن، الذي طلب منه العودة بشكل عاجل. غادر إلى باريس بمفرده مع جنديين مرافقيين. لم يخبرنا بما تحتويه الرسالة. لكنه كان شاحبا.

هاسنفراتز أخذها. وصلت أخبار سقوط روبسبير إلى بروكسل في 29 يوليو، بعد يومين من الأحداث. كان معروفا أن ثيرميدور قد حدث. لم يكن أحد يعرف بعد ماذا يعني هذا للبعثة، أو للمفوضين، أو للجمهورية ككل. كان ديفيد عضوا في لجنة الأمن العام. كان قربه من روبسبير معروفا جيدا. لم يكن رحيله السريع فألا حسنا له.

وصلت القافلة القادمة من أنتويرب بعد ساعتين. ليبرون، الذي خرج إلى الفناء عند أول صوت لحوافر على بلاط الشارع، تعرف على معبئيه، وحياهم بإيماءة. ثم بحث عن الأرقام المكتوبة على جوانب الصناديق. نظام وضعه قبل المغادرة لضمان عدم فقدان أو استبدال أي منها.

جاء الضابط الذي كان يقود مرافقة قافلة أنتويرب ليقدم تقريره إلى هاسنفراتز بإيجاز رجل يفضل الحقائق على التعليقات. محور متشقق في مونز، تم إصلاحه في الموقع خلال ثلاث ساعات. محاولة سطو في ليلة 9 إلى 10 أغسطس، عند محطة جيمابس. حاول رجلان إجبار قفل صندوق بينما كان الحارس يغفو. تم اعتقالهم قبل أن ينجحوا. لقد جُلدا وتُركا في مكانهما، مربوطين إلى شجرة على جانب الطريق. لا شيء آخر.

— هل كانوا يعرفون ما بداخل الصناديق؟ سأل هاسنفراتز.

— من المستحيل القول. ربما كانوا يبحثون عن سرقة أي شيء. الطرق غير آمنة للقوافل المحملة بالكامل.

— في المستقبل، سيتم مضاعفة الحارس الليلي. أريد رجلين واقفين طوال الوقت، وليس واحدا.

— متفق.

هاسنفراتز تجول في الفناء.

توقف أمام العربات التي تحمل ألواح فان آيك ووضع يده على غطاء مشمع. كانت الألواح هناك، تحت القماش، سليمة.

ذهب وطرق باب العربة حيث لجأ غريغوار.

أخذ الأب لحظة للرد. عندما فتح الباب أخيرا، رأى هاسنفراتز رجلا متقدما في السن بشكل كبير خلال ثلاثة أسابيع. وجهه غائر، عيناه محمرتان، ملابسه مجعدة كما لو أنه نام بها عدة ليال متتالية. لكن النظرة كانت لا تزال حية، لا تزال حاضرة، تحمل تلك الصفة من الاهتمام الأخلاقي التي تميزها والتي لم يخمد التعب الجسدي بعد.

— هاسنفراتز. هل سارت الأمور على ما يرام في بروكسل؟

— ثلاثة وثلاثون قطعة من بروكسل. بالإضافة إلى فان دايك من ميخلين.

— جيد. ديفيد رحل.

— أعلم. ثوين أخبرني بذلك.

— ثيرميدور يغير أشياء كثيرة. لا أعرف بعد أي منها أو بأي ترتيب. لكن هناك الكثير من الأشياء.

— من أجل المهمة؟

— لكل شيء. المهمة أيضا. لنعد إلى باريس بأسرع وقت ممكن. طالما نحن على الطرق، لا نعرف شيئا عما يحدث. وفي المستقبل القريب، عدم معرفة ما يحدث في باريس يعد شكلا من أشكال الخطر.

انطلقوا في صباح اليوم التالي عند الفجر، قبل أن تخف الحرارة.

قضى هاسنفراتز الليلة السابقة في إعادة تنظيم تشكيل القافلة. تسعة عشر عربة كانت كثيرة جدا للتقدم في عمود واحد على طرق لم يكن يعرف وضعها الدقيق بين فالنسيان وكامبراي. العمود الطويل كان يطرح مشكلتين مميزتين. أولا، الضعف. هجوم على مقدمة القافلة سيترك الذيل دون مراقبة لمدة تستغرق استجابة المرافقة. ثم الجمود، استحالة التكيف بسرعة إذا تعطل العربة وسدت الطريق. قرر تقسيم

القافلة إلى ثلاث مجموعات تفصل بينها حوالي كيلومتر، مع حرس متقدم مكون من ثمانية فرسان، وحرس مؤخرة مكون من ستة، واستطلاع يرسل للاستطلاع في كل مفترق رئيسي.

كان ثوين قد أبدى تحفظاته.

— مسافة كيلومتر واحد كثيرة جدا. إذا كانت المجموعة الأولى تواجه مشكلة، فلن تراها المجموعة الثانية.

— الثاني سيسمع الإشارات. كل فرقة لديها زمّارة. ثلاث أصوات قصيرة للتوقف الطارئ، واثنتان طويلتان لطلب تعزيز. هذا يكفي.

— وماذا لو غطت الرياح الإشارات؟

— ثم سيقوم الكشافة خلف المجموعة الأولى بالربط على ظهر الخيل. هذه ليست عملية عسكرية، يا ثوين. إنها قافلة نقل. ما يهم هو ألا تتوقف كل تسعة عشر عربة في كل مرة يصدر فيها محور صوت صرير.

لم يجب ثوين. لكن عندما حان وقت تشكيل المجموعات، رتب لتشكيل العربات التي تحمل ألواح فان آيك نواة المجموعة المركزية. تلك التي خطط هاسنفراتز للإشراف عليها مع معظم المرافقين. لم يكن تحديا. كان ذلك أولوية واضحة في الأفعال وليس الأقوال.

أما ليبرون، فقد سأل في أي مجموعة ستسافر عربة فان دايك من ميخلين.

— المجموعة الثالثة. مع قطع بروكسل.

— أنا أسافر مع المجموعة الثالثة.

— أنت تسافر مع غريغوار.

— أنا أسافر مع المجموعة الثالثة.

كان هاسنفراتز يعلم أنه لا يوجد ما يمكن كسبه من النقاش.

— حسنا.

كان هاسنفراتز يتنقل بين المجموعتين الأولى والثانية، يتنقل ذهابا وإيابا كما يبدو أنه يحتاج إلى انتباهه. تخلى عن السفر في العربة بمجرد مغادرته فالنسيا. العربة كانت تحبسك. على حصان، يمكنك رؤية القافلة بأكملها، يمكنك أن تتفاعل، وتتوقع. كان كيميائيا ومهندسا بالتدريب، وليس فارسا، وأربع ساعات على السرج سببت له ألما جعله يعرج في صباح اليوم التالي. لكن هذا كان الثمن الذي يجب دفعه للحفاظ على رؤية شاملة.

وقع أول حادث خطير في منتصف الطريق إلى كامبراي، عند عبور جسر ضيق فوق قناة، ربما تم تمزيق درابزينها جزئيا بواسطة عربة، أو بواسطة عجلات مدفع أثناء مرور الجيوش في الربيع. كان عرض الجسر المناسب كافيا لعربة عادية، لكنه بالكاد. أما أوسع العربات في القافلة، وهي تلك التي تحمل ثلاثيات أنتويرب، والتي كانت صناديقها تبرز قليلا من الألواح الجانبية، فكان الهامش أقل من عشرة سنتيمترات على كل جانب.

أرسل الضابط القائد للطليعة كشافا للإبلاغ عن المشكلة. جاء هاسنفراتز ليرى، قاس العرض، نظر إلى الصناديق، نظر إلى الجسر، نظر إلى ارتفاع الماء في القناة، التي كانت منخفضة في ذلك الموسم، ربما مترين في الوسط، لكنها كانت كافية لإلحاق ضرر لا يمكن إصلاحه إذا سقط صندوق فيها.

— نمر بعربة واحدة في كل مرة. الخيول تدار يدويا، وليس باللجام. رجلان على كل جانب لمراقبة تدفق الصناديق الزائدة. سرعة رجل يمشي.

— سيستغرق الأمر وقتا، قال الضابط.

— نعم.

استغرق الأمر ساعتين. عبرت كل عربة الجسر، موجهة باليد، على مشي، رجلان على كل جانب يحملان ذراعين ممدودتين جاهزين للتدخل، وعيونهما مثبتة على المسافة بين حافة الصناديق وعمود الجسر.

العربة التي حملت *النزول من الصليب* لامست العمود الأيمن بينما انحرف الحصان لسبب لم يستطع أحد رؤيته بوضوح. كان هناك صوت تصدع. توقفوا جميعا.

كان الأمر مجرد إطار الجسر، وليس الصندوق. خشب قديم متعفن ينهار عند أقل لمسة. كان الصندوق سليما.

كان ليبرون، الذي كان يشرف على مرور مجموعته من الشاطئ، ينفخ من أنفه.

— في المرة القادمة، قال للضابط، يقيس الكشافة الجسور قبل التقدم في القافلة.

— ليس لدي مسطرة مدرجة، قال الضابط.

— ثم يقيسون بأذرعهم. ذراع البالغ يبلغ طولها حوالي سبعين سنتيمترا. ذراعان طولهما متر وأربعون سنتيمترا. أعرض الصناديق يبلغ مترين وعشرة سنتيمترات. ثلاثة أذرع ونصف. ليس من الصعب حسابه.

فهم الضابط وظل صامتا.

خيموا في تلك الليلة على أطراف كامبراي، في حقل مصادَر بجانب مزرعة. كانت العربات مرتبة في مربع، وأهم الصناديق في الوسط، والجنود في دائرة خارجية.

أشعلت النيران في أركان المعسكر الأربعة. كان الليل صافيا ودافئا، مع صراصير الليل في العشب الجاف، ومن حين لآخر، نداء طائر ليلي قصير من الأشجار على حافة الحقل.

تفقد ثوين الصناديق التي تحمل لوحات فان آيك بعد العشاء، تحت ضوء الفانوس. رفع غطاء كل واحدة، مرر أصابعه على الأوتاد، وتأكد من أن رطوبة الليل لم تبدأ في الاستقرار على الخشب.

كان هاسنفراتز، جالسا على الجانب الآخر من النار، يراقب المعسكر. كان الليل صامتا باستثناء صراصير الليل. الجنود كانوا يأكلون أو ينامون. كان غريغوار قد تقاعد. كان ليبرون في مكان ما على جانب عربات المجموعة الثالثة. كان يمكن رؤية ظله يمر، يتحقق، يعدّل، يطمئن.

— هو لا ينام أبدا؟ سأل ثوين، متبعا نظرة هاسنفراتز.

— ربما ليس كثيرا.

— إنه رجل يبذل جهدا كبيرا. ليس مثل ديفيد.

وضع هاسنفراتز الحطب في النار وشاهد الشرارات ترتفع.

— لديفيد طرقه الخاصة في بذل الجهد. هي أقل وضوحا لأنها سياسية أكثر من كونها تقنية. لكنها موجودة.

— كانت، تابع. كانت له طرقه. أتساءل ماذا يفعل الليلة.

كان هذا هو السؤال الذي كان الجميع يطرحونه منذ مغادرة فالنسين. ثيرميدور. روبسبير مات. ديفيد متورط. الجمهورية التي أعيد تشكيلها حول توازنات جديدة لم يفهمها أحد بعد. غادرت هذه القافلة باريس باسم لجنة السلامة العامة. لم تعد لجنة السلامة العامة كما كانت عند مغادرتها. هل كانت المهمة لا تزال سارية؟ هل احتفظت أوامر الاستيلاء، التي وقعها رجال، بعضهم ربما كان في السجن وقت عبور القافلة سهل كامبريسيس، بقوتها القانونية؟

كان هاسنفراتز يعتقد ذلك. تم أخذ اللوحات. تم توقيع الإيصالات. لم تعتمد شرعية المصادرة على المصير الشخصي للموقعين. لكنه كان يعلم أن هذا النوع من المنطق القانوني يمكن الطعن فيه. وفي تلك اللحظة، في باريس، كانت الأمور تنقلب رأسا على عقب كل يوم.

— سنعود. نسلم القطع إلى المتحف. هذا كل ما يمكننا فعله.

— وماذا لو طلب منا في باريس تبرير المهمة أمام لجنة تغير أعضاؤها؟

— إذا سنبرر. القطع موجودة. هي موجودة. هذا أفضل مبرر متاح.

أومأ ثوين دون اقتناع، لكنه أيضا دون اعتراض.

كان هاسنفراتز يحتفظ بمذكرات. ليس السجل الرسمي الذي كان سيملأه في باريس ليقدم تقاريره إلى لجنة التعليم العام، بل دفتر شخصي يدون فيه المسافات التي قطعها، وأوقات السفر، والحوادث، وحالة الطرق والجسور. كان هناك شيء في هذا النشاط يهدئه. يتم تقليص كل يوم إلى بيانات قابلة للقياس، كيلومترات، ساعات، حوادث تم تحديدها وحلها. وهكذا أصبح الطريق بين فالنسيان وباريس سلسلة من المشاكل التقنية المتتالية، كل منها له حل، أو على الأقل حل جزئي. كان ذلك أفضل من الطريقة الأخرى للنظر إلى هذه الرحلة، وهي التفكير فيما تحمله القافلة وكيف تم تجميعها.

وصلوا إلى كومبيين في 28 أغسطس في وقت متأخر من بعد الظهر، تحت سماء تحولت إلى الرمادي منذ الصباح، وسحب ثقيلة بلا حراك، تحافظ على الحرارة على الأرض دون أن تثبتها. كان هناك حامية دائمة، ومفوض جمهوري في المنصب، ونزل لا تزال تعمل رغم سنوات الحرب. لم يجد هاسنفراتز صعوبة في الحصول على مصادرة ساحة مستودع كبيرة تكفي لتسعة عشر عربة، مع سقف مائل يمكن أن تخضع تحته أضعف الصناديق في حال اندلاع العاصفة أخيرا.

طلب غريغوار تناول العشاء مع المفوضين الآخرين. كانت هذه أول مرة منذ فالنسيان يطلب فيها مثل هذا الطلب. كان قد تناول الطعام وحده في الليالي السابقة، أو كان تقريبا وحيدا، مع ثوين ليكون صحبة بين الحين والآخر.

تناولوا العشاء في غرفة مشتركة في نزل. غرفة ذات سقف منخفض، طاولات خشبية، شموع، خادمة تجلب خبزا، لحم بارد، سلطة فاصوليا، وقاريق من النبيذ الأحمر العادي دون أن يطلب ما يريد. هذا ما كان عليه.

للحظة لم يتحدث أحد عن ثيرميدور. قال ثوين شيئا عن حالة الطرق بين هنا وسينليس. لقد استجوبه سائق الحامية الذي يعرف القسم جيدا. سأل ليبرون عما إذا كان يمكن العثور على شحم بجودة أفضل في كومبيين مقارنة بما اشترى في بيرون، وكان ذلك يقلقه بسبب سد المفاصل. رد هاسنفراتز بأنه سيتولى الأمر في صباح اليوم التالي.

كان غريغوار هو من انقطع أخيرا عن الأسئلة العملية. وضع أدوات المائدة، ومسح يديه على المنديل، وقال:

ـــ تلقيت رسالة هذا الصباح. تم إرسالها من باريس عبر رسول عسكري. إنه من لاكانال.

كان لاكانال عضوا في لجنة التعليم العام. كان من القلائل الذين نجوا من تيرميدور دون أن يتعرض للخطر، لأنه لم يكن قريبا من روبسبير بما يكفي ليرتبط به، ولا بعيدا بما يكفي ليبدو عدائيا. رجل من الوسط، من تلك المواقع الوسيطة التي تصبح مزايا عندما تنهار الأطراف المتطرفة.

— ماذا قال؟ سأل هاسنفراتز.

— يقول إن المهمة مؤكدة. أن لجنة التعليم العام في تكوينها الجديد قد درست أوامر الاستيلاء وصادقت عليها بأثر رجعي. وأن الأعمال ستدخل المتحف بالأشكال المخططة. وأن هناك مراسم ترحيب تحضر.

— هذه أخبار جيدة.

— هذه أخبار، قال غريغوار. سواء كان جيدا أم سيئا، من المبكر جدا القول. يضيف لاكانال شيئا. قال إن مسألة شرعية المصادرات ستطرح في المؤتمر خلال الأسابيع القادمة. وأن أصواتا تُسمع لتقدّر أن المصادرات في البلدان المحتلة تشبه إلى حد كبير نهب الجيوش العادي بحيث لا يمكن الدفاع عنها كسياسة ثقافية.

— هذه هي نفس الأصوات التي سمعت قبل تيرميدور، قال هاسنفراتز. غريغوار نفسه كان واحدا منهم.

— أنا لا أخفي ذلك، رد غريغوار. وهم يجعلون أنفسهم مسموعين مرة أخرى لأن ما يقولونه صحيح. لم يجعل ثيرميدور النهب أكثر شرعية. جعل من الممكن قولها بصوت عال دون المخاطرة بالمقصلة.

جاءت الخادمة لتأخذ الصحون الفارغة وتحضر جبنا على لوح. لم ينظر إليها أحد.

— ما فعلناه قد حدث، قال ليبرون. اللوحات في العربات. خلال ستة أيام، سيكونون في باريس. إعادة فتح مسألة شرعية المصادرات الآن لن تغير هذا.

— لا. لكن قد يغير ما سنفعله بعد ذلك. يشير لاكانال إلى أن المصادرات المستقبلية — في إيطاليا، إذا استمرت الحملات العسكرية كما هو مخطط لها — ستكون خاضعة لشروط أكثر صرامة. معاهدات رسمية بدلا من أوامر الاستيلاء الأحادية. ربما تعويض مالي. قائمة بالأعمال التي أعدت باتفاق مع السلطات المحلية بدلا من فرضها القيمون.

— الشروط الأكثر صرامة لن تمنع المصادرات.

— لا. لكنها ستجعلها أكثر قابلية للدفاع. أمام التاريخ، إن لم يكن أمام المعاصرين.

تدخل ثوين، الذي كان يستمع منذ البداية:

— ما يقلقني هو مسألة العودة. لاكانال يقول شيئا عن هذا؟

— لا. لم يقل شيئا عن الإرجاع.

— لأن هذا هو السؤال الحقيقي. ما أخذناه، هل أخذناه إلى الأبد أم مؤقتا؟ إذا كان الأمر إلى الأبد، فإن كل التبرير التعليمي الذي استخدمناه مبني على فكرة أن باريس هي المكان الطبيعي الذي يجب أن تكون فيه هذه الأشياء. هذا قابل للنقاش. إذا كان مؤقتا — إذا اعترفنا ضمنيا بأن هذه الأعمال مقدر لها أن تعود إلى حيث أتت عندما تسمح الظروف بذلك — فإن الخطاب بأكمله حول تفوق باريس كمركز ثقافي ينهار. ثم يعترف بأن المصادرة كانت ظرفية وليست أساسية. وهذا يجعل الادعاء الكامل بباريس كمركز عالمي للثقافة غير مبرر.

— كلاهما في نفس الوقت، ربما، قال ليبرون. نأخذها لأن لدينا القوة لذلك. نحن نعرضها لأن لدينا الإرادة للقيام بذلك. وفي يوم ما يغادرون لأن ميزان القوى قد تغير. هذه هي الحركة الطبيعية للأشياء. الأشياء تتبع القوى. لطالما فعلوا ذلك. روما أخذت التماثيل اليونانية. أخذت القسطنطينية ما تركته روما. نأخذ ما جمعته الإمبراطورية الرومانية المقدسة في فلاندرز. بعد مئة عام، سيأخذ أحدهم ما جمعناه في باريس.

— إنها حجة نسبية تاريخية لا تبرر شيئا.

— هو لا يبرر شيئا. هو يصف ما هو موجود.

— الوصف ليس مبررا.

— لا. لكن أحيانا يكون الوصف كافيا ليجعلك تشعر بالسلام مع ما فعلته.

نظر إليه غريغوار للحظة دون أن يجيب. لم يكن هناك غضب على وجهه. كان شيئا آخر، أكثر هدوءا وأكثر تحديدا.

— لا أستطيع أن أكون في سلام مع الحجج التاريخية. رأيت القس دي فوس يبكي في غنت. رأيت الحشد أمام الكاتدرائية في صباح يوم المغادرة. رأيت الناس راكعين على الحجارة المرصوفة. لم يكن التاريخ هو من بكى. كانوا رجالا ونساء يفقدون شيئا يحبونه. ولا يوجد جدال حول الحركة الطبيعية للقوى يتناول هذا.

— إذا لماذا أنت هنا؟ سأل ليبرون بهدوء.

أخذ غريغوار أدوات المائدة، قطع قطعة جبن، ونظر إليها دون أن يأكلها.

— لأنني كنت أؤمن، عندما كنت أغادر، أن وجودي يمكن أن يغير الأمور. أنني سأمنع التجاوز. وجود غريغوار في اللجنة يعني أن اللجنة سيكون لديها ضمير. كان ذلك متعجرفا. ومع ذلك، حدثت التجاوزات على أي حال. تم اعتقال القس دي فوس على أي حال. الألواح موجودة في العربات على أي حال. وجودي لم يغير الحقائق. جعلتني شريكا في الحقائق.

— هذا ليس صحيحا تماما، قال هاسنفراتز. لقد تمكنت من جعل المصادرة في غنت تستغرق ثلاثة أيام بدلا من يوم واحد. منعت ديفيد من التسرع في العمليات. الألواح سليمة لأن ثوين استطاع العمل في ظروف جيدة لأنك صمدت أمام استعجال ديفيد. هذا ملموس.

— نعم. ولم تعد الألواح موجودة في غنت. كلا الأمرين صحيحان.

في الخارج، تم أخيرا تحديد العاصفة التي كانت تهدد منذ الصباح. بدأ المطر الغزير يهطل على أرصفة الفناء، منتظما وكثيفا، مع صوت مطر الصيف الغريب على الحجر الساخن. صوت كاد أن يسكن، يكاد يكون راضيا، كما لو أن السماء أوفت بوعدها الذي تأجل لفترة طويلة. فكر هاسنفراتز في الصناديق تحت المظلة. مع مفاصل مغطاة بالشحم.

— سأفحص الأغطية.

— هاسنفراتز! هتف غريغوار.

توقف.

— ما فعلته في بروكسل وميخلين. كيف كانت تجربتك؟

— صحيح. قيّم يوثق كل شيء في نفس الوقت. عميد كاتدرائية يطرح الأسئلة الصحيحة دون قتال. لا حشود، لا عنف. الحصيلة مكتملة. كل شيء في حالة جيدة.

— وأنت؟ كيف مررت بذلك؟

فكر هاسنفراتز للحظة. كان سؤالا لم يعتد أن يطرح عليه، ولم يعتد الإجابة عليه.

— لقد أنجزت عملي. تماما كما فعل فان رين توثيقه. تماما كما فعل هويسمانز بالحفاظ على اللوحة آمنة لمدة عشرة أشهر. كل واحد منا كان يفعل ما يستطيع فعله في الوضع الذي كنا فيه. لا أعرف إذا كان هذا جوابا مرضيا على سؤالك. إنه الوحيد الذي أملكه.

خرج تحت المطر. كان الفناء فارغا. لجأ الجنود إلى تحت المظلات أو في الإسطبلات. وقفت العربات في الظلام الرطب، وأغطيتها اللامعة داكنة ولامعة، وأشكالها الضخمة بالكاد يمكن تمييزها عن بعضها البعض. تحت الملجأ، كانت الصناديق الكبيرة تنتظر في الظلام.

وقف هناك للحظة يستمع إلى المطر. في مكان ما بين هذه الصناديق كانت هناك لوحات رسمها يان فان آيك قبل ثلاثمائة واثنين وستين عاما، لوحات غطاها روبنز بالطلاء بحيوية امتدت عبر القرون، لوحة المسيح لفان دايك التي كانت تنظر من إطارها منذ مئة وخمسين عاما. لقد نجوا من الحروب، والحرائق، والإصلاح،

ومحطمي الأيقونات، وتقلبات الإيمان والتجارة والسياسة الأوروبية. نجوا من هذا المطر في أغسطس على الطريق من كومبيين إلى باريس. سيعيشون أطول منه.

عاد إلى النزل. كانت غرفة المعيشة خالية. غريغوار وثوين وليبرون صعدوا إلى الفراش. كانت الشموع لا تزال مشتعلة، نصف محترقة. جلس، فتح دفتر السجلات، ولاحظ: «*28 أغسطس. كومبيين. مطر الساعة 10 مساء. تم فحص المفاصل. حالة مرضية. المغادرة غدا الساعة 5 صباحا إذا كان الطريق صالحا للسير.*»

ثم أطفأ الشموع وصعد إلى الطابق العلوي بدوره.

VI — الوصول إلى باريس والتفريغ

دخلوا باريس في 2 سبتمبر 1794 عبر حاجز سان دوني، في منتصف الصباح.

كان القسم الأخير من سينليس هو الأصعب. ليس بسبب الطريق، الذي كان في حالة أفضل من أي شيء عبروه من فالنسين، بل بسبب حركة المرور. ركزت أطراف باريس كل ما أطلقته الحرب والثورة: عربات عسكرية تسير في الاتجاه المعاكس للمخازن في الشمال، صفوف من اللاجئين الذين كانوا يساروا على الأطراف بعربات اليد المحملة بالأدوات المنزلية، قطعان تنقل إلى المسالخ في الضواحي، سعاة على ظهور الخيل الذين يتجاوزون القافلة وهم يصرخون للسماح لهم بالمرور. استغرق هاسنفراتز خمس ساعات لتغطية آخر اثني عشر فرسخا. عادة، ساعتان كانتا كافيتين.

عند الحاجز، قام ضابط صف في الحرس الوطني بفحص التصاريح، وعد العربات، وسأل عما تحتويه الصناديق. سلمه هاسنفراتز أمر لجنة التعليم العام. قرأها الرجل ببطء، وشفتيه تتحركان على الكلمات الصعبة، ثم سلم الوثيقة وسمح للقافلة بالمرور.

كانت الضواحي الشمالية تحمل خصائص الأحياء التي تطورت دون خطة شاملة. شوارع ضيقة جدا لقافلة بهذا الحجم، مفترق طرق حيث عليك الانتظار حتى تمر الفرق أمامك للمناورة قبل أن تتراجع إلى شارع مجاور، والمتاجر التي تفيض مظلاتها على الطريق وكانت أقمشة العربات تلامسها أثناء مرورها. اضطر هاسنفراتز مرتين إلى النزول من حصانه وتوجيه مناورة عبور بنفسه في ممر ضيق بشكل خاص.

كان ليبرون، الذي يعرف باريس أفضل من أي شخص آخر في القافلة، قد اقترح في اليوم السابق مسارا بجانبي الشوارع الخارجية لتجنب المركز. قبل هاسنفراتز. لكن

الشوارع الخارجية لم تكن أكثر انفتاحا من الشوارع الداخلية. كانت ببساطة أعرض، مما يعني أنها تتلقى حركة أكثر بدلا من أقل.

نظر غريغوار إلى باريس من خلال نافذة العربة بوجه من عاد للتو من رحلة طويلة وغير متأكد من التعرف على ما يجده. المدينة تغيرت منذ ثيرميدور. ليس في حجارته، بل في جوها. كانت الرموز الثورية لا تزال في كل مكان: قبعات فريجية منحوتة فوق الأبواب، ونقوش الحرية، *المساواة، والأخوة* على واجهات المباني الدينية القديمة التي تم تحويلها. لكن شيئا ما في طريقة حركة الناس، وطريقة فتح المحلات، والطريقة التي تصاعد بها الأحاديث من شرفات المقاهي والتقاطعات، أشار إلى أن الضغط قد انخفض. أن كلمة *مواطن* أصبحت مرة أخرى صيغة مهذبة بدلا من إعلان ولاء.

كان لاكانال ينتظرهم أمام المستودع المؤقت الذي تم تجهيزه لاستقبال الصناديق. رافقه ثلاثة مسؤولين من المتحف، وضابط من الحرس الوطني مسؤول عن الأمن، وسكرتير يحتفظ بسجل مفتوح وقلم جاهز. خلفهم، حوالي عشرين عاملا في الفناء.

كانت مراسم الترحيب قصيرة. كان لاكانال قد أعد بعض الكلمات التي قرأها من صفحة، بصوت عال بما يكفي ليسمعه العمال، لكن دون أي تركيز واضح. كانت المناسبة تستحق أن تحتفل بها، لا مبالغة. تحدث عن إثراء تراث الجمهورية، وعن دعوة المتحف المركزي لجمع أعظم ما أنتجته الإنسانية، وعن المهمة التي أنجزها المفوضون على حساب صعوبات كبيرة.

استمع غريغوار دون أن يتفاعل. كان ثوين ينظر إلى الصناديق التي بدأت تفرغ من العربات. نظر ليبرون إلى لاكانال بحذر، كما ينظر المرء إلى رجل يحاول الإنسان قياس أفكاره خلف ما يقوله.

لم يستمع هاسنفراتز إلى الخطاب. عد العمال وقدر الوقت الذي سيستغرقه التفريغ.

عندما انتهى لاكانال، تقدم نحو غريغوار وصافحه.

— لقد قمت بعمل جيد. رغم الظروف.

— ما هي الظروف؟ سأل غريغوار.

— ثيرميدور. سؤال ديفيد. عدم اليقين بشأن شرعية المهمة. عدت إلى المنزل على أي حال. مع الأجزاء.

— كانت القطع ستصل بدوني. كان هاسنفراتز، ليبرون وثوين هم من قاموا بالمهمة.

— وجودك في اللجنة أعطاها طابعا لم يكن ليحصل عليه بدونك. كان ذلك مهما. لا يزال يحتسب.

— قبل كل شيء، سمح لي بأن أكون حاضرا عندما كانت الأمور التي كان يجب أن أمنعها تحدث. ليس نجاحا أنا أحتفل به.

لم يجب لاكانال على الفور. ثم ذهب ليحيي ثوين.

استغرق التفريغ كامل فترة بعد الظهر.

سارع العمال إلى قياس ما هو متوقع منهم. عملوا ببطء متعمد وجعلوا الصناديق تصل إلى اثنين أو أربعة حسب الحجم، وعيونهم مثبتة على ما يحملونه. بعضهم كان قد عمل بالفعل في المتحف. كانوا يعرفون الإيماءات، ويعرفون كيف يتعاملون مع زاوية صعبة دون أن يدير الجسم فجأة، وكيف يضعون شيئا ثقيلا دون أن يسقطوه حتى عشرة سنتيمترات.

رافق ليبرون كل صندوق في مجموعته إلى موقعه في المستودع. كان قد وضع خطة للتعامل مع فالنسين. الغرف الأكثر هشاشة في الوسط، على الجسور البعيدة عن الجدران حيث يمكن أن تتراكم الرطوبة، الغرف الأكثر صلابة على الأطراف. وقد نفذ هذا الخطة، التي أتقنها خلال ساعات القيادة الطويلة، دون تعديل. راقب مسؤولو المتحف، الذين كان لديهم فكرتهم الخاصة عن تنظيم المستودع، ترتيب ليبرون للحظة ثم وافقوا على حكمه دون نقاش.

حوالي الساعة الرابعة عصرا، كان صندوق فان دايك من ميخلين آخر من دخل المستودع.

سجل سكرتير لاكانال الوقت في سجله: الرابعة وثلاث وعشرين دقيقة.

سبعة وأربعون صندوقا. جميعها حاضرة. كلها سليمة.

في المساء، قدم لاكانال عشاء في شقته للمفوضين. كان باربييه، كبير أمناء المتحف، هناك.

سأل باربييه الأسئلة العملية أولا. متى ستفتح الصناديق؟ متى يمكن فحص القطع من قبل المرممين؟ متى يمكن إعادة تجميع وعرض لوحة «نزول روبنز من الصليب»، التي تم قطع أجزاء منها للنقل؟ هل صحيح أن لوحة القديس يوحنا المعمدان في مذبح فان آيك تعرضت لشق أثناء التفريغ في غنت؟

أجاب ثوين على هذا السؤال الأخير بوضوح لا يعترف بتفسير غير دقيق.

— حدث تشقق أثناء التعامل في كنيسة فيد أثناء أخذ العينات. ليس عند التفريغ. الشق موجود في الجزء الخلفي من اللوح، في خشب الدعم. تم الدمج في الموقع بالوسائل المتاحة. سيتعين على المرممين لديكم استعادتها مع المواد المناسبة. وثقت الحالة

الدقيقة للشق عندما غادرنا غنت، وفي كل فحص منذ ذلك الحين. لا تغيير منذ فالنسين. وقد استمر الاندماج.

— سيكون تقريرا كاملا ضروريا، قال باربييه.

— سيكون على مكتبك صباح الغد.

بعد العشاء، تفرق المفوضون في باريس.

عاد ثوين إلى حديقة النباتات، حيث كان مساعدوه ينتظرونه بعد ستة أسابيع من الملاحظات النباتية التي جمعت في غيابه. صافح الجميع في ساحة المستودع قبل أن يغادر.

أخذ غريغوار سيارة أجرة ليعود إلى المنزل.

فضل ليبرون العودة إلى المستودع.

علم هاسنفراتز بذلك في صباح اليوم التالي أثناء مروره بالباب. أخبره الحارس الليلي أن المفوض ليبرون وصل بعد الساعة العاشرة مساء بقليل ومعه فانوس وطلب السماح له بالدخول. بقي حتى الفجر. لم يفتح الصناديق. جلس على كرسي بين الصناديق، في الظلام، وفانوسه موضوع على الأرض أمامه.

الحارس، الذي كان مهتما بهذا الشيء، سأله إذا كان يريد شيئا.

— لا، قال ليبرون. أتحقق من وجود كل شيء هناك.

— وماذا لو كانت هناك قطعة مفقودة؟

— إذا يجب أن أعرف الليلة وليس صباح الغد. هذا أفضل.

رأى الحارس أن الإجابة معقولة وتركه وشأنه.

في 18 فنديمير، السنة الثالثة — في 9 أكتوبر 1794 حسب التقويم القديم — فتح المتحف المركزي للفنون غرفه الجديدة للجمهور.

تم عرض لوحات فان آيك في المعرض الكبير، على خلفية من القماش الداكن الذي أبرز بريق الألوان. وصفت بطاقة كتبها باربييه العمل وأصله ونقله إلى باريس، وذكر بصدق الشق في لوحة القديس يوحنا المعمدان والترميم الجاري. أمام لوحة الإله الجالس على العرش، استقر ثلاثة فنانين بمجرد فتحها مع أوراق الرسم ولم يتركوها طوال اليوم.

احتل آل روبنز جناح الجناح العرضي للقاعة المركزية الكبيرة. تم إعادة تجميع النزول من الصليب خلال عشرة أيام. كانت المفاصل المقطوعة بالكاد مرئية بالعين المجردة، غير مرئية من المسافة العادية للزائر. كان تأثير اللوحة في هذا المكان

كبيرا. توقف عدة زوار لفترة طويلة، أطول من المعتاد، في ذلك الصمت المنتبه الذي يلاحظه المرء في الناس الذين ينظرون إلى ما هو أبعد منهم ولا يحاولون الدفاع عن أنفسهم منه.

لم تعرض لوحة فان دايك في ميشلين في ذلك اليوم. رأى باربييه أن الافتتاح الأصلي يستحق أن يثبت بمعالجة ضوئية قبل المعرض، وهو عمل استغرق بضعة أيام إضافية. كانت اللوحة تنتظر في المستودع، في صندوقها، ملصق ليبرون، الذي لا يزال عالقا على الغطاء.

لم يحضر هاسنفراتز حفل التنصيب. في ذلك الصباح كان في مختبره في مدرسة المناجم. كان هناك تراكم في العمل. بدأ العمل.

في فترة بعد الظهر، أحضر له أحد مساعديه رسالة من لاكانال. استدعاء لاجتماع لجنة التعليم العام في الأسبوع التالي، حول المصادرات المستقبلية في إيطاليا. كانت الحملات العسكرية في شمال إيطاليا تلوح في الأفق. إذا نجحوا، سيكون هناك أعمال جديدة يمكن جمعها. مهمات جديدة لتنظيمها. قوافل جديدة للتحضير.

طوى هاسنفراتز الرسالة، وأدخلها في جيب سترته. كان هناك اجتماع للتحضير.

VII— المتحف واللجنة

باريس، أكتوبر 1794

تم عرض لوحة فان دايك من ميشلين في 24 فنديميير، بعد أيام قليلة من افتتاح المقتنيات الفلمنكية الأخرى. أصر باربييه على أن يتم معالجة الفتحة وفقا للقواعد وليس على عجل. قرار أزعج لاكانال، الذي كان في عجلة من أمره لعرض كل القطع للجمهور، والذي حافظ عليه باربييه دون نقاش عديم الفائدة، بعناد هادئ من الناس الذين يعلمون أنهم على حق في مجالهم وأن حجج الآخرين، حتى لو كانت سياسية، لا تغير الحقائق التقنية.

علقت الصورة في الغرفة الثالثة من المعرض الكبير، بين نافذتين مرتفعتين، تحت ضوء أكتوبر ذهبي خفيف كان باربييه يبحث عنه طوال الصباح بنقل الصورة من جدار إلى آخر. وجه الضربة الأخيرة بالمطرقة وتراجع.

— جيد، قال للعامل الذي كان يمسك المستوى. يمكن أن تبقى هناك.

في الأسابيع الأولى، تم غزو المتحف.

هذا ليس جديدا. افتتح المتحف أبوابه في عام 1793، وزاره الجمهور الباريسي منذ البداية بمزيج من الحماس المدني والفضول الصادق. لكن المقتنيات الفلمنكية أضافت بعدا لم تكن المجموعات السابقة تمتلكه بنفس الدرجة: اختلاف جذري. كانت

اللوحات الإيطالية التي كان يملكها المتحف منذ البداية جزءا من جمالية اعترف بها الجمهور الباريسي. وقد غذى الرسم الفرنسي من لو برون إلى ديفيد من ذلك، ورؤية كاراتشي أو غيدو ريني في المتحف كانت بمثابة مصدر مألوف معروض لذاته. كان الفلمنكيون شيئا مختلفا. طريقة مختلفة للنظر إلى العالم، وتصويره في الرسم، ومعالجة الضوء والمادة.

وصل الفنانون أولا، كما هو الحال دائما. في اليوم التالي للافتتاح، جلس طلاب الفنون الجميلة أمام لوحات فان إيك، يقلدون التفاصيل، يحاولون فهم التقنية، ويناقشون بصوت منخفض فيما بينهم العمليات المستخدمة. أحضر الأكثر تقدما لوحات معدة وبدأوا في رسم نسخ ملونة. وقد سمحت هذه الممارسة بموجب لوائح المتحف، التي رأت النسخة شكل من أشكال التكريم والتعلم بدلا من المنافسة مع الأصل.

جلس رسام يدعى لانتييه أمام لوحة «نزول من الصليب» لروبنز في اليوم الثالث ولم يتحرك منه تقريبا طوال أسبوع كامل. لم يقلد. كان يراقب. من وقت لآخر كان يدون ملاحظة. كلمة، جملة، نادرا ما أكثر. كان حراس المتحف يجلبون له مقعدا في الصباح ويأتون ليأخذوه مساء عندما تغلق الغرف. شكره بإيماءة دون أن يرفع عينيه عن الصورة.

مر باربير بجانبه ذات صباح وتوقف.

— هل تبحث عن هدف محدد؟

— أحاول أن أعرف كيف فعل ذلك، قال لانتييه دون أن يلتفت.

— هذا؟

— أبيض. الكفن. هناك ثلاثة بيض في هذا الكفن. لا توجد ثلاث درجات من نفس الأبيض. ثلاثة بيض من طبيعة مختلفة. تلك الخاصة بالقماش في ضوء مباشر. ذلك القماش نصف اللون. وذلك الذي ترى من خلال القماش حيث يكون شفافا ويسمح للون الذي تحته أن يظهر. ثلاث طرق لرسم اللون الأبيض. لا أستطيع أن أرى كيف عبر عنها. يجب أن يكون مرئيا، من هذه المسافة. لا يمكنك رؤيته.

— إنها نعومة اللمسة، قال باربييه. هذه الطبقات من الطلاء فوق بعضها البعض تمزج التحولات. هذا ليس نهجا يمكن إعادة بنائه بالملاحظة فقط. يجب أن تكون قد فعلت ذلك بنفسك لتفهم ما تراه.

— أعلم. لهذا السبب ما زلت أشاهد.

وافق باربييه وذهب في طريقه.

كان الجمهور غير الفنانين يصل في فترة بعد الظهر، في مجموعات من عشرين أو ثلاثين شخصا، وأحيانا أكثر. كان جمهورا مختلطا. برجوازيون يرتدون ملابس أنيقة، عمال يرتدون سترات عمل، نساء مع أطفال، رجال مسنون ينظرون إلى اللوحات بانتباه جعل وضعيتهم تثير اللمس، يميلون إلى الأمام، كما لو أن هناك مسافة محترمة مطلوبة من شخص غير معتاد على التواجد أمام هذا النوع من الأشياء.

جاء هاسنفراتز إلى المتحف مرة واحدة، بعد أسبوع من الافتتاح، في فترة بعد الظهر بين موعدين. دخل، عبر الغرف الأولى بسرعة، توقف أمام لوحة الإله الجالس على العرش. بقي هناك ربما خمس دقائق. حوله، كان الناس يراقبون، أحيانا يهمسون، ويتحركون. سأل طفل والدته لماذا كان الرجل في وسط اللوحة يرتدي تاجا. تقول الأم إنها لم تكن تعرف، وأنه قديم جدا، وأنه من بلجيكا.

نظر هاسنفراتز إلى وجهه. هذا الوجه الذي رسمه يان فان آيك في عام 1432، بألوانه التي لم تتقدم في العمر، وطيات ملابسه بدقة تزيل المسافة التي تمتد لقرون. فكر في غنت. إلى الحشد في الساحة أمام سان بافو. إلى القس دي فوس، الذي أخذ بالقوة. في ضوء كنيسة فيد في صباح اليوم الذي بدأ فيه ثوين في تفكيك التجهيزات. كما فكر في الأم والطفل خلفه. إلى سؤال الطفل. *لماذا لدى السيد تاج؟* كان سؤالا حقيقيا، طرحه شخص لم يكن ليطأ قدمه غنت أبدا، ولم يكن لديه سبب للذهاب إلى غنت، والذي الآن ينظر إلى شيء فعله يان فان آيك منذ زمن بعيد، باهتمام صادق، حتى لو لم تكن تعرف بعد كيف تصيغه.

غادر المتحف وعاد إلى مدرسة المناجم.

عقد الاجتماع في 3 برومير، السنة الثالثة — في 24 أكتوبر 1794 — في الغرفة المعتادة للجنة، شارع سانت أونوريه، وهي غرفة مستطيلة تطل نوافذها على فناء داخلي وتتلقى ضوءا أبيض مسطحا غير مباشر. كانت الأوراق معلقة على الجدران. شمال إيطاليا، بيدمونتي، لومبارديا، الولايات البابوية. علقها أحدهم بدبابيس تحدد المدن الرئيسية وطرق الجبال. نظر هاسنفراتز إليهم عند دخوله، وعرف فورا أن النقاش سيكون أقل تجريدا مما توقع.

ترأس لاكانال. حول الطاولة: هاسنفراتز، غريغوار، ثوين، ليبرون، دوبون، عضو لجنة التعليم العام، رجلان لم يعرفهما. قدم كفيليبو، تاجر تحف وعالم نقود، وكولونجز، هيليني كان اسمه مألوفا له بشكل غامض دون أن يتمكن من تحديد السياق بالضبط. وأخيرا ضابط أركان يرتدي الزي الرسمي، العقيد بيفرا، الذي كان

وجوده يعني أن النقاش لن يكون ثقافيا فقط. لم يكن ديفيد هناك: تم اعتقاله في اليوم السابق، ونقل إلى لوكسمبورغ.

قال لاكانال في افتتاح الجلسة: جيوش الجمهورية في موقع يمكنها من دخول شمال إيطاليا خلال الأشهر القليلة القادمة. يقود الجنرال شيرير في ليغوريا. لا يزال النمساويون يحتفظون ببيدمونت، لكن موقعهم ضعيف. السؤال الذي يجب أن نتعامل معه اليوم هو: إذا تقدمت الجيوش، ما هي السياسة الثقافية التي ستطبقها الجمهورية في الأراضي المحتلة؟

ترك السؤال معلقا في الهواء للحظة. لقد اختار كلماته، وأراد أن تسمع.

— لقد طرحت السؤال بهذه المصطلحات عن قصد. لا: هل نأخذ الأعمال الفنية؟ لكن: كيف نفعل ذلك، وبأي مبادئ، وبأي حدود، وبأي شرعية؟

تدخل العقيد بيفرا فورا، باقتصاد رجل غير معتاد على فتح المناقشات قبل أن يضع القيود العملية.

— من وجهة نظر عسكرية، مسألة الأعمال الفنية في الأراضي المحتلة هي مسألة غنائم حرب. استولت الجيوش الرومانية على ما غزا. كانت الجيوش النمساوية تفعل الشيء نفسه في فلاندرز لقرون. جيوشنا ستفعل الشيء نفسه. ليس قرارا سياسيا، بل هو نتيجة طبيعية للفتح.

— عقيد، قال غريغوار، هذه هي طريقة صياغة الأمور التي تمثل المشكلة. إذا عاملنا العينات الفنية كغنائم حرب بنفس الطريقة التي تعاملنا بها مع المدافع والمعايير التي تم الاستيلاء عليها من العدو، فإننا نتخلى عن أي حديث عن القيمة الثقافية والتعليمية للعملية. نعترف بأننا نسرق لأن لدينا القوة لذلك.

— هل لديك صياغة أخرى لتقترحها؟

— نعم. الأعمال التي تم أخذها ليست غنائم. هذه قطع ثقافية تم تكليف الجمهورية الفرنسية مؤقتا بحيازتها حتى تسمح الظروف السياسية بإنشاء منظمة دولية لحفظها. باريس ليست الوجهة النهائية. إنها وديعة مؤقتة، وهي الأفضل المتاحة، تضمن سلامة وسهولة الوصول إلى الأعمال في الفترة الحالية.

استمع هاسنفراتز إلى هذا الحوار دون تدخل. نظر إلى الأوراق على الحائط. بيدمونت. لومبارديا. ميلانو. الطرق التي تنحدر من جبال الألب إلى وادي بو. فكر في أبعاد الطرق الجبلية، وفي مسألة الجسور، ووزن القطع الكبيرة التي نقلها من فلاندرز، والتي لم تكن شيئا مقارنة بما يمكن أن تقدمه شمال إيطاليا. مجموعات ميلانو. مجلس دوق مودينا. صالات عرض بارما. قرأ كوشين، وقرأ ريتشاردسون، وقرأ رسائل دي بروس المألوفة التي وصفت بدقة هاو مستنير مجموعات لومبارديا التي زارها في عام 1739. كان شمال إيطاليا مختلفا عن فلاندرز.

كان فيليبو، عالم التحف، هو من طرح السؤال الذي بدا له الأكثر صلة ولم يسأله أحد مباشرة بعد.

— من يختار؟ في فلاندرز، كان ليبرون للوحات، وثوين للجوانب النباتية والطبيعية، وهاسنفراتز للتنسيق العام. لكن معايير الاختيار لم تحدد رسميا قبل انطلاقها. أخذنا ما بدا الأكثر أهمية. مع نتائج غير متساوية حسب الموقع.

— النتائج لم تكن متباينة، قال ليبرون. الأجزاء المأخوذة من الطراز الأول.

— لا أشكك في جودة الاختيارات. أشكك في غياب إطار رسمي. في إيطاليا، لن نتمكن من المضي قدما بنفس الطريقة. المجموعات أكبر بلا حدود، وأكثر تعقيدا بلا حدود. هناك أسئلة تتعلق بالنسبة، والأصل، والأصالة التي ستتطلب مهارات لم نمثلها جميعا في لجنة مكونة من سبعة أشخاص. سيكون هناك حاجة إلى أخصائيين. تجار التحف للمنحوتات والعملات. المهندسون المعماريون لمشاكل البناء. علماء الطبيعة للعينات. علماء الموسيقى إذا نظرنا إلى مجموعات النوتات والآلات.

— أنت تقترح لجنة موسعة، قال لاكانال.

— أقترح لجنة تتوافق صلاحياتها مع الطموحات. إذا أردنا الجمع بشكل منهجي وجيد، نحتاج إلى أشخاص يعرفون ما يفعلونه في كل مجال. كانت مهمة فلاندرز تجربة. يجب أن تكون إيطاليا عملية منظمة.

لاحظ لاكانال ذلك. سأل دوبون عما إذا كان من الممكن النظر في التعامل مع السلطات المحلية قبل أخذ العينات، لإعداد قائمة متفق عليها بدلا من فرضها.

— مع من نتعامل؟ سأل بيفرا. مع دوق بارما؟ البابا؟ الجمهوريات الإيطالية؟ قد لا تكون هذه السلطات موجودة بعد الآن عندما تصل جيوشنا. أو سيكونون في حالة عدائية معنا. لا يتفاوض المرء مع العدو على الشروط التي سيأخذ فيها لوحاته.

— يمكن للمرء أن يتفاوض مع عدو مهزوم، قال غريغوار. تحتوي معاهدات السلام على بنود تتعلق بالممتلكات التي تم الاستيلاء عليها أثناء الأعمال العدائية. هذه ممارسة قديمة.

— تحتوي معاهدات السلام على بنود تتعلق بالفدية واسترداد الأراضي. ليس على اللوحات.

— قد يحتوونها. إنها مسألة إرادة سياسية.

— إنها مسألة توازن القوى، قال بيفرا. إذا كنا في وضع يسمح لنا بفرض شروط المعاهدة، يمكننا وضع ما نريد فيها. بما في ذلك بنود تتعلق بالأعمال الفنية. لكن هذا يعني أن القوات المسلحة لا تزال هي التي تقرر، وليس اللجان الثقافية.

ثوين، الذي لم يتكلم منذ بداية الاجتماع، تحدث حينها.

— يجب أن نرسل شخصا للاستطلاع. قبل الجيوش. رجل واحد أو اثنان يمتلكان المهارات الكافية لتقييم ما هو موجود وفي أي حالة. ليس لإعداد قوائم بالعينات، بل لفهم الوضع الحقيقي للمجموعات، والمخاطر التي تواجهها، وإمكانيات الحفظ في الموقع. قد تكون هناك مجموعات من الأفضل حفظها في باريس. وآخرون من الأفضل تركهم حيث هم.

— جاسوس ثقافي، قال بيفرا بابتسامة لم تكن ساخرة تماما.

— مراقب. ليس متكافئا.

— عمليا، نعم.

— عمليا، ربما. لكن بنوايا مختلفة. الجاسوس يبحث عن معلومات مفيدة لعملية عسكرية. يسعى المراقب لفهم الموقف لاتخاذ قرارات أفضل. إذا أرسل شخص إلى إيطاليا الآن، فليس لتحضير نهب. بل لضمان أن ما نقوم به، إذا فعلنا شيئا، سيتم بشكل صحيح.

كان هاسنفراتز يدون ملاحظات، أسماء، أرقام، أسئلة ليتم التحقيق فيها. كان لديه انطباع، خلال كل هذا النقاش، بأنه يجمع عناصر شركة لم ير شكلها الكامل بعد، مثل رجل يجمع المواد دون أن يعرف بعد بالضبط ما الذي سيبنيه بها.

في نهاية الاجتماع، عندما وقف الأعضاء وبدأوا في جمع أوراقهم، وقف ليبرون أمام الخرائط. نظر إلى مخطط شبه الجزيرة، وأسماء المدن، والتظليل الذي يشير إلى بروز جبال الألب والأبينين.

— روما، قال بصوت منخفض، كما لو كان يتحدث لنفسه.

توقف هاسنفراتز، الذي كان يمر خلفه.

— روما؟

— مجموعات الفاتيكان. البلفيدير. الأبولو. لاوكون. صالات بورغيزي، دوريا وكولونا. جداريات رافائيل في الغرف. لوحات تيتيان من مجموعة البابا.

ظل صامتا للحظة.

— إذا ذهبنا حتى روما، فلن يكون الأمر نفسه كما في فلاندرز. في فلاندرز، تم أخذ أعمال رائعة من مجموعات شملت مجموعات أخرى. في روما، أهم الأعمال هي الأماكن نفسها. لا يمكننا أخذ غرف رافاييل. لا يمكننا أخذ السيستين. هذه الأشياء لا يمكن نقلها.

— إذن لن نأخذها.

— لا. لكننا نأخذ كل ما يمكن أخذه. وسيكون كثيرا. وسيبقى رافائيل في روما، وسيبقى ميكيلانجيلو في روما، وسيذهب الناس إلى روما لرؤيتهم. وهذا يعني أن باريس لن تملك كل شيء.

فك سترته من ظهر كرسيه.

— هذا ليس سببا لعدم الذهاب. إنها مجرد سبب لعدم إخبار بعضنا البعض بقصص عما سنفعله هناك.

خرج. ترك هاسنفراتز وحيدا للحظة أمام الخرائط.

بعد ستة أشهر، وربما أقل، سيكون هناك.

VIII— الفاصل

اعتقال ديفيد، الذي أعلن في اجتماع الثالث من برومير، أصبح الآن على أفواه الجميع. أكدت ملاحظة من ثوين على طاولة مختبر مدرسة المناجم التفاصيل: فقد حصل ثوين على التسلسل الزمني الدقيق من زميل في حديقة النباتات. تم اعتقال ديفيد في 2 برومير، السنة الثالثة، أي في 23 أكتوبر 1794، ونقل إلى لوكسمبورغ. لم تكن التهم علنية بعد، لكن الجميع فهم ما تدور حوله: قربه من روبسبير، توقيعه في أسفل قائمة المشتبه بهم التي أعدتها لجنة الأمن العام خلال الإرهاب العظيم، دوره في الاحتفالات الثورية التي استخدمها روبسبير كأدوات لسياسته القسرية في إزالة المسيحية.

قرأ هاسنفراتز الملاحظة، وطواها، ووضعها في جيبه. أنهى ما كان يفعله، وهو حساب لقوة المواد الذي قطعته البعثة الفلمنكية في يوليو والتي كان يستأنفها الآن مع صعوبة في إيجاد خيط فكرة تركت لفترة طويلة. ثم ذهب لرؤية غريغوار.

كان غريغوار يعيش في شارع سان جاك، في شقة مكونة من ثلاث غرف في الطابق الثاني من مبنى كانت سلمه تفوح منها رائحة الشمع والخشب القديم. كانت شقة كاهن عالم. كتب في كل مكان، أوراق، بعض النقوش الدينية معلقة دون ترتيب معين على الجدران، طاولة عمل مليئة بالمخطوطات. كان غريغوار يكتب عندما وصل هاسنفراتز. رفع رأسه، قرأ توترا في وجه زائره، وضع قلمه.

— ديفيد.

— هل كنت تعرف بالفعل؟

— كنت أنتظر. منذ التيرميدور، كنت أنتظر. لم يكن سؤالا إذا، بل متى.

ذهب إلى النافذة، نظر إلى الشارع أدناه، إلى المارة، إلى المحلات، إلى الحركة العادية لصباح باريس في الخريف.

ـــ لقد وضعوه في لوكسمبورغ، قال هاسنفراتز.

ـــ نعم. هناك يضعون الأشخاص الخطرين. إنه سجن محترم للقضايا السياسية. أعتقد أنه لا يخاطر بالمقصلة. ليس في المناخ الحالي. رد الفعل الثيرميدوري يكره الدماء التي تسفك علنا، تحديدا لأنها تلطخت بدماء من أطاح بهم. هم الآن يسجنون. لم يعودوا يستخدمون المقصلة، في الوقت الحالي.

ـــ في الوقت الحالي.

ـــ في الوقت الحالي، نعم. ما الذي يمكن أن يتغير.

جلس هاسنفراتز على الكرسي الوحيد الفارغ. أما الكرسيان الآخران فكانا مشغولين بأكوام من الكتب التي من الواضح أن غريغوار لم يحركها منذ وقت طويل.

ـــ هذا يغير شيئا بالنسبة للبعثة الفلمنكية. كان ديفيد أحد الرعاة السياسيين للعملية. اسمه موجود على أوامر الاستيلاء. ليس بشكل مباشر، كان جوبرت هو من وقع الأوامر على الأرض، لكن ديفيد كان عضوا في لجنة الأمن العام، وكانت هذه اللجنة هي التي أذنت ومولت المهمة. إذا أدين ديفيد، سيتم إبطال أو الطعن في أفعاله في اللجنة بأثر رجعي. وقد يشمل ذلك المهمة.

ـــ قال لاكانال إن المهمة مؤكدة.

ـــ قال لاكانال هذا قبل اعتقال ديفيد. في السياق الجديد، قد يكون من الضروري إعادة التأكيد.

أبعد غريغوار عينيه عن النافذة.

ـــ هل تعتقد أنه يمكن أن يطلب منا إعادة اللوحات؟

ـــ لا. أعتقد أنه يمكن أن يطلب منا تبرير ما فعلناه بطريقة أخرى. ليس باسم السياسة الثقافية لروبسبير وديفيد، بل باسم مبدأ يبقى بعد سقوطهما. المتحف نفسه ـــ فكرة المتحف ـــ أقدم من روبسبير. اللوحات موجودة. إنها معروضة. آلاف الناس يرونها. هذه حقيقة يصعب إبطالها سياسيا، مهما حدث للرجال الذين أمروا بمصادرتها.

ـــ وماذا عنا؟ من نحن في هذه القصة الجديدة؟

فكر هاسنفراتز في السؤال للحظة.

ـــ من المنفذين. رجال يتلقون أوامر من المفوضين السياسيين وينفذونها بكفاءة واحترام للأعمال. ليس رائعا. لكن هذا أمر قابل للدفاع.

ـــ هل أنت مرتاح لهذا الوضع؟

— أنا مرتاح مع الحقائق. الحقيقة أنني نفذت الأوامر. أنني تأكدت من أن الأعمال تم التعامل معها بشكل صحيح. أنني تجنبت التجاوزات التي لم يكن ديفيد ليتجنبها لو لم نكبحه. ليست ميدالية أعطيها لنفسي. هذا ما حدث.

— أجد صعوبة في هذا المنصب. إذا كنت هناك لأعطي ضمانا معنويا، فقد فعلت شيئا أسوأ من تنفيذ الأوامر. كنت بمثابة غطاء.

— لقد منعت حدوث ضرر حقيقي. لقد أخبرتك بذلك في كومبيين.

— أنت كريم. وربما هو على حق. لوحات فان آيك سليمة لأنني تمسكت بموقفي أمام عجلة ديفيد. لكن الألواح لم تعد موجودة في غنت. وهذا أيضا حقيقة.

في الشارع أدناه، كان بائع الصحف يصرخ بعنوان لم يستطع سماعه بوضوح.

— ماذا ستفعل؟ سأل هاسنفراتز.

— أنا أكتب. وهذا ما كنت أفعله دائما عندما تسوء الأمور. أنا أكتب تقريرا عن المهمة الفلمنكية سيشرح ما حدث. ليس لإرهاق ديفيد، الذي سيغمره الآخرون ولأسباب أخرى. ولكن حتى يكون هناك في مكان ما رواية صادقة لما فعلناه ولماذا كان ذلك إشكاليا رغم أنه كان قانونيا.

— فان رين فعل شيئا مشابها بالفعل.

— ولهذا السبب بالضبط يجب أن أفعل ذلك أيضا. إذا كانت النسخة الصادقة الوحيدة من القصة تأتي من أمين بروكسل الذي أفرغنا قصره، فهذا ليس كافيا. يجب أن يكون هناك أيضا صوت فرنسي داخل اللجنة يقول ما رأته وما يفكر فيه. وإلا، بعد مئة عام، عندما يعيد أحدهم قراءة الأرشيف، سيجد فقط مبررات رسمية من جهة واحتجاجات الضحايا من جهة أخرى. هذه ليست صورة دقيقة لما حدث.

نظر هاسنفراتز إليه للحظة.

— هل تفكر حقا في المدى الطويل؟

في الخارج، صرخ بائع الصحف بعنوانه مرة أخرى. هذه المرة استطاع هاسنفراتز تمييز كلمة *ديفيد* وسط ضجيج الشارع، ثم شيء آخر لم يفهمه.

— هناك عاقبة أخرى أردت ذكرها. لجنة إيطاليا. كان ديفيد جزءا من ذلك بشكل غير رسمي. وقد عبر عن نيته المشاركة فيه، وتوجيه المصادرات الفنية كما أدار تلك الخاصة بفلاندرز. مع اعتقاله، تم حل هذه المشكلة. سيتم إعادة تشكيل اللجنة بدونه. هذا يغير التوازن.

— بأي معنى؟

ـــ بالمعنى الذي لا شك أن لاكانال يفضله. سياسة أقل، ومهارات أكثر ملموسة. فيليبو للآثار. مهندس معماري للمباني. ليبرون بالطبع للوحات. ربما ثوين لمجموعات التاريخ الطبيعي. وأشخاص مثلي في التنسيق واللوجستيات.

ـــ وغريغوار من أجل ضمير اللجنة؟

كان السؤال يحمل سخرية لم يكن غريغوار نفسه ينوي ذلك.

ـــ لا أعرف إن كنت ستذهب إلى إيطاليا، قال هاسنفراتز. لا أعرف إن كنت سأذهب. لم يحسم بعد. لكن إذا ذهبت، فسيكون ذلك لأن وجودك يغير شيئا

ـــ شكرا لأنك أخبرتني بذلك. لست متأكدا أنني أصدق ذلك. لكن شكرا لك.

وقف هاسنفراتز.

ـــ اعتقال ديفيد ربما سيكون أمرا جيدا للبعثة الإيطالية. ليس له. لكن بالنسبة للطريقة التي ستنفذ بها العملية. بدونه، سيكون من الأصعب تحويل المصادرات إلى مظاهرات سياسية. كانت هذه هي المشكلة في فلاندرز. ليست المصادرة نفسها، بل الخطاب المنتصر الذي رافقه. خطاب تفوق الجمهوريين الفرنسيين على كل ما أنتجته أوروبا. كان ذلك زائفا ومسيئا. بدون ديفيد ليكبحه، ربما يمكننا فعل نفس الأشياء بغرور أقل.

ـــ افعل نفس الأشياء بغرور أقل، كرر غريغوار. هذا تقدم متواضع.

ـــ إنه التقدم المتاح.

خرج. على الدرج، التقى بجار كان يصعد إلى الطابق العلوي ومعه سلة غسيل. تراجع جانبا ليتركها تمر. شكرته دون أن تنظر إليه.

في الخارج، لم يتغير شيء. في مكان ما في لوكسمبورغ، كان ديفيد في السجن. في المعرض الكبير للمتحف، نسخ الفنانون لوحاته الفلمنكية. في مختبر بمدرسة المناجم، كانت الحسابات تنتظر الانتهاء.

رفع هاسنفراتز ياقته في وجه رياح أكتوبر وسلك طريق العودة.

جرت زيارة غريغوار للمتحف في 12 برومير، السنة الثالثة، في 2 نوفمبر 1794، يوم الموتى حسب التقويم القديم، وهو صدفة لاحظها ولم يعرف بالضبط ماذا يفعل بها.

كان يكتب طوال اليوم. كان التقرير حول المهمة الفلمنكية يتقدم. كان في الجزء الثالث، الذي يتناول العمليات في غنت، الأصعب في الكتابة لأنه هناك كانت الأمور الأقل قابلية للدفاع والأكثر ضرورة للقول بصدق. لقد أعاد كتابة المقطع المتعلق

باعتقال القس دي فوس أربع مرات منذ الصباح، محاولا إيجاد نسخة ليست مبررا ولا اتهاما، تقول ما حدث وتترك للقارئ الحكم عليه. لم ينجح بعد. كل صياغة كانت تميل إلى جانب أو آخر، تكشف عن دفاعية أو جلد ذاتي، ولم يكن أي منهما صحيحا.

نحو نهاية بعد الظهر، وضع قلمه جانبا. نهض، دخل الشقة، وتوقف أمام نقش معلق قرب النافذة. نسخة من *بشارة* للأفرا أنجيليكو أعطاها له صديق واحتفظ بها دائما ليس لقيمتها الفنية الخاصة، بل لجودة الحضور التي تشعها، بتلك الطريقة التي كان لدى فرا أنجيليكو في رسم الضوء كما لو كان يأتي من داخل الأشكال بدلا من إضاءتها من الخارج.

لقد فكر في روما. وفقا لما قاله ليبرون بعد اجتماع اللجنة — *إذا ذهبنا حتى روما، فلن يكون الأمر نفسه كما في فلاندرز*. كان الأخ أنجيليكو في فلورنسا، وليس في روما. لكن المبدأ كان نفسه. أعمال لا يمكن نقلها لأنها كانت الأماكن التي كانت فيها. جداريات. كنائس كاملة. مجموعات معمارية وتصويرية تعتمد معناها على نقشها في مساحة معينة، مبنى معين، مدينة معينة.

قرر الذهاب إلى المتحف.

وصل عند حلول الليل، عندما أغلقت الغرف أمام الجمهور. كان باربييه لا يزال هناك. كان لا يزال هناك في ذلك الوقت، يقوم بجولته في نهاية اليوم.

— المواطن غريغوار، قال باربييه وهو يراه يدخل من الباب الجانبي الذي كان يستخدمه مسؤولو المتحف. الغرف تغلق.

— أعلم. أود البقاء لبعض الوقت. وحيدا، إن أمكن.

كان باربييه يقيمه باهتمام محايد كرجل يتعامل مع الطلب دون محاولة فهم كل الأسباب.

— أحتاج أن يبقى الحارس في المبنى.

— بالطبع. لا أطلب أن أكون وحدي في المبنى. أطلب أن أكون وحدي في الغرف.

— كم من الوقت؟

— ساعة واحدة. ربما اثنين.

— سأرسل لك فانوسا. سيتم إطفاء شموع أضواء الجدران خلال نصف ساعة. هناك شموع احتياطية في الحقيبة إذا احتجتها. الحارس سيكون في غرفة الحراسة عند المدخل. اطرق الباب ثلاث مرات إذا أردت المغادرة.

خرج دون أن يقول شيئا. وكانت هذه إحدى الصفات التي قدرها غريغوار في باربييه. لم يسأل أبدا عن السبب. قام بتقييم ما إذا كان الطلب معقولا أم لا، وإذا كان كذلك، فقد وافق عليه دون الحاجة إلى تفسير.

أحضر حارس الفانوس بعد دقائق قليلة. ثم ابتعدت الخطوات، وأغلق باب في مكان ما خلف المبنى، ووجد غريغوار نفسه وحيدا في المعرض الكبير.

شموع أضواء الجدران لا تزال مشتعلة، ربما لمدة ربع ساعة. كان الضوء دافئا، يومض، مختلفا تماما عن ضوء النهار الطبيعي. أعطت اللوحات جودة جديدة، وعمقت الظلال بطريقة مختلفة، وأظهرت ألوانا معينة وخففت من ألوان أخرى. كان غريغوار يدرك أنه ينظر إلى الأعمال في ظروف غير مثالية لرؤيتها. لكنه لم يأت لرؤيتهم في ظروف مثالية. جاء لسبب آخر لم يكن ليذكره بوضوح، وهو أنه كان يوم الموتى وأنه قضى اليوم في كتابة تقرير عن الأمور التي تثقل كاهله.

تقدم أولا أمام لوحات فان إيك.

معلقة على خلفياتهم القماشية الداكنة كانت هناك ثلاث لوحات مركزية في السجل العلوي، مرتبة حسب الترتيب الذي تشغله في كنيسة فيزد، مع المساحات بينها التي كانت ستتسع للألواح الأخرى لو أزيلت جميعا. هذه الفراغات كانت تقول شيئا لم يستطع غريغوار تجاهله. قالت إن ما يُرى كان شظية. وأن المعنى الكامل للعمل يتطلب لوحات أخرى غير موجودة، والتي بقيت في غنت، وأن المسافة بين غنت وباريس تمثل بالضبط المسافة بين الشظية والعمل بأكمله.

رفع الفانوس ليرى وجه الإله الجالس على العرش عن قرب.

كان فان آيك قد رسم هذا الوجه في عام 1432. قبل ثلاثمائة واثنين وستين عاما كان غريغوار ينظر إليه في هذه الغرفة. خلال هذه الثلاثمائة واثنان وستين عاما، نظر أجيال من سكان غنت إلى هذا الوجه في كنيسة فيد الذين جاءوا للصلاة، والذين جاءوا للزواج، والذين جاءوا لتعميد أطفالهم، والذين جاءوا لدفن موتاهم. كان الكهنة يحتفلون بالقداس أمامه. تعلم الأطفال القراءة من خلال النظر إلى النقوش المحيطة به. قضى الرجال الشيوخ سنواتهم الأخيرة يأتون للجلوس في الكنيسة فقط ليكونوا هناك، في هذا المكان الذي كان دائما ملكهم، في حضور شيء يتجاوز قدراتهم ولا يحتاجون إلى علاقة فكرية لوجود هذه العلاقة.

انتهى كل هذا صباح يوم 5 أغسطس 1794، عندما بدأ ثوين في تفكيك التجهيزات.

انطفأت شموع الشمعدان واحدة تلو الأخرى، كما تفعل دائما في هذا الوقت. مر الحراس عبر الممرات الخارجية وأطفأوا ألسنة اللهب من الأبواب دون دخول الغرف. أصبح ضوء الفانوس الذي كان يحمله غريغوار هو الضوء الوحيد في الغرفة.

وقف هناك في الظلام مع فانوسه واللوحات الثلاثة.

لم تكن زيارة دينية. كان غريغوار كاهنا، لكن ما شعر به أمام هذه اللوحات لم يكن بالضبط ما شعر به في القداس. كان واقعا أكثر تعقيدا وأقل وضوحا يتعلق بالجمال، وليس فقط بالجمال، بل بقدمية هذه اللوحات وكل ما مرت به لتكون هناك.

تذكر الجملة التي كان يحاول كتابتها منذ الصباح في تقريره. الجملة عن اعتقال القس دي فوس. فجأة فهم لماذا لم تأت. لم يكن ذلك لأنه لم يجد الكلمات المناسبة. كان ذلك لأنه كان يحاول كتابة شيء لم يكن يفكر فيه بالكامل. كان يعتقد أن اعتقال القسيس كان مؤسفا. لم يكن يفكر بعد في معنى أن يكون حاضرا شخصيا عندما حدث ذلك ولم يحتج بصوت عال بما فيه الكفاية.

لم يتفاعل. قال لديفيد إن ذلك بلا فائدة. قال إن الكاهن العجوز لم يستطع منعهم من أخذ لوحة المذبح على أي حال. لقد سمح لحدوث ذلك. وأمسك جنديان بذراعي رجل مسن وسحبوه خارج الساحة أمام كاتدرائيته.

كان هناك عندما حدث ذلك. لم يفعل شيئا.

لقد عانى من هذا العار في غنت، طوال رحلة العودة، في كومبيين تحت المطر. الليلة، في ظلمة الغرفة مع فانوسها، أمام هذه الألواح، كان وزنه مختلفا تماما. ثقل الأشياء التي لم يعد بالإمكان التراجع عنها.

توقف في الغرفة. احترق الفانوس حتى نهاية الشمعة الأولى، وأخذ من الحقيبة الشمعة الاحتياطية التي وضعها باربييه، وأشعلها باللهب المحتضر من الأولى، واستمر.

دخل قاعة روبنز. توقف أمام لوحة النزول من الصليب التي أعيد تجميعها، والمفاصل المقطوعة بالكاد مرئية، كما وعد باربييه، واستعادت التركيبة وحدتها كما لو أن تفكيك أنتويرب لم يكن موجودا. جسد المسيح ينزل من الصليب في الكفن الأبيض. الشخصيات من حوله في توازنها المثالي بين الحركة والثبات. مريم المجدلية على ركبتيها، وذراعاها ممدودتان لاستقبال الجثمان. العذراء المنهارة، مدعومة من يوحنا.

كان روبنز قد رسم هذه اللوحة في مدينة كانت الآن في حالة حداد لهذه اللوحة. كان هذا التفكير سخيفا، لا يمكن أن تحزن على مدينة بلوحة. ومع ذلك، هذا ما كانت عليه أنتويرب، بالمعنى الأكثر وضوحا للكلمة. لا تزال جدران الكاتدرائية تحمل آثار الإطارات المفقودة. المؤمنون في أنتويرب الذين جاءوا للصلاة أمام الموقع الفارغ للثلاثية رأوا الغياب بقدر ما رأوا الحضور.

دخل الغرفة الثالثة.

كان فان دايك من ميخلين هناك، بين النافذتين المرتفعتين، في الموقع الذي اختاره باربييه. ضوء الفانوس لم يصفه. كان يجب أن يرى في ضوء النهار، في ضوء أكتوبر الذي بحث عنه باربييه بعناية. لكن حتى في هذا الضوء الناقص، بقي شيء من اللوحة حاضرا. رصانة التكوين، والتخلي أمام المسيح، هذا النظرة الموجهة نحو ما وراء الإطار.

رفع غريغوار فانوسه. نظر إلى وجهه لفترة طويلة.

فكر في الأب هويسمانز في مقاعد الجوقة في سانت رومبو. *سأموت قبل ذلك. لكن الكنيسة ستكون هناك.* قال هويسمانز ذلك بهدوء شخص استقر لنفسه على سؤال مكانه في الزمن. لم يكن غريغوار يعرف إن كان قادرا على ذلك.

بدأت الشمعة الاحتياطية تخفت.

تجول في الغرف بسرعة، دون أن يتوقف أمام كل عمل. اللوحات الثلاث للمرة الأخيرة. الجوردان الكبير الذي اختاره ليبرون في بروكسل في مكتب الحاكم. التينيرز في شكل مصغر، جنبا إلى جنب، مشاهد قريتهما الفلمنكية بدقة تقاوم كل مقاييس الملاحظة. روبنز أنتويرب.

فكر في فان رين. *كل شيء مكتوب. عندما تتغير الظروف، وستظل كذلك دائما، ستظل الوثائق موجودة.* كان فان رين محقا في نقطة وربما مخطئا في نقطة أخرى. الوثائق ستوجد، نعم، أو على الأقل بعضها، تلك التي ستنجو من الحرائق والحروب والثورات المستقبلية. لكن الوثائق ستكشف الحقائق. لن تقول ماذا تعني الحقائق لأولئك الذين عاشوا تلك الحقائق. كان لا بد أن يقول ذلك شخص آخر. شخص موجود ولديه وقت للتفكير في الأمر.

انطفأت الشمعة.

ظل غريغوار في ظلام دامس، وعيناه مفتوحتان، قبل أن تتكيف رؤيته بما يكفي لتمييز أشكال اللوحات في الظلام، مستطيلات أقل ظلمة قليلا من الجدران، بالكاد ترى، بلا لون، بلا تفاصيل، مختزلة إلى مجرد وجودها في الفضاء.

تحسس طريقه عبر الباب، عبر الممر، وطرق ثلاث مرات باب كوخ الحارس.

في صباح اليوم التالي استأنف تقريره. جاءت الجملة بشأن اعتقال القس دي فوس دفعة واحدة، دون جهد ودون تكرار. كتبها، وأعاد قراءتها، وتركها كما هي. قالت ما كان يجب قوله. لا مزيد. ولا أقل.

واصل حديثه.

أفرج عن ديفيد من لوكسمبورغ في 28 فريمير، السنة الثالثة — في 18 ديسمبر 1794 — بعد ستة وخمسين يوما من الاحتجاز. أعاد له أحد الحراس أغراضه، وفتح آخر الباب. وجد نفسه في الشارع في صباح ديسمبر بارد ورمادي. لا حشود. لا يوجد مراسم. اختفى اسمه تدريجيا من أوامر البعثات، وقوائم المفوضين، واستدعاءات لجنة التعليم العام. لم يكن ذلك عارا رسميا. كان أكثر نعومة وأكثر حسما.

أحضر له غريغوار شخصيا نسخة من تقرير البعثة الفلمنكية في فبراير 1795.

استقبل ديفيد غريغوار واقفا وهو يحمل لوحة في يده. لم يتوقف عن الرسم.

— التقرير، قال غريغوار، وهو يضع الوثيقة على طاولة مفتوحة.

نظر ديفيد إليه دون أن يقترب منه.

— لقد قرأتها. لاكانال نقلها لي.

— وماذا بعد؟

— وتقول إننا أخطأنا. مع الفروق الدقيقة، والتحفظات، وبكل التعقيد الأخلاقي الذي تستطيع القيام به. لكن هذا ما تقوله.

— أقول إننا تصرفنا بأسباب مختلطة وطرق مشكوك فيها. الأمر ليس تماما نفس الشيء.

— بالنسبة لأولئك الذين نهبناهم، الأمر نفسه.

— نعم. بالنسبة لهم، الأمر نفسه. لهذا السبب بالضبط كان يجب كتابتها.

وضع ديفيد لوحته جانبا ونظر إلى غريغوار لأول مرة منذ بداية المحادثة. تغير وجهه منذ غنت، لم يتقدم في العمر، شيء أكثر دقة من ذلك. اهتمام دائم بالأصوات، ربما، أو ببساطة عادة عدم إظهار أي شيء. هذا ما يفعله ستة وخمسون يوما في غرفة مغلقة برجل معتاد على ملء الفراغات.

— هل تعتقد أن تقريرك سيغير شيئا؟ سأل.

— لا. ليس الآن. ربما لاحقا.

— لاحقا ستكون ميتا. وأنا كذلك.

— الوثائق تعيش أطول من الرجال. هذه فائدتها.

أومأ ديفيد موافقا. عاد إلى لوحة الألوان الخاصة به.

— لطالما اعتقدت أن الكلمات يمكن أن تلحق بالأفعال. هذه هي قوتك وحدودك. وقد جرت الأفعال. اللوحات موجودة في باريس. تقريرك لن يغير ذلك. بعد عشر سنوات، بعد عشرين سنة، لن يقرأ أحد تقريرك. سيشاهدون اللوحات.

— يمكن للاثنين أن يتعايشوا.

— نظريا. في الواقع، ما هو جميل يمحو ما كتب عن كيفية وصوله إلى هناك. الجمال له هذه الصفة التي تجعلنا ننسى تاريخه. ربما لهذا السبب يريد الرجال امتلاكه بشدة.

أخذ غريغوار قبعته.

— لست متأكدا أنك مخطئ. لكنني أفضل أن أكون قد كتبت على أي حال.

خرج. على الدرج، سمع ديفيد يعود إلى عمله، الصوت المميز للفرشاة على القماش، ثابت، مركز، رجل يفعل ما يعرف كيف يفعله أفضل من أي شيء آخر وربما لا يحتاج إلى شيء آخر للاستمرار.

تم تسجيل تقرير غريغوار من قبل أمانة لجنة التعليم العام في 15 بلوفيوز، السنة الثالثة، في 3 فبراير 1795. تم تزويده برقم أرشيف، ونسخ ثلاث نسخ وفقا للإجراءات المعتادة، وأدرج في حزمة مخصصة للبعثات الفنية في الأراضي المحتلة. أقر لاكانال باستلامها بملاحظة من ثلاثة أسطر يشكر فيها غريغوار على جودة عمله دون أن يقول شيئا آخر.

انتظر غريغوار. لم يأت شيء. لا يوجد استدعاء لمناقشته. لا إجابة على الأسئلة التي طرحها في الصفحات الأخيرة حول الإجراءات التي يجب وضعها في المهمات المستقبلية، وحول مسألة التعويضات المحتملة، ولا على وضع الوثائق الموازية التي أعدها فان رين في بروكسل، وعن كهنة غنت وأنتويرب.

كان التقرير موجودا. تم أرشفته. قد يقرأها يوما ما شخص كان يبحث عن شيء آخر ويصادفه بالصدفة. هذا كل شيء.

استأنف غريغوار عمله الآخر، كان هناك الكثير، وكان هناك دائما بعضهم. كتب عن إزالة المسيحية، وعن التعليم العام، وعن مسألة اللغات الإقليمية وعلاقتها بالوحدة الوطنية. حضر جلسات المؤتمر ثم مجلس الخمسمائة عندما تتطلب ولايته ذلك. كان يتراسل مع العلماء واللاهوتيين ورجال الأدب في جميع أنحاء أوروبا. كانت حياته تتكون من نصوص أنتجت واستقبلت، وأفكار شكلت وناقشة، ونشاط فكري لم يكن بحاجة إلى لجنة التعليم العام لوجودها.

لكن من حين لآخر، عندما يمر أمام مبنى الأرشيف في شارع سانت أونوريه، كان يفكر في الحزمة المرقمة حيث كان تقريره ينتظره في الظلام. تساءل عما إذا كان فان رين لا يزال في منصبه في بروكسل، وإذا كانت صفحاته الثمانية والستين قد انضمت إلى أرشيفاتها الخاصة، وإذا كانت الوثيقتان — التقرير الفرنسي والجرد

البلجيكي — تتشابهان في نظامين أرشيفيين لا يتواصلان مع بعضهما البعض. لن يعرف أبدا. كانت فكرة تعلم أن يتجاهلها دون أن يتوقف عند ذلك.

في المتحف، كان عام 1795 سنة تركيب التحف.

في يناير، حصل باربييه على الاعتمادات اللازمة لتجنيد أربعة مرممين إضافيين، رجال مدربين، فرنسيين اثنين، واثنان من الفلمنكيين الذين عملوا في مجموعات خاصة قبل الثورة وعرفوا التقنيات القديمة من الداخل، بالممارسة وليس بالنظرية. استقروا في ورش الترميم وبدأوا بأكثر القطع إلحاحا، وهي وصلات القطع الخاصة بلوحات روبنز التي تطلبت علاجا طويل الأمد، واللوحة المتشققة للقديس يوحنا المعمدان التي احتفظت بها عملية التوحيد المؤقتة لثوين، لكنه كان يرغب في إيجاد حل نهائي لها قبل الشتاء التالي.

شغل لوح القديس يوحنا المعمدان المقيم الرئيسي، وهو فلمنكي يدعى جوريس، لمدة ستة أسابيع. عمل ببطء ودقة ذكرت ليبرون، الذي كان يتردد على الاستوديوهات، بطريقة ثوين في كنيسة فيد في غنت، نفس اقتصاد الإيماءات، نفس الاهتمام بكل مليمتر، نفس الرفض للسماح لنفسه بأن يضغط عليه أي شيء خارج المهمة نفسها. تم ترسيخ الشق بمزيج من غراء الجلد وخشب الزيزفون المسوّى إلى شرائط رفيعة جدا، وضعت على شكل صليب على جانبي خط الكسر لتثبيت الدعم دون تصلبه. بعد ستة أسابيع، كانت النتيجة غير مرئية للعين المجردة من الجانب المرسوم. قضى جوريس ثلاثة أيام أخرى يتحقق من عدم وجود شيء يظهر في طبقة الطلاء قبل أن يعلن انتهاء العمل.

فحص باربييه اللوح، ولم يقل شيئا للحظة طويلة، ثم:

— جيد.

كان هذا أقصى ما يحصل عليه من موافقة.

استمر الجمهور في القدوم. أظهرت أرقام الحضور التي جمعها باربييه كل شهر تطورا مستمرا، ليس الحشود الكبيرة في الأسابيع الأولى بعد تنصيب الفلمنكيين، بل حضور مستقر، مكون من الزوار العائدين، الذين جلبوا أفراد عائلاتهم الذين توقفون أطول أمام نفس اللوحات في كل زيارة. لاحظ باربييه ذلك برضا في تقاريره الشهرية إلى لجنة التعليم العام. لم يكن الحضور هو ما يهمه بحد ذاته، لم يكن رجلا يقلق بشأن الأرقام من أجل الأرقام. ما كان يهمه هو ما تشير إليه الأرقام: أن شيئا ما قد استقر، وأن المتحف أصبح عادة لجزء من سكان باريس، وهو ما كان يريده طوال الوقت.

كان ليبرون يزور المتحف مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. نادرا ما كان النظر إلى اللوحات، أو بالأحرى، لم يعد النظر إليها نشاطه الرئيسي عندما جاء. جاء للعمل في الغرفة الصغيرة التي خصصها له باربييه في الطابق الأول، وهي غرفة اجتماعات قديمة بها نافذة تطل على نهر السين وطاولة كبيرة بما يكفي لعرض الخرائط والملفات التي يحتاجها.

أعد القوائم الإيطالية.

بدأ هذا العمل بشكل غير رسمي، بمبادرته الخاصة، في خريف عام 1794. لم يطلب منه أحد ذلك. كان لاكانال يعلم أنه يفعل ذلك ولم يقل له أن يتوقف. كان هذا كافيا لليبرون، الذي تعلم منذ زمن بعيد أن المبادرات غير المحظورة في المنظمات العامة غالبا ما تكون أكثر فائدة من المبادرات المكلفة صراحة.

جمع كل ما كان موجودا عن مجموعات إيطالية، وحسابات سفر، وأدلة، وكتالوجات المزادات المنشورة خلال القرن السابق، ومراسلات الجامعين، وتقارير الدبلوماسيين. ريتشاردسون، كوشين، دي بروس، لالاند. كانت رسائل دي بروس المألوفة في رحلته عام 1739 ذات قيمة خاصة. زار دي بروس ميلانو، بارما، مودينا بولونيا، فلورنسا، روما بعين عالم يحب الرسم ويمتلك الانضباط لتدوين ما يراه بدقة. كانت أوصافه لمجموعات فارنيزي في بارما، ومعارض إستي في مودينا والفاتيكان، أفضل نقطة انطلاق متاحة لمن لم يزر هناك بعد.

قام ليبرون بالتعليق والمقارنة وصححه عندما تعارضت المصادر الأحدث مع دي بروس في نقطة أو أخرى. رسم ملفات حسب المدينة، حسب المجموعة، حسب الفنان. لكل عمل تم تحديده، سجل الأبعاد التقريبية عندما يتمكن من العثور عليها، والدعامة — القماش، اللوح، الجدارية، الرخام — حالة الحفظ كما وصفتها المصادر، وعمود بعنوان ببساطة «الجدوى» حيث أشار إلى القيود العملية لأخذ العينات الممكنة.

كان هذا العمود غالبا الأطول. كانت الجداريات، التي كانت دائما تذكرها ب «غير قابل للنقل»، لتوثيق في الموقع. تم إعطاء ملاحظات حول ضرورة التفكيك أو القطع، مع المخاطر المصاحبة الكبيرة — التي كان هناك عدة لوحات في بولونيا وبارما تجاوزت أبعادها تلك الخاصة بلوحات روبنز في أنتويرب. كانت التماثيل الرخامية تطرح مشاكل في الوزن والهشاشة التي لاحظها ليبرون مع تقديرات ثوين لسعة الحمل لعربات الألب.

كان هذا العمل التحضيري صامتا وغير مرئي. حدث ذلك في غرفة صغيرة في المتحف، بين رجل ووثائقه، دون أن يعرف أحد سوى باربييه ولاكانال المدى الدقيق. لكن هذا العمل هو ما سيجعل من الممكن، عندما يحين الوقت، أن نتصرف

بسرعة وبكل إخلاص، دون أن نجد أنفسنا في ميلانو أو بارما نرتجل القرارات تحت ضغط عسكري، كما حدث في غنت وأنتويرب، حيث كاد التسرع أن يكلفه غاليا في عدة مناسبات.

في أحد أيام أبريل 1795، مر هاسنفراتز عبر الغرفة التي كان ليبرون يعمل فيها. توقف عند الخرائط التي تم فتحها، نفس خريطة شمال إيطاليا التي كان قد اطلع عليها في غرفة لجنة التعليم العام في أكتوبر، لكنها الآن مغطاة بتعليقات بالقلم الرصاص، أرقام تشير إلى البطاقات الموضوعة في الملفات المكدسة على الجانب.

— بارما، قال وهو ينظر إلى تعليق.

كوريجيو، رد ليبرون دون أن يرفع عينيه. تم تحديد خمسة عشر لوحا متحركا. هناك مشكلتان رئيسيتان: المسيح الميت في دير سان جيوفاني إيفانجيليستا مدمج في مذبح ثابت يتطلب تدخل في هيكل الدير نفسه لتحريره. ولوحة مادونا ديلا سكوديلا، وهي لوحة من خشب الحور بقياس مترين وسبعة عشر في متر واحد وسبعة وثلاثين، بإطارها الأصلي الضخم المنقوش، تتجاوز قدرة العربات الجبلية على الحمل.

— هل تعتقد حقا أننا سنصل إلى بارما؟

قاطع ليبرون نفسه.

— أعتقد أننا سنصل إلى روما. بارما في طريقها.

نظر هاسنفراتز إلى الخريطة للحظة أخرى.

— تحتاج إلى أشخاص يعرفون التضاريس. ليس فقط الكتب. أشخاص مروا بذلك.

— دينون، قال ليبرون. أمضى ثلاث سنوات في إيطاليا قبل الثورة. هو يتحدث اللغة. يعرف المجموعات من الداخل، وليس فقط من أوصاف المسافرين. لاكانال قد اقترب منه بالفعل.

— وهل سيقبل؟

— إنه ينتظر. إنه من النوع الذي يفعل الأشياء عندما يطلب منه ذلك بشكل رسمي، وليس بنصف قلب. يحتاج أن تكون المهمة حقيقية ليلتزم بها حقا.

أخذ هاسنفراتز كرسيا وجلس أمام الطاولة. لم يكن من عادته أن يجلس في مكتب رجل آخر ليتحدث عن أمور لم تقرر بعد. لكن شيئا ما في خرائط وملفات ليبرون جعله يرغب في البقاء لبعض الوقت.

— متى، برأيك؟

— عندما يتحرك الجيش. ليس قبل ذلك. لا يمكنك التخطيط لعملية أخذ دون معرفة أي المدن تحت سيطرة فرنسا. لكن عندما يتحرك الجيش، يجب أن نكون مستعدين للمغادرة في الأيام التالية. ليس منذ أسابيع. الأيام.

— من المقرر أن تقام الحملة الإيطالية في الربيع القادم. إذا احتفظ الجنرالات بالجدول.

— الجنرالات لا يلتزمون بالتقويم أبدا. لكن الربيع القادم هو الأفق المعقول، نعم.

وقف هاسنفراتز. نظر إلى الخريطة للمرة الأخيرة، تعليقات القلم الرصاص، أعمدة الأرقام في بطاقات الفهرسة.

— لقد قمت بعمل جيد.

كان هذا أعلى شكل من أشكال الثناء الذي قدمه هاسنفراتز. ليبرون كان يعلم ذلك. أومأ برأسه وعاد إلى ملفاته.

تولى الديركتوار السلطة في 4 برومير، السنة الرابعة، في 26 أكتوبر 1795. خمسة مديرين، دستور جديد، نظام كان من المفترض أن يكون مستقرا بعد اضطرابات الإرهاب وثيرميدور، والذي يشبهه، لمن يراقبه عن كثب، توازنا مؤقتا بين قوى لم تكمل قياس بعضها البعض. نجا لاكانال من الانتقال كما نجا من جميع الانتقالات السابقة، بفضل القدرة التي كان لديه في جعل نفسه ضروريا للمؤسسات دون أن يتماهى مع من يديرونها.

استمرت الحرب. في ألمانيا، تقدمت جيوش نهر سامبر إي موز ونهر الراين وتراجعت وتقدمت مرة أخرى دون اتخاذ قرار. في إيطاليا، كان جيش بارتليمي شيرير متمركزا منذ أشهر على مرتفعات ليغوريا، غير قادر على فرض مواقع النمساويين البيمونتيين بسبب نقص الوسائل. كان الديركتوار غير راض. كان يريد الانتصارات والأراضي، والموارد. كان شمال إيطاليا يمثل كل هذا في نظره، ثروة زراعية وتجارية، ومواقف استراتيجية ضد النمسا، والمجموعات الفنية التي أعد ليبرون جرداتها في غرفته الصغيرة بالمتحف.

في نوفمبر 1795، استدعى لاكانال هاسنفراتز.

وصل الاستدعاء صباحا برسالة عادية، دون أي إشارة إلى الموضوع. ذهب هاسنفراتز إلى شارع سانت أونوريه في اليوم التالي بعد الظهر. وجد لاكانال وحيدا في مكتبه، بدون سكرتير، وبدون الموظفين المعتادين الذين عادة ما يحضرون هذه الاجتماعات.

— اجلس. سأخبرك عن أمر لم يحدد رسميا بعد.

— حسنا.

— قرر الديركتوار استبدال شيرير في إيطاليا. لم يعلن بعد عن القائد الجديد لجيش إيطاليا. لكنه بونابرت. الجنرال بونابرت.

كان هاسنفراتز يعرف الاسم. كان الجميع في باريس يعرف الاسم منذ فنديمير، عندما كان ذلك البونابرت نفسه قد فرق التمرد الملكي أمام سان روش برصاصة عنبية. قالوا إنه رجل فعال. قاسية أحيانا. طموح بالتأكيد.

— ستستأنف الحملة الإيطالية في الربيع. غادر بونابرت إلى نيس في مارس. إذا سارت الأمور وفقا للتوقعات العسكرية، فقد تسقط ميلانو قبل الصيف. وهذا يترك لنا بين أربعة وستة أشهر لإنهاء التكليف الفني.

— ليبرون جاهز. القوائم جاهزة. تم إنجاز معظم الأعمال التحضيرية.

— أعلم. لقد اطلعت على ملفاته. إنه أمر مذهل. ما أود أن أسألك عنه هذا المساء هو هل توافق على استئناف الدور الذي لعبته في فلاندرز. تنسيق عام. اللوجستيات. الرابط بين القيمين الفنيين والواقع العسكري في المجال.

لم يرد هاسنفراتز على الفور. لم يكن ترددا. كان قد اتخذ هذا القرار منذ وقت طويل، من الخرائط في غرفة اللجنة في أكتوبر 1794، ومن بعد ظهر مكتب ليبرون أمام الملفات الإيطالية. لم تكن إيطاليا هي التي جذبته. لم يكن لديه طبع الرجال المفتونين بالدول الأجنبية. بل كانت فكرة أن ما حدث خطأ في فلاندرز يمكن أن يحدث بشكل مختلف، وأن الأخطاء قد تم تحديدها، وأن الظروف موجودة لفعل الشيء نفسه مع ضرر أقل. هذا النوع من المشاكل كان يثير اهتمامه. ليس اللوحات. المشكلة. لكنه تعلم، في الاجتماعات والتفاوضات، أن الرد بسرعة كبيرة يعطي انطباعا بأنه لم يقيس ما يلتزم به.

— نعم. بشرطين.

— أي منها؟

— أولا، يجب أن تكون سلطة اللجنة على المصادرات حقيقية. ليس اسميا. في فلاندرز، كان ديفيد يتجاوز باستمرار القرارات الجماعية باسم اعتبارات سياسية لم يكن المفوضون الآخرون يشتركون معها. في إيطاليا، مع بونابرت، حل الضغط العسكري محل الضغط السياسي لديفيد. قد تكون النتيجة واحدة: قرارات تتخذ بسرعة كبيرة، أعمال سيئة الترتيب، أضرار يمكن تجنبها. أريد للجنة الحق في قول لا لموعد نهائي مستحيل، وأن يحترم هذا الرفض.

تأمل لاكانال.

— إنها حالة صعبة الضمان عندما يكون الجيش على الأرض.

— أعلم. ولكن إذا لم يكن مضمونا من حيث المبدأ، فلن يحترم أبدا عمليا. أريد أن يكون مكتوبا في تعليمات اللجنة.

— وماذا عن الشرط الثاني؟

— دينون. يجب أن يكون عضوا في اللجنة. ليس كضابط مساعد أو رابط، بل كمفوض بحد ذاته، بصوت مماثل لليبرون أو ثوين. يعرف إيطاليا من الداخل. نحن نعرف فقط الكتب.

— دينون مخطط له بالفعل. لكن لقب المفوض الكامل هو مسألة أسبقية تعقد العلاقة الهرمية.

— إنها مسألة كفاءة. إذا لم يكن لدى دينون السلطة التي تتوافق مع كفاءته، فسيتم تعطيل الدائرة من قبل الجيش الذي يتعامل معه. هم يحترمون فقط الألقاب الرسمية.

فكر لاكانال للحظة، وعيناه على الطاولة.

— سأرى ما يمكنني فعله. بالنسبة للشرط الأول — استقلالية اللجنة خلال الحدود الزمنية — يمكنني تضمين بند في التعليمات. بالنسبة لدينون، يجب أن أتحدث مع المديرين الآخرين حول ذلك.

— هذا يكفي.

أخذ قبعته. أوقفه لاكانال.

— شيء آخر. غريغوار.

— ماذا، غريغوار؟

— يريد الذهاب إلى إيطاليا. قال لي ذلك قبل ثلاثة أسابيع. يعتقد أن وجوده في اللجنة الفلمنكية خدم هدفا، رغم ما يقوله هو نفسه. يريد أن يفعلها مرة أخرى.

ظل هاسنفراتز واقفا، قبعته في يده.

— وأنت؟

— أعتقد أنه محق في الموضوع. وجوده في فلاندرز غير سلوكه. ستكون الحملة الإيطالية طويلة وتتطلب جهدا جسديا. الطرق الجبلية ليست مثل الطرق الفلمنكية.

— هو يعرف ذلك.

— نعم. قال لي إنه يعرف ذلك ويريد الذهاب على أي حال. ما رأيك؟

— أعتقد أنه يجب أن يأتي. ليس لأنه سيغير الحقائق. بل لأن بعض الرجال يحتاجون إلى أن يكونوا حاضرين في الأمور ليشهدوا عليها بصدق. وغريغوار هو من هذا النوع من الرجال.

— سأدون ذلك.

هاسنفراتز خرج. في الشارع، حل المساء على باريس مع بكور أمسيات نوفمبر. ضوء انسحب بسرعة، دون انتقال، تاركا الواجهات الرمادية والأرصفة مبللة برذاذ لم يكن مطرا بعد. سلك الطريق إلى مدرسة المناجم.

مرت الأسابيع التالية في ذلك التوتر الخفي الذي يسبق المشاريع الكبرى. تم اتخاذ قرارات مبدئية، لكن لا شيء كان حقيقيا بعد. كانت القوائم والخطط موجودة على الورق—لم تواجه بعد طرقا أو أوزانا أو مقاومة غير متوقعة.

واصل ليبرون ملفاته. أضاف قسما عن روما، أقل تفصيلا من البقية، لأن المصادر المتعلقة بمجموعات الفاتيكان كانت أقل سهولة وأقل دقة، لكنها كانت كافية لفهم حجمها. كتب إلى اثنين من علماء الآثار الذين يعرفهم في فلورنسا طالبا معلومات عن الحالة الحالية لبعض المجموعات التي وصفها مصادره لعقود. استغرقت الإجابات وقتا طويلا لتظهر. كانت الطرق بين باريس وفلورنسا غير آمنة، والبريد غير منتظم، وكان لدى علماء الآثار الفلورنسيين أسبابهم الخاصة للحذر فيما ينقلونه للفرنسيين.

ثوين جهز المعدات. تعلم دروس فلاندرز في عدة نقاط، أحزمة الحمل التي كادت أن تفشل في غنت، والدهون ذو الجودة المنخفضة لسد المفاصل في الطقس الممطر. بالنسبة لإيطاليا، كان يريد أحزمة مبطنة، وفحص الشحم قبل المغادرة، وجراح أو على الأقل صيدلي في الفريق.

تناول هاسنفراتز مسألة ممرات الألب. حصل من خلال وسيط هيئة الأركان العامة على تقارير المهندسين العسكريين على طرق سيمبلون ومونت-سينيس، وحالتهم الحالية، وقدرتهم على التحمل، والأقسام التي تتطلب عملا قبل أن تتمكن من دعم القوافل الثقيلة. كما درس تخزين الشتاء في ميلانو، تحسبا لأن تستمر الحملة بعد أكتوبر وتجعل عبور جبال الألب مستحيلا قبل الربيع التالي.

انضم مونج رسميا إلى اللجنة في ديسمبر 1795. تبع بيرثوليه في يناير 1796. حصل دينون على لقب المفوض بصفته الخاصة. فاز لاكانال بقضيته مع المديرين، بعد نقاش حيوي مع أحدهم اعتبر أن الفنانين وتجار التحف لا يحتاجون إلى ألقاب رسمية لأداء أعمالهم وأن العناوين الرسمية تكلف مالا. لقد انتصر الجدل حول الكفاءة.

تم تعيين غريغوار أخيرا في فبراير 1796، بموجب مرسوم من لجنة التعليم العام، الذي عينه عضوا في اللجنة بلقب *مستشار أخلاقي وتاريخي*. لقب لم يرتده أحد من قبل وقد اخترع خصيصا لوضعه، لأن أيا من الألقاب الموجودة لم يكن يتوافق تماما مع ما طلب منه أن يكون. قبل ذلك.

في 15 مارس، عبر هاسنفراتز باريس سيرا على الأقدام في طريقه إلى اجتماع مهم. كان الجو جافا وباردا. سار بسرعة، وملاحظات الأسبوع الماضي في جيبه.

أمام مبنى اللجنة، توقف للحظة. كانت نوافذ الطابق الأول مضاءة. كان يسمع أصواتا في الداخل. ليبرون، الذي كان معروفا بأسلوب أدائه، وشخص آخر لم يميز أحدا. كانت اللجنة موجودة بالفعل. لا شك أن الجدول كان مغطى بنفس الخرائط كما في أكتوبر 1794، نفس الدبابيس على نفس المدن، لكن مع هذا الفرق أن الجيش هذه المرة يتحرك نهائيا، وأن بونابرت قد غادر باريس بالفعل، وأن ما كان تحضيرا مجردا لمدة ستة عشر شهرا سيصبح حقيقيا خلال أسابيع قليلة.

فلاندرز. غنت. القافلة تحت المطر من كومبيين، العربات التي كادت أن تسقط في الطين ثلاث مرات قبل فالنسيا. رسالة التخرج التي وجدها على طاولته في مدرسة المناجم في أكتوبر 1794—ورقة عادية، دون أي إعلان عما ستتضمنه. وهنا بدأ كل شيء.

دفع الباب وصعد إلى الطابق العلوي. أغلق الباب خلفه في الشارع الخالي.

الفصل الثاني: الاندفاع نحو إيطاليا (1796)

I— خريطة إيطاليا

باريس، مارس 1796

دخل هاسنفراتز الغرفة تماما عندما كان ليبرون يفتح خريطة كبيرة لشمال إيطاليا على الطاولة. كان الآخرون هناك بالفعل. ثوين يضع ملاحظاته جانبا، مونج ينحني فوق شيء يشير إليه بيرثوليه، دينون واقفا بجانب النافذة بجو مسافر يعرف بلدا عبره بالفعل. كان غريغوار جالسا في نهاية الطاولة، ويداه مسطحتان على الخشب، يراقب الخريطة تتفتح.

ترأس لاكانال. أشار لهاسنفرتز بالجلوس.

— كان ليبرون سيعرض لنا حالة قوائمه. وصلت في الوقت المناسب.

قضى ليبرون ثمانية عشر شهرا يستعد لهذه اللحظة. كانت الملفات المكدسة أمامه مغطاة بتعليقات بالقلم الرصاص، وتصحيحات، وأشكال مشطوبة ومعاد كتابتها. لقد أخذ القضية على محمل الجد قبل أن تصبح رسمية.

— ميلانو أولا. تحتوي بيناكوتيكا أمبروزيانا على ما نفتقده أكثر: مخطوطة أتلانتيكوس لليوناردو دافنشي، اثنا عشر مجلدا من المخطوطات، أكثر من ألف صفحة من الملاحظات والرسومات. لا تقدر بثمن للعلوم والفنون. هناك أيضا البروغل: سلسلة من أربع نحاسات تمثل العناصر، بتكليف من الكاردينال بورومیو. مادونا مع إكليل، تعاون بين بروغل الأكبر وروبينز. ولوحة مادونا من لويني.

— أبعاد الكودكس؟ سأل هاسنفراتز.

— أربعة وستون سنتيمترا في ثلاثة وأربعين. اثنا عشر مجلدا. أربطة جلدية. الوزن المقدر بأربعين كيلوغرام للمجموع.

لاحظ هاسنفراتز. تنسيق قابل للنقل. صندوق مبطن مع حجرات، مع أكياس ماصة للرطوبة. كان قد فكر بالفعل في هذه المشكلة، فالمخطوطات كانت الفئة الأكثر تعقيدا، أكثر من اللوحات، لأن الرق يتفاعل مع تغيرات درجة الحرارة بطريقة لا يتفاعل بها الخشب والقماش بنفس الدرجة.

— الصور المتحركة في ميلانو، تابع ليبرون،— تمثل حوالي مئة وسبعة وأربعين قطعة من الدرجة الأولى، إذا أضفنا مجموعات القصور والكنائس الدوقية. لكن لا يمكننا أخذ كل شيء. لقد وضعت قائمة بالأولويات، وهي العشرين إلى الثلاثين قطعة التي بدونها سيبقى المتحف غير مكتمل في عصر النهضة اللومباردي.

— الجداريات؟ سأل دينون.

— العشاء الأخير لليوناردو دافنشي في سانتا ماريا ديلي غراتسي. غير قابل للنقل، طلاء الجدران مدمج في جدار الطعام. جداريات لويني في كنائس مختلفة. نفس المشكلة. نحن نوثق، لا نأخذ.

— هذا هو حد النظام، قال غريغوار دون أن يرفع صوته. أهم الأعمال هي بالضبط تلك التي لا تتحرك.

— هذا هو الحد الجسدي، قال ليبرون. ليس النظام.

نظر غريغوار إلى الخريطة.

تدخل دينون. كان يعرف شمال إيطاليا من سفره هناك قبل الثورة، حيث قضى ثلاث سنوات بين ميلانو والبندقية وروما، وكان يتردد على الورش والمجموعات الخاصة والأكاديميات.

— في ميلانو، ستتعاون السلطات إذا كان بونابرت خلفنا. المدينة تحت الحكم النمساوي منذ قرن ونصف، وهناك جزء صغير من السكان سيرحب بنا، على الأقل في البداية. لكن أمناء المجموعات سيكونون أمرا مختلفا. تدار أمبروزيانا من قبل رجال دين. هم يطيعون فقط روما.

— سوف يطيعون الجيش الفرنسي، أجاب ثوين بجفاف.

— سوف يطيعون. لكن يجب أن نتوقع احتجاجات رسمية، وسجلات موازية، وشهادات موجهة للمستقبل. كما في غنت وأنتويرب.

— كما في غنت وأنتويرب، أكد هاسنفراتز. هذا أمر لا مفر منه وهو حقهم. السؤال ليس تجنب احتجاجاتهم، بل معاملة الأعمال بعناية كافية بحيث تتعلق شكاواهم بالمصادرة نفسها وليس بالأضرار التي تحدث أثناء النقل.

أومأ لاكانال.

— هذا بالفعل هو التمييز الذي يرغب الديركتوار في الحفاظ عليه. كانت المصادرات منصوصا عليها في الهدنة. هي قانونية بمعنى قوانين الحرب. أما الضرر في الأدنى، فسيكون من الصعب الدفاع عنه.

— إذا يجب أن نواجه التأخيرات اللازمة، قال هاسنفراتز. سيريد بونابرت قوافل سريعة. غنائم في باريس قبل الصيف لتبرير الحملة أمام الجمهور. رأيت كيف كان ديفيد يعمل في فلاندرز عندما كان مستعجلا. ونتيجة لذلك، كادت ألواح فان إيك أن تقطع في المكان الخطأ، حيث بُترت لوحة روبنز في أنتويرب بمنشار لا يزال باربييه يقضي أسابيع في ترميمه. السرعة تكلف أكثر من الوقت الضائع.

— بونابرت ليس ديفيد، قال مونج.

— لا. كان بونابرت أكثر فاعلية. هذا هو ما يشكل خطرا على الأعمال.

قلب ليبرون صفحة جديدة في قضيته.

— بارما. تمتلك الدوقية أكبر مجموعة من الكوريجيوس في العالم. توفي أنطونيو أليغري في عام 1534. جدارياته في الكاتدرائية وفي سان جيوفاني إيفانجيليستا غير قابلة للنقل. نفس المشكلة مثل العشاء الأخير، لكن على الأسطح الأكبر. من ناحية أخرى، لوحاته المتنقلة متاحة. تعتبر لوحة العذراء والطفل مع القديس جيروم — المعروفة باسم اليوم — من أجمل اللوحات من قبل بعض النقاد. ارتفاعه مترين ونصف. زيت على خشب الحور. حالة حفظ ممتازة.

— الوزن؟ سأل هاسنفراتز.

— حوالي ثمانين كيلو مع الإطار. خمسون بدون ذلك.

— طريق إلى جبال الألب من بارما؟

— عبر سهل نهر بو إلى ميلانو، ثم إلى سبلوجن. لكن إذا عملنا في بارما في يونيو أو يوليو، ستكون الممرات الجبلية صالحة للمرور. المشكلة ستكون في الحرارة، والتغيرات الحرارية الكبيرة بين السهل الإيطالي في الصيف وجبال الألب على الارتفاعات قد تتسبب في تشقق الألواح الخشبية.

— الكايز المعزز بالعزل، قال ثوين. لدي المواصفات. يمكننا حل ذلك.

— مودينا إذا، تابع ليبرون. معرض إيستي. تيتيان، فيرونيزي، كوريجيو، دوسو دوسي. لكن الدوق وقع هدنته، وسيقدم ما هو منصوص عليه. السؤال هو معرفة ما الذي نضعه.

— بولونيا، قال مونج. المدرسة البولونية غائبة عن المتحف. ذا كاراتشي، غويدو ريني، جيرسينو. تم تحديد ما لا يقل عن مئة عمل كأولويات. الهدنة مع الولايات البابوية ستشمل بولونيا، فهي مدينة بابوية.

— وروما.

نظر إليه الجميع.

— روما، كرر. الفاتيكان. البلفيدير. الأبولو. لاوكون. غرف رافائيل. السيستين. هل نذهب إلى هذا الحد؟

— معاملة روما تعتمد على البابا، قال لاكانال. لم يكن الديركتوار قد قرر بعد ما إذا كان سيتقدم نحو روما أو يتفاوض. بونابرت سيعبر عن رأيه.

قال دينون: سيتقدم بونابرت نحو روما إذا سمح له الديركتوار بذلك. لديه شمال إيطاليا. سيريد الباقي.

— وغرف رافائيل ليست أكثر قابلية للنقل من *العشاء الأخير*، أجاب غريغوار. يمكننا الذهاب حتى روما. يمكننا أخذ ما يمكن نقله. لكن قلب روما سيبقى في روما. وهذا يعني أن باريس لن تملك كل شيء أبدا.

— هذا السؤال قد طرح بالفعل، قال ليبرون. ليس لديها إجابة مرضية. هذا ليس سببا لعدم الذهاب.

— لا. هذا ليس سببا.

استمر النقاش طويلا. دون هاسنفراتز ملاحظات، وأعمدة أرقام، وأسماء المدن، وأسئلة لوجستية يجب حلها قبل المغادرة. التصاريح. العربات. الصناديق. طاقم المرافقة. جدول القوافل حسب التقدم العسكري. كل هذا كان يعتمد على مجهول رئيسي واحد: سرعة بونابرت. إذا سارت الحملة بالسرعة التي كان يأملها البعض، يجب أن يتمكن المفوضون من العمل في ميلانو في أقرب وقت ممكن في مايو. ترك ذلك ستة أسابيع لإنهاء القوائم، وتجميع المعدات، وتجنيد عمال التعبئة.

ستة أسابيع لتحضير ما استغرق ليبرون ثمانية عشر شهرا للتخطيط واستغرقت مهمة فلاندرز عامين لتحقيقه.

في نهاية الاجتماع، استبقى لاكانال هاسنفراتز للحظة.

— بونابرت يعلم أنك قادم. لقد أعطيته اسمك مع الآخرين. رد بأنه يريد رؤيتك في ميلانو بمجرد أن تستولي المدينة.

— هل يعرف فلاندرز؟

— هو يعرف نتائج فلاندرز. الأرقام. الأعمال في المتحف. لا يعرف تفاصيل العملية.

— تفاصيل العملية هي الأهم.

— من أجلك، نعم. بالنسبة لبونابرت، فالنتائج هي الأهم. عليك أن تتفق على ذلك.

— في فلاندرز، كان لدينا ديفيد. كان لديه تفضيلات واضحة وفرضها. تسبب ذلك في مشاكل، وقرارات سريعة جدا، وضغط على أوقات التعبئة، واعتقال غير ضروري في غنت. سيكون بونابرت مختلفا عن ديفيد في بعض النقاط. وفي حالات أخرى، ستكون المشكلة نفسها. السؤال ليس ما إذا كنا سنكون مستقلين. لن نكون كذلك. السؤال هو كيف نحصل على الوقت اللازم ضمن القيود التي سيفرضها علينا.

أخذ هاسنفراتز قبعته. من خلال النافذة، بدأت باريس تنبض بالحياة في ضوء مارس، ضوء لا يزال باردا، لكنه مختلف بالفعل عن ضوء يناير.

في غضون خمسة أسابيع، وربما أقل، سيعبر بونابرت جبال الألب.

II — ما يمكن نقله

— هذا ما تفاوضت عليه مع لاكانال، قال مونج. تتضمن تعليمات اللجنة بندا بشأن أوقات التعبئة. لا يمكن لأي قافلة المغادرة دون موافقة المفوض الفني المسؤول عن التغليف.

— هل ستصمد هذه الفقرة أمام بونابرت؟

— ستصمد إذا دافعنا عنها معا. إذا دافع كل مفوض عن القضية بشكل فردي، فلن تستمر يومين.

ابتسم دينون، ابتسامة لم تكن سخرية، بل اعترافا معينا بوضوح الصياغة.

— إذا يجب أن نصل إلى تفاهم.

قلب ليبرون عدة صفحات من ملفه وتوقف عند قسم محدد بعلامة ورقية حمراء.

— بارما. كانت دوقية بارما تحت حكم فرديناند دي بوربون، صهر ملك إسبانيا. دولة صغيرة يبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثمائة ألف نسمة، محصورة بين لومبارديا وتوسكانا. قليل من الوزن العسكري. بل مجموعة دوقية ذات أهمية استثنائية لسبب واحد: كوريجيو. أنطونيو أليغري، المعروف باسم كوريجيو. رسام في عصر النهضة اللومباردي. تعد جداریاته في كاتدرائية بارما وكنيسة سان جيوفاني إيفانجيليستا الأهم في شمال إيطاليا بعد تلك التي كانت في سيستين. لكن ما يهمنا هو اللوحات المتنقلة.

— كم عدد الصور؟ سأل هاسنفراتز.

— ثلاثة وعشرون من كوريجيو في معرض الدوق فقط. بالإضافة إلى أعمال متناثرة في الكنائس والمجموعات الخاصة. هذا هو أكبر تركيز لأعمال كوريجيو موجود. المتحف لا يملك أي منها.

— لا شيء، كرر مونج.

— هذا هو أخطر نقص في البولوني. متحف يدعي تمثيل لوحات عصر النهضة الإيطالية دون أي من لوحات كوريجيو هو متحف غير مكتمل. النقاد يقولون ذلك منذ عشر سنوات.

— ما الذي يجعل كوريجيو لا يمكن الاستغناء عنه؟ سأل بيرثوليه. أعرف الاسم. أنا أعرف السمعة. لكنني لم أر لوحاته أبدا.

فكر ليبرون للحظة، ليس لأنه لا يعرف ماذا يجيب، بل لأنه كان يبحث عن الصياغة المناسبة، الصياغة التي تقول شيئا حقيقيا بدلا من تكرار أحكام النقاد المعتادة.

— اخترع كوريجيو طريقة لرسم الضوء لم يجدها أحد قبله، ولم يعيد أحد إنتاجها تماما منذ ذلك الحين. ليس الضوء الدرامي لكارافاجيو. ليس تباينا، أو عنف. الأمر بالعكس. ضوء ذهبي منتشر يبدو وكأنه يأتي من داخل الأشكال بدلا من أن يضيئها من الخارج. الانتقالات بين الضوء والظل غير ملحوظة، لا نرى أين يبدأ الظل، أين ينتهي الضوء. كل شيء يندمج في تناغم لا يبدو أنه مصطنع. وهذا يبدو واضحا. طبيعي. حتمية.

— هل هو مسألة تقنية؟ سأل بيرثوليه.

— إنها مسألة تقنية وشيء آخر، التقنية ليست كافية لتفسيره. الرسامون الذين درسوا لوحاته عن كثب — مينغز، رينولدز — قالوا إنهم يفهمون دون أن يكونوا قادرين على التكاثر. وكأن الطريقة مرئية والنتيجة غير متاحة. هذا ما يحدد العبقري، ربما إمكانية التحليل دون القدرة على التقليد.

تدخل دينون.

— رأيت لوحة اليوم في بارما عام 1788. *العذراء والطفل مع القديس جيروم*. كان فرانشيسكو ألغاروتي هو من وصفها بأنها أجمل لوحة في العالم، صيغة مفرطة مثل جميع الصيغ الفائقة، لكنها تعبر عن بعض الحقيقة حول التأثير الذي تحدثه.

— هذه الأبعاد تشكل مشكلة في النقل. لوحة خشبية بهذا الحجم تعني صندوقا مخصصا، وعربة معززة، واهتماما خاصا بالتغيرات الحرارية بين وادي بو في يوليو وممرات الألب على الارتفاعات. الأعمال الخشبية. تظهر شقوق عند المفاصل عندما تنخفض درجة الحرارة بمقدار عشرين درجة خلال ثمانية وأربعين ساعة.

— الأمر قابل للإدارة. تم حل مشاكل مماثلة في فلاندرز. نجت ألواح فان آيك من صيف 1794 دون أضرار. مع الاحتياطات المناسبة، والعزل الحراري في الصندوق، والمراقبة اليومية لقياس الرطوبة، يمكن للو جور أن يقطع الرحلة.

— سيكون هناك حاجة إلى نجارين إيطاليين في الموقع. لا يمكننا نقل صناديق فارغة من باريس إلى إيطاليا. نأخذ الأدوات ومواد التوسيد معنا. الخشب متوفر محليا. الحرفيون أيضا. السؤال هو إيجاد الأشخاص المناسبين، الرجال الذين يفهمون ما يبنونه، وليس صانعي السفن الذين يتم الاستعانة بهم لأنهم موجودون.

— هل يعرف دينون أي حرفيين في ميلانو؟ سأل ثوين.

— صانعو الأثاث، وليس عمال ربط الصناديق. لكن يمكنني تحديد الأشخاص المناسبين. كانت الورش التي تعمل لصالح مجموعات الدوق على دراية بقيود نقل

الأعمال. يقومون بتعبئة القروض بين التحصيل. لقد كان هذا ممارسة شائعة في الدوقيات الإيطالية لمدة قرن.

تابع ليبرون.

— في بارما، بالإضافة إلى كوريجيوس، يضم المعرض الدوقي بارميجيانينو. فرانشيسكو ماتزولا، معجب ومستمر لكوريجيو. أسلوب مانيريستي مصقول، وأشكال طويلة ذات رشاقة خاصة. تم تحديد ثماني لوحات. وشيدوني. بارتولوميو شيدوني، باروك أوائل القرن السابع عشر، كيروسكورو درامي متأثر بكارافاجيو. قطعتان أو ثلاث من الدرجة الأولى.

— الجداريات في بارما؟ سأل مونج.

— *صعود العذراء* في قبة الكاتدرائية. رسم بواسطة كوريجيو بين عامي 1526 و1530. قطرها اثنا عشر مترا. سطح مرسوم تبلغ مساحته حوالي مئتين وثلاثين مترا مربعا. غير قابل للنقل. نفس الاستحالة الجسدية كما في ميلانو مع *العشاء الأخير*.

— هل رأيتها؟ سأل بيرثوليه من دينون.

— نعم. يصعد المرء القبة عبر درج ضيق — مئتا درجة — ويصل إلى منصة تبعد بضعة أمتار عن الجدارية. عن قرب، تبدو الأشكال مشوهة، تكاد تكون وحشية. الأطراف مطولة بطريقة سخيفة. النسب مشوهة. نحن لا نفهم ما نراه.

— ومن بعيد؟ سأل غريغوار، الذي رفع عينيه عن الخريطة.

— من بعيد، من أرضية الصحن، على بعد خمسين مترا أسفل، كل شيء منظم. تختفي التشوهات، وتصحح بواسطة المنظور. في الواقع، يرتفع دوامة الملائكة إلى السماء. إنها رؤية. وهم مثالي محسوب بناء على أربع سنوات من العمل في السقالات. رسم كوريجيو كل شخصية بالتشويه الدقيق اللازم لتبدو وكأنها مرئية من الأسفل. إنه عمل رياضي بتعقيد يتجاوز ما يتوقعه المرء من الرسام.

— إنها هندسة وصفية مطبقة، قال مونج باهتمام مفاجئ.

— صحيح. قبل قرنين من وجود هذا التخصص بهذا الشكل.

كتب مونج شيئا في دفتره. لاحظ هاسنفراتز ذلك، فقد وجد الهندسي للتو سببا شخصيا للاهتمام ببارما بعيدا عن اللوحات القابلة للنقل. لم يكن عديم الفائدة. المفوض الذي يريد أن يرى شيئا بعينيه يعمل بشكل أفضل من المفوض الذي ينفذ التعليمات.

توجه ليبرون إلى القسم التالي.

— مودينا. دوقية إيستي. هرقل الثالث، آخر سلالة حكمت مودينا منذ عام 1598 بعد خسارة فيرارا لصالح البابا. جامع شغوف مثل جميع أسلافه. يضم المعرض الدوقي تيتيان، فيرونيزي، كوريجيو مرة أخرى، دوسو دوسي، رسام فيرارا في القرن السادس عشر، وهو فنان ألوان بارع تحمل لوحاته جودة شبه حالمة يجد النقاد صعوبة في تصنيفها. وقبل كل شيء، مجموعة من الرسومات التي تهم اللجنة بشكل خاص.

— رسومات؟ قال ثوين.

— حوالي ألف وثلاثمائة ورقة. في ستة وعشرين محفظة. جمعت على مدى ثلاثة قرون من قبل دوقات إيستي. رافاييل، ميكيلانجيلو، ليوناردو دافنشي، تيتيان، كوريجيو. كاراشي، وخاصة أنيبالي، الذي ترك مئات الدراسات التحضيرية. جيرسينو. الرسومات في الواقع أكثر قيمة من العديد من اللوحات لأنها تظهر الفكر أثناء العمل، الفكرة قبل أن تصبح عملا، عبقرية في حركتها أكثر من نتيجة.

— وأخف وزنا للحمل، قال هاسنفراتز.

قال ذلك دون تفكير. حجة اللوجستي: ما يزن أقل يسافر أفضل. ما يعنيه هنا هو أن رسومات ليوناردو ستختفي بسهولة أكبر من لوحات تيتيان. لم يتوقف عند هذا الحد. كان من واجبه ألا يتوقف عند هذا الحد.

— وأخف وزنا للحمل، نعم. ملف أعمال يحتوي على خمسين رسمة يزن أقل من كيلوغرام. مخاطر النقل مختلفة، فالرطوبة هي العدو الرئيسي، وليست الصدمة. صناديق محكمة الإغلاق مبطنة بالزنك إن أمكن، مع ورق مناديل بين كل ورقة.

— الزنك متوفر في شمال إيطاليا، قال بيرثوليه. مناجم ترينتينو. لا توجد مشكلة في التوريد.

— هناك أيضا في مودينا، تابع ليبرون،— مجموعة من الميداليات النهضوية والمجسمات العتيقة التي جمعت منذ القرن الخامس عشر. حوالي ثلاثمائة ميدالية، بورتريهات لأمراء إيطاليين، أعمال بيسانيلو، سبيراندیو، نيكولو فيورنتينو. الحاصلون على الميداليات العظماء في عصر النهضة. ومئة وخمسين صورة كاميو، أحجار منقوشة رومانية ويونانية بجودة متفاوتة، لكن أفضلها استثنائية.

— هل سيتنازل الدوق عن كل هذا طواعية؟ سأل مونج.

— الدوق سيتنازل عن ما ينص عليه الهدنة. وضع بونابرت الإطار. إذا كان الهدنة تذكر: عشرين لوحة، سيسلم الدوق عشرين لوحة. السؤال هو: ما الذي يوضع في هذه اللوحات العشرين وما إذا كانت الرسومات والميداليات والظهورات مدرجة في السجل أم تشكل فئة منفصلة.

رفع هاسنفراتز رأسه.

— في فلاندرز، كانت شروط المصادرة غامضة عمدا. أعطانا بعض المراحة، لكنه أيضا خلق صراعات مع السلطات المحلية التي اعترضت على التفسير. بالنسبة لإيطاليا، أوصي بشروط دقيقة في الهدنة. ليس عشرون عملا فنيا، بل عشرون لوحة، بالإضافة إلى رسومات، بالإضافة إلى أشياء علمية، بالإضافة إلى ميداليات. كل فئة تم تسميتها بشكل منفصل. يتجنب التحديات بعد الحدث.

قال دينون: بونابرت لن يرغب في هدنة مفصلة جدا. التفاصيل تبطئ المفاوضات. يريد صفقات سريعة.

قال هاسنفراتز: التفاصيل في الهدنة تحمينا. بدونها، يمكن للدوقات أن يجادلوا بأن الميداليات ليست أعمالا فنية ويرفضون تسليمها. أو على العكس، نأخذ أكثر مما هو محدد إذا فسرناه بشكل واسع. كانت دقة الشروط في مصلحة الجميع، بما في ذلك بونابرت، الذي لم يكن بحاجة إلى الطعن القانوني بعد انتصاراته العسكرية.

لاحظ لاكانال. رأى هاسنفراتز أنه يكتب بالضبط ما قيل للتو، كلمة بكلمة، وليس ملخصا. كان رجلا يعرف أن الصياغة مهمة.

— بولونيا، قال ليبرون وهو يقلب صفحة أخرى. المدينة البابوية. كانت تابعة للدول البابوية منذ القرن السادس عشر. مئة وخمسين ألف نسمة. تأسست الجامعة عام 1088، وهي الأقدم في أوروبا. كان مدرسة بولونيا في القرن السابع عشر مركزا فنيا رئيسيا، وكانت الأكثر تأثيرا في إيطاليا بعد المدرسة الفينيسية. أسس آل كاراشي أكاديميتهم في بولونيا عام 1582، وقاموا بتدريب أجيال من الرسامين وعرفوا الجمالية الكلاسيكية الباروكية التي هيمنت على الرسم الأوروبي لقرن كامل.

— وهو ما لا يمتلكه المتحف، قال مونج.

— تقريبا لا شيء. بعض الأعمال الصغيرة تم اقتناؤها قبل الثورة من قبل جامعي التحف الخاصين وتم تأميمها لاحقا. لا شيء يمثل. لا شيء يسمح لنا بفهم ما كانت مدرسة بولوني. الكاراتشي مفقودون. غيدو ريني مفقود، الذي كان يعتبر أعظم رسام في أوروبا من قبل معاصريه ولا يزال ستندال يسميه الرجل ذو الروح الفرنسية. غيرسينو مفقود. دومينيتشينو أخطأ.

— القطع الرئيسية؟

مجزرة الأبرياء بقلم غويدو ريني. متران، ثمانية وستون في مترين، أحد عشر. رسمت عام 1611. العنف السامي والرعب والجمال الشكلي في نفس اللوحة، وهو ما سعت الكلاسيكية الباروكية إلى تحقيقه. القديس ويليام الأكيتي لجيرسينو، وتباين قوي بين

الضوء والظل، وتركيب قطري، وقوة جسدية تجسدها اللوحة بقسوة تذكر بكارافاجيو، لكنها تحمل طابعه الغنائي الخاص.

— أبعاد هذه اللوحات تشكل مشكلة، قال ثوين. ثلاثة أمتار وخمسة وسبعون هو صندوق لا يمكن المرور عبر باب عادي. يجب أن تدخل من النوافذ، تستخدم الرافعات، توفر العربات بمنصة منخفضة.

— الأمر ممكن، قال هاسنفراتز. الأمر معقد، لكنه ممكن. كان الروبنز في أنتويرب يبلغ طولهم مترين ونصف. قمنا بإزالتهم. مع الفرق المناسبة والأدوات المناسبة، ثلاثة أمتار وخمسة وسبعون ليست حدا مطلقا.

— نحتاج إلى مرممين في الموقع، قال ليبرون. ليس فقط التعبئة. رجال قادرون على تقييم حالة كل عمل قبل وبعد الإنزال. إذا كان للقماش رفعات للطبقة التصويرية، فلا يُنزل قبل التثبيت. وإلا، نصل إلى باريس ومعنا لوحة تالفة لا يمكننا عرضها وستكون مصدر جدل.

— باربييه يمكنه إرسال اثنين من مرميه، قال ثوين. يوريس الفليمنغ، ورينارد الذي عمل على الروبنز خلال الشتاء. هذه هي الأفضل المتاحة.

— هل يمكنهم المغادرة خلال ستة أسابيع؟ سأل لاكانال.

— إذا سألتهم رسميا، نعم. سيعترض باربييه لأنه يحتاجه في المتحف من أجل العمل الجار. ولكن إذا كان الأمر من اللجنة، فسوف تفعل ذلك.

لاحظ لاكانال مرة أخرى. راقب هاسنفراتز القائمة تطول: مرممون، حباون، نجارون، زنك للصناديق، ورق مناديل ياباني للرسومات، اللبادات الفلمنكية للوحات، حبال من القنب المعالج للربط. عملية بدت أقل فأقل كمهمة ثقافية وأكثر كحملة عسكرية لها احتياجاتها اللوجستية الخاصة، وسلاسل الإمداد الخاصة، ونقاط ضعفها الخاصة.

لم تكن مقارنة سيئة في النهاية.

كان غريغوار هو من طرح السؤال، وطرحه بطريقة أوضحت أنه أعده، ليس بمعنى استفزاز محسوب، بل بطريقة من فكر طويلا في شيء ما وينتظر اللحظة المناسبة لقوله.

— لقد كنا نتحدث منذ ساعتين عن ميلانو، بارما، مودينا، وبولونيا. نحن نتحدث عن الألواح القابلة للنقل، والأبعاد، والأوزان، والصناديق المصممة خصيصا، وتذاكر الألب. كل هذا ضروري. لكن هناك سؤال واحد لم نطرحه وهو الوحيد الذي يهم. هل سنذهب إلى روما؟

لم يجب أحد. وضع لاكانال قلمه.

— القرار ينتمي إلى الديركتوار.

— أنا لا أتحدث عن القرار العسكري. أنا أتحدث عن قرار المبدأ. هل لدى المفوضية الإيطالية تفويض للذهاب إلى روما أم أنها ستتوقف في بولونيا؟

قال ليبرون: التفويض هو إيطاليا. روما في إيطاليا.

— روما ضمن الولايات البابوية. وهذا يختلف عن دوقية خاضعة بالقوة العسكرية. البابا هو حاكم روحي له سلطة على الكاثوليك في جميع أنحاء أوروبا، بما في ذلك فرنسا. مهاجمة روما هي مهاجمة شيء يتجاوز السياسة الإيطالية.

قال بيرثوليه: الديركتوار ليس حساسا للحجج الدينية.

— ربما يكون الديركتوار حساسا للنقاش السياسي. كان مئة ألف جندي فرنسي من الكاثوليك. عائلاتهم كاثوليكية. مصادرة كنوز الفاتيكان هو فعل لم يجرؤ روبسبير نفسه على القيام به.

قال دينون: لم يكن لدى روبسبير جيش في إيطاليا.

أومأ غريغوار، ليس ليوافق على النقطة، بل ليظهر أنه سمعها.

— أنا لا أقول إنه لا ينبغي للمرء أن يذهب إلى روما. أقول إنه يجب أن نعرف ما الذي سنفعله هناك قبل أن نذهب. لأن روما تطرح مشاكل لا تطرحها ميلانو وبارما وموديا.

— أي من؟ سأل مونج.

III— مسألة روما

— نأخذ ما يمكن نقله كما هو الحال في كل مكان.

— نعم. لكن ما ينقل إلى روما ليس أفضل ما في روما. أفضل ما في روما في الجدران، في القباب، في الأسقف. يتم نقل أبولو من بلفيدير. إنه تمثال قديم على قاعدة، يبلغ ارتفاعه مترين وعشرين سنتيمترا، من رخام باريان، ويقدر وزنه بثمانمائة كيلوغرام. يتم نقل لاوكون. ثلاثة تماثيل من الرخام، مجموعة منحوتة، أبعاد أكثر تعقيدا، لكنها ممكنة. مجموعات الفاتيكان من اللوحات نقلت جزئيا. لوحات متحركة لبيناكوتيكا، وبعض المنسوجات لغرفة الغرف. لكن رافائيل بقي في روما. بقي مايكل أنجلو في روما. وما فعله رافائيل في غرفة الغرفة، وما فعله مايكل أنجلو في السيستين هو برتبة أضعاف ما يمكننا استخلاصه.

ـــ ما تصفه، أجاب ليبرون بنفاد صبر طفيف،ـــ هو وضع جميع الجداريات في إيطاليا. تبقى العشاء الأخير في ميلانو. يبقى صعود العذراء في بارما. كنا نعلم هذا منذ البداية. هذا لا يمنعنا من الذهاب.

ـــ لا. لكن هذا يجب أن يمنعنا من التظاهر بأن باريس ستكون المعهد الجديد للبشرية. إذا بقي رافائيل في روما، وإذا بقي ميكل أنجلو في روما، وإذا بقي العشاء الأخير في ميلانو، فإن ما نجمعه في باريس ليس كل الفن الغربي. إنه جزء، جزء كبير، لكنه جزء. ويبدو لي من المهم أن أقول هذا الشيء هنا، قبل أن نغادر، بدلا من اكتشافه بعد ذلك.

في الخارج، تغير ضوء مارس، وتحركت الشمس خلال النهار، وأصبحت الآن تضيء الخرائط المعلقة على الجدران بطريقة مختلفة أعطت خطوط الطرق والبلدات عمقا طفيفا لم يكن موجودا في الصباح.

كان دينون هو من أجاب، وفاجأ هاسنفراتز بدقته.

ـــ أنت محق في ذلك. أنت مخطئ بشأن الخاتمة. باريس لن تكون المتحف العالمي الشامل. هذا ادعاء غير قابل للدفاع والجميع هنا يعلم ذلك. لكن باريس يمكن أن تصبح المكان الذي يوجد فيه أكبر تركيز متاح للأعمال الكبرى في أي وقت. هذا ليس بمثابة امتلاك كل شيء. إنه أن تمتلك ما يكفي ليكون القدوم إلى باريس لا غنى عنه لأي شخص يريد فهم الفن الغربي. وهذا ممكن. حتى بدون رافاييل في الغرفة.

ـــ بقبول أن روما تبقى روما، قال غريغوار.

ـــ بقبول أن روما تبقى روما. نعم. وبتوقف عن التظاهر بأنه يمكن تفريغها.

ـــ بونابرت لن يقبل ذلك بسهولة.

ـــ بونابرت سيقبل ما تفرضه عليه الفيزياء. لم يحاول بعد تحريك لوحة جدارية قطرها اثني عشر مترا. عندما يحاول، سيفهم. أو سيشرح له الوكلاء قبل أن يحاول.

تدخل هاسنفراتز.

ـــ هناك مشكلة ثانية لم يذكرها غريغوار، وربما تكون أكثر خطورة من الأولى. المشكلة الدبلوماسية. ميلانو، بارما، مودينا، بولونيا. هذه مدن تم غزوها عسكريا أو دوقيات خاضعة لهدنة. قانون الحرب واضح في هذه الحالات: المنتصر يفرض الشروط، والمهزوم يطيع. الإطار القانوني مشكوك فيه أخلاقيا، لكنه موجود.

ـــ وروما؟ سأل لاكانال.

ـــ روما مختلفة. البابا هو سيادة ذات شرعية ليست عسكرية أو سياسية فقط. إنه روحي، معترف به من خلال معاهدات دولية قديمة، وقد تم دمجته في العلاقات الدبلوماسية الأوروبية لقرون. إذا تم الاستيلاء على كنوز الفاتيكان بالقوة، فسيتم

وضع سابقة تخص ليس إيطاليا، بل أوروبا كلها. إسبانيا. النمسا. الولايات الكاثوليكية الألمانية. كل الحكام ذوي السيادة الذين لديهم علاقات مع روما سيكون لديهم سبب لمعارضتنا.

— إسبانيا والنمسا بالفعل تعارضاننا، قال بيرثوليه.

— نعم. لكن هناك فرقا بين المعارضة العسكرية والمعارضة الأخلاقية التي تتجاوز الصراع المستمر. إذا عاملنا الفاتيكان كما عاملنا موديا، فإننا نعطي أعدائنا حجة ستنجو من الحرب. بعد عشر سنوات، بعد عشرين عاما، عندما يتم التفاوض على معاهدات السلام، ستكون مسألة الكنوز البابوية مطروحة. وسيكون لدى محامي القوى العدية قضية قوية جدا.

— كان لدى فان رين سجل قوي عن فلاندرز. لم يتغير الكثير.

— كانت فلاندرز منطقة في حالة حرب مباشرة. وضع البابا شيء آخر. روما ليست ميلانو. لا يمكنك الدخول بنفس الطرق.

وضع لاكانال يديه على الطاولة.

— الاستراتيجية الدبلوماسية تعود للديركتوار ولبونابرت. ليس للجنة. دورنا هو تحديد ما نريد أن نأخذه وكيف نأخذه. مسألة ما إذا كان يجب التفاوض مع البابا أو فرض شروط عليه هي مسألة سياسية تتجاوز فهمنا.

— الأمر ليس خارج نطاق أدائنا، اعترض غريغوار. القيمون الفنيون هم من يدخلون المجموعات. هم من يراهم المحافظون. وهم من سيربطهم الرأي الأوروبي بعمليات المصادرة. إذا ذهبت إلى الفاتيكان، فمونج، بيرثوليه ودينون هم من سيفتحون الخزائن الزجاجية ويأخذون الصور الصغيرة والمخطوطات. ليس بونابرت. سيكون بونابرت في مقره يفكر في معركته القادمة. نحن من سنمثل فرنسا في المكتبات والمتاحف البابوية.

— هذا هو الحال بالفعل في ميلانو وبارما، قال ليبرون.

— نعم. لكن في ميلانو، كان الدوق نمساويا ولم يكن السكان معادين بالإجماع. في روما، البابا هو البابا. الوضع غير قابل للمقارنة.

تدخل دينون.

— لدي اقتراح. بالنسبة لروما، الإجراء يختلف عن بقية إيطاليا. لا تصل خلف الجيش وأنت تحمل قوائم وصناديق. دخلت مفاوضات مباشرة مع ممثلي الفاتيكان قبل وصول الجيوش. يمكننا تحديد ما تريد الجمهورية الفرنسية تحقيقه. نقترح تعويضا. ليس ماليا، بل دبلوماسيا. اعتراف بحقوق البابا على أراضيه المتبقية.

ضمان عدم التدخل في الشؤون الكنسية الفرنسية. أشياء يمكن للديركتوار أن يقدمها بتكلفة قليلة، لكنها ذات قيمة لروما.

— الديركتوار لن يقدم شيئا من هذا القبيل، قال بيرثوليه.

— الديركتوار سيقدم ما يوصي به بونابرت. وكان بونابرت عمليا. إذا فهم أن التفاوض مع روما يكلفه أقل من إخضاعها عسكريا — سياسيا ودبلوماسيا وفي الرأي العام الفرنسي والأوروبي — فسوف يتفاوض.

— هل تعتقد أن بونابرت قادر على هذا الحساب؟ سأل غريغوار.

— أعتقد أن بونابرت قادر على كل الحسابات، قال دينون. وهذا ما يجعله غير متوقع. قد يكون الأمر قاسيا وذكيا في نفس اليوم. تمكن من نهب بافيا واقتراح سلام مشرف لتورينو في الأسبوع التالي. يتصرف وفقا لما هو مفيد في اللحظة، وليس وفقا لمبادئ ثابتة. هذا يعني أننا نستطيع التأثير عليه طالما قدمنا له الحجج بالمصطلحات الصحيحة.

— ما هي الشروط الجيدة؟

— الكفاءة. ليس الأخلاق. ليس القانون. الكفاءة. مما يثبت له أن التفاوض مع روما أكثر ربحية من الدخول كمنتصر. من حيث الاستقرار السياسي، والعلاقات الدبلوماسية، والرأي العام في فرنسا حيث لا يزال الكاثوليك يشكلون الأغلبية.

نظر غريغوار إلى دينون باهتمام خاص، الاهتمام الذي يوليه للأشخاص الذين يقولون أشياء صحيحة لأسباب خاطئة، أو أشياء قابلة للنقاش بوضوح يفرض الاحترام.

— أنت ساخر.

— أنا واقعي، قال دينون. هناك فرق.

— أحيانا، قال غريغوار. ليس دائما.

نظر هاسنفراتز إلى خريطة إيطاليا. كانت روما في القاع، في وسط شبه الجزيرة، محاطة بملامح دول البابا. مدينة تسعمائة كيلومتر من ميلانو. مسيرة ستة أسابيع لجيش محمل. وأكثر بكثير لقافلة من الصناديق عبر طرق لم يكن لدى أي شخص في هذه الغرفة تقارير حديثة عن مهندسين عسكريين.

— هناك مشكلة ثالثة. عملي، هذا. الطرق بين لومبارديا وروما. يمر الجزء بين بولونيا وفلورنسا عبر جبال الأبينين، وليس جبال الألب، لكنه يمر بممرات قد تكون صعبة في الخريف وتكون غير معروفة لفرق النقل لدينا. وفلورنس نفسها سؤال مفتوح. كانت دوقية توسكانا الكبرى تحكم من قبل هابسبورغ، وهو ابن عم النمسا. هل سيكون في معسكرنا أم في فيينا؟

— سيكون في صف المنتصر، قال دينون. كالعادة.

— هذا يترك لنا ممرا إلى روما عبر ساحل التيراني أو عبر طريق إميليان. طريقان لا أملك بيانات التحميل لهما. لا أعرف إذا كانوا يستطيعون التعامل مع القوافل الثقيلة. لا أعرف أين الجسور. لا أعرف ما هي قدرة النزل على الطريق لاستيعاب مرافقة عسكرية مكونة من مئة رجل.

— ستحصل على تقارير المهندسين العسكريين بمجرد أن يؤمن بونابرت إقليم رومانيا الإيطالي، قال لاكانال. لا يزال من المبكر جدا حل هذه القضايا.

— من المبكر جدا حلها ومتأخر جدا لعدم البدء في سؤالها. إذا انتظرنا حتى يكون بونابرت في روما لبدء التخطيط لنقل تحف الفاتيكان، سيكون لدينا أسبوعان لتنظيم عملية تتطلب ستة أعمال. هذا ما حدث في فلاندرز في غنت. نفد الوقت وكان ذلك واضحا في النتائج.

أومأ لاكانال بنعم.

— سأطلب من هيئة الأركان العامة التقارير المتاحة عن الطرق بين بولونيا وروما. بمجرد أن أحصل عليها، ستحصل عليها.

— وماذا عن توسكانا؟ سأل مونج. تمتلك فلورنسا مجموعات كبيرة. جمع الميديتشي على مدى قرنين ما يعتبر ربما أكبر مجموعة في إيطاليا بعد الفاتيكان. الأوفيزي. قصر بيتي. لا تريبونا مع منحوتات قديمة.

— سيتم التعامل مع فلورنس بشكل منفصل. اعتمادا على تطور الوضع العسكري. في الوقت الحالي، دعونا نركز على ما هو مؤكد. ميلانو، بارما، مودينا، بولونيا. الباقي سيأتي في الوقت المناسب.

— وروما؟ سأل غريغوار.

— روما ستأتي إذا ذهب بونابرت. وبونابرت سيذهب إذا سمح له الديركتوار. وسيسمح له الديركتوار بذلك إذا سمحت الظروف السياسية. إنها سلسلة من الشروط.

— سلسلة تؤدي إلى الفاتيكان.

— ربما.

انتهى الاجتماع في الساعة الخامسة مساء. تسع ساعات من النقاش. لم يكن هاسنفراتز يحتسب، لكنه شعر بالوقت في كتفيه وفي عينيه، ذلك التعب من أيام يفكر فيها المرء كثيرا دون أن يتحرك. كان الآخرون يجمعون أوراقهم بإيماءات بطيئة من الرجال الذين قدموا ما لديهم ليقدموه لهذا اليوم ولم يتبق لديهم الكثير في الاحتياط.

لف ليبرون أوراقه بعناية، وربطها، وأدخلها في حقيبة جلدها. أغلق ثوين سجله ووضعه في حقيبته بدقة معتادة، نفس الإيماءة التي رآه هاسنفراتز يقوم بها في غنت،

في أنتويرب، في فالنسيا، في جميع مراحل البعثة الفلمنكية، كما لو أن طريقة ترتيب ملاحظاته كانت شكلا من أشكال الاستمرارية بين البعثات، خيط من الطرق يعبر السنين والأماكن المختلفة.

خرج بيرثوليه ومونج معا، مستمرين بصوت منخفض في حديث بدأ خلال الاجتماع حول مسألة فيزياء المواد، وخصائص اللباد كعازل حراري مقارنة بتلك الخاصة بالصوف المصقوط، وهو موضوع كان سيبدو سخيفا في أي سياق آخر وكان ذا صلة في هذا السياق.

بقي غريغوار جالسا للحظة بعد أن نهض الآخرون. نظر إلى خريطة إيطاليا، التي لم يقم أحد بإزالتها، وستبقى هناك حتى الاجتماع التالي، والدبابيس تحدد المدن كنقاط كوكبة لم يعثر عليها بعد. رأى هاسنفراتز ذلك من زاوية عينه وهو يغلق أزرار معطفه. كان هناك صمت من غريغوار طلب أن يترك وشأنه.

توقف للحظة في الفتحة. لم يتحرك غريغوار. ظل ينظر إلى الدبابيس على الخريطة، تلك النقاط المعدنية الصغيرة المدمجة في الورق كما لو أن الأعلام زرعت في مدن حقيقية، وهذا بالضبط ما كنا نفعله. ظن هاسنفراتز أنه ربما كان سيبقى، وربما كان لدى غريغوار ما يقوله الآخرون بنفس الطريقة. ثم سمع دينون في الممر ومرت اللحظة، كما تمر هذه الأشياء عندما تغادرها.

انتظر دينون هاسنفراتز في الممر.

— هل لديك لحظة؟

— للحظة، نعم.

نزلا معا. في الشارع، اشتدت قوة برد مارس منذ الصباح، عاصفة جاءت من الشرق، جافة ومباشرة، جعلت لافتات المحلات تهتز وتجبر المارة على خفض رؤوسهم. ساروا للحظة دون أن يتكلما، جنبا إلى جنب، بوتيرة متناغمة طبيعية دون الحاجة لاتخاذ قرار.

— أردت أن أتحدث إليك عن بونابرت، قال دينون.

— كنت أشك في ذلك.

— أنت لم تلتقِ به أبدا.

— لا.

— قابلته مرتين. مرة في باريس في يناير، ومرة في نيس في فبراير عندما تولى القيادة. هو ليس رجلا يمكن وصفه في جملة واحدة. لكن هناك شيء واحد يجب أن تعرفه عن العمل معه: هو لا يحتمل أن يناقض في العلن. في الخفاء، يستمع إلى

الاعتراضات إذا صيغت بدقة وإذا كان الشخص الآخر يعرف عما يتحدث. في العلن، أمام ضباطه أو أمام السلطات المحلية، أدنى مقاومة لا تحتمل بالنسبة له.

— ما تصفه يمثل مشكلة لنا إذا كانت أوقات التعبئة تتعارض مع جداوله العسكرية.

— هذه هي المشكلة. البند الذي حصل عليه مونج في التعليمات — الحق في رفض مغادرة القافلة إذا لم يكن التغليف مرضيا — كان حقيقيا على الورق. عمليا، إذا أراد بونابرت مغادرة الخزائن صباح الغد وأبلغ أن الأمر سيستغرق ثلاثة أيام أخرى، فلن يكون البند ذا قيمة إذا طعن فيه أمام جنرالاته.

— فكيف نتابع إذا؟

— لا يناقش أبدا أمام جنرالاته. نحصل على وصول مباشر. كان يتحدث إليه بمفرده أو مع محاوره موثوق، ربما بيرتييه، رئيس موظفيه، الذي كان رجلا عاقلا ويفهم الأمور اللوجستية. تعرض المشاكل كقضايا تقنية لها حلول تقنية، وليس كرفض. ونحن دائما نعطيه شيئا. إذا قيل له أننا بحاجة إلى ثلاثة أيام أخرى للوحات كوريجيو، يقال له في نفس الوقت أن لوحات بروغل ستغادر غدا كما هو مخطط. يقبل التأخير الجزئي بسهولة أكبر من الموعد النهائي العالمي.

فكر هاسنفراتز للحظة.

— هل فعلت ذلك من قبل؟ هل تتعامل مع هذا النوع من الرجال؟

ابتسم دينون للحظة.

— كنت دبلوماسيا في نابولي تحت النظام القديم. عملت مع فرديناند الرابع، الذي كان غير متوقع بطريقة مختلفة عن بونابرت، لكنه كان صعب الإدارة يوميا بنفس القدر. وقضيت ثلاث سنوات في إيطاليا أتنقل بين بلاطات الدوقيات المختلفة، كل منها بقواعده غير المكتوبة، وحساسياته، ومناطقه الرمادية. ليس مثل بونابرت، لكنه يعطي ردود فعل مفيدة.

— غريغوار سيسبب مشاكل.

— غريغوار يطرح الأسئلة، الأمر ليس نفس الشيء. يحترم بونابرت الأشخاص الذين يطرحون أسئلة محددة حول مواضيع لم يتقنها. ما لا يحترمه هو العرقلة الأخلاقية. الرفض من حيث المبدأ دون اقتراح بديل. يميل غريغوار إلى التوقف عند المشكلة دون اقتراح حل. إذا تمكن من تعليمه صياغة اعتراضاته من منظور حلول بديلة بدلا من مبادئ مجردة، فسيكون مفيدا. وإلا فسيتم تهميشه.

— غريغوار لن يغير أسلوبه في الكلام لإرضاء بونابرت.

— لا. لكن ربما لن يتحدث إلى بونابرت. ربما سيتحدث إلى مونج أو إليك، وستكون أنت أو مونج من يعيدان صياغة الصياغة لبونابرت.

نظر هاسنفراتز في هذا الاقتراح. كان عمليا إلى حد التشكيك، محولا غريغوار إلى صوت منقول ومصفى، مترجم إلى لغة يسمعها بونابرت. لم تكن هذه الاستراتيجية خاطئة. لكن هذا كان لتقليل دور غريغوار إلى أنه لم يقبله.

— سنرى هناك.

— سنرى هناك، نعم. هذا عادة ما نقوله عندما لا نعرف ولا نرغب في الاعتراف به.

— هذا ما يقال عادة عندما يكون المرء على حق في عدم اتخاذ القرار مسبقا ما لا يمكنه أن يقرره مسبقا.

توقفوا عند مفترق طرق. انعطف دينون إلى اليمين، كان يعيش في ذلك الجانب باتجاه قصر الملك. انعطف هاسنفراتز إلى اليسار.

— شيء أخير، قال دينون. ما قلته عن المواعيد النهائية. عن فلاندرز وما حدث عندما نفد الوقت. كانت صياغتها جيدة وصحيحة. استمر في صياغة الأمور بهذه الطريقة، من حيث العواقب الملموسة، وليس من حيث المبادئ. إنها اللغة الوحيدة التي ستنجح معه.

— أنا معتاد على صياغة الأمور من حيث العواقب الملموسة. إنه تدريبي.

— أعلم. لهذا أردت التحدث إليك.

عاد هاسنفراتز سيرا على الأقدام إلى مدرسة المناجم. استغرق منه ثلاثة أرباع ساعة، كان يسلك هذا الطريق كثيرا، بدافع العادة ولأن المشي يسمح له بالتفكير دون أن يقاطع.

ترك غريغوار وحيدا أمام الخريطة بعد الاجتماع. راقبه هاسنفراتز للحظة من الممر قبل أن يغادر. إيطاليا ستكون مختلفة عن فلاندرز في كل جانب تقريبا: المسافات، التجمعات، التعقيد الدبلوماسي. بونابرت بدلا من داود. أفضل لأنه يفهم اللوجستيات، وأكثر صعوبة لأن إرادته كانت تحمل قوة من الجمود لا يمكن لأي شيء في اللجنة أن يعيقها.

عند دخوله مكتبه، وجد على طاولته رسالتين وصلتا خلال النهار. واحدة منها جاءت من ثوين، وهي ملاحظة كتبت هذا الصباح قبل الاجتماع، تشير إلى أن مخزون اللباد الفلمنكي في المتحف غير كاف لتلبية احتياجات البعثة الإيطالية، وأنه يجب تقديم طلب في غنت قبل نهاية الشهر إذا كان من المقرر استلامها في الوقت المناسب. أما التقرير الآخر فجاء من هيئة الأركان العامة، وهو تقرير أولي عن الطرق المؤدية إلى بيدمونت ولومبارديا، أعده المهندسون الذين استطلعوا الأرض استعدادا

للحملة. أربعون صفحة من البيانات عن عرض الطرق، وسعة تحميل الجسور، والأبعاد القصوى التي يمكن المرور بها بواسطة العربات المحملة بالأثقال.

جلس، أشعل مصباحه، وفتح تقرير هيئة الأركان العامة.

كانت طرق لومبارديا أفضل مما كان يخشى. لكن التقرير توقف عند لومباردي وبييمونت. إقليم رومانيا الإيطالي، أومبريا، لاتسيو ظلت مناطق رمادية. تم التخطيط في الظلام لكل شيء جنوب بولونيا.

التقط ورقة وبدأ يكتب الأسئلة التي لم تجب لها. جسور فوق الأبينين. الطرق بين بولونيا وفلورنسا. النجارون في بارما وموديا. يمر المسار الإيطالي السهل / الألبي بفرق الحرارة للألواح الخشبية.

كتب لمدة ساعة، وحيدا في مكتبه، تحت ضوء مصباحه، بينما بدأت باريس تظلم وتهدأ تدريجيا من حوله. في لحظة توقف، وضع قلمه، ووقف للحظة دون أن يكتب أو يفكر في شيء محدد، فقط مدركا للصمت، للمصباح، للنافذة السوداء التي خلفها ليلة مارس.

ربما بعد ستة أسابيع، سيعبر بونابرت جبال الألب.

في غضون ثمانية أسابيع، إذا سارت الحملة بسرعة، سيتم الاستيلاء على ميلان.

خلال عشرة أسابيع، سيدخل أول المفوضين إلى بيناكوتيكا أمبروزيانا.

وكان سيكون في مكان ما بين باريس وميلانو.

أخذ قلمه مرة أخرى وأكمل قائمته. في نفس اليوم، في نيس، على بعد تسعمائة كيلومتر إلى الجنوب، تولى الجنرال بونابرت قيادة جيش إيطاليا.

IV— يتولى بونابرت القيادة

نيس، 31 مارس 1796

وصل إلى نيس عبر طريق جبلي استغرق الرسل يومين للسفر إليه من باريس. كان الحصان متعبا. لم يبدو كذلك. الجنرال شيرير، الذي حل محله للتو على رأس جيش إيطاليا، سلم له القيادة خلال ساعتين: التقارير، تقارير القوات، الخرائط، تقارير المهندسين عن مواقع العدو. كان شيرير رجلا حكيما، منهكا من حملة لم تؤد إلى شيء لمدة ثمانية عشر شهرا. نظر إلى هذا الخليفة البالغ من العمر ستة وعشرين عاما بنظرة ليست ازدراء تماما، لكنها قريبة منه. الشك في رجل محترف لرجل لم يثبت بعد قيمته.

أخذ بونابرت الخرائط وأخرج شيرير.

قضى الليل يدرس الأرض. ليست تقارير مشاة، بل خرائط. خطوط التضاريس. الممرات الجبلية. الأنهار. الطرق بين مواقع بيدمونت والنمساويين. كان يبحث عن هدف محدد: النقطة التي يلتقي فيها جيشا العدو، التقاطع بينهما، المكان الدقيق الذي يمكن فيه الضغط الكافي أن يفصلهما عن بعضهما قبل أن تتاح لهما الفرصة لتعزيز بعضهما البعض. وجده حوالي الساعة الثالثة صباحا. كان بالقرب من مونتينوت، في جبال الأبنين الليغورية، حيث شكلت المواقع النمساوية ضعفا جانبيا لم يستغلها أحد لأن أحدا لم يسع للهجوم لمدة ستة عشر شهرا.

في صباح اليوم التالي استدعى جنرالاته من الفرقة.

أوجيرو، وحشية جسدية أسطورية، عشرين حملة خلفه. رجل يحمل عنفه كما يحمل الآخرون رتبهم. ماسينا، مهرب من نيس أصبح جنديا، لديه حدس تكتيكي أربك رؤسائه. سيروربيه، الأرستقراطي الذي تحول إلى جنرال جمهوري. بدون عبقرية ولكن بموثوقية مطلقة. لا هارب، سويسري في خدمة فرنسا، ضابط تقليدي يحمل صلابة الكتب.

دخلوا الغرفة حيث كان بونابرت ينتظرهم، واقفين أمام الخريطة المنشورة على الطاولة.

نظروا إليه. ما رأوه: رجل قصير القامة، طوله متر واحد وثمانية وستين، وهو لم يكن استثنائيا، لكنه جعله يبدو أقصر مما هو عليه لأنه كان نحيفا، شبه نحيف، بدون الكتلة الجسدية التي منحت أوجيرو سلطته الطبيعية. وجه زاوي، بشرة رمادية صفراء لشخص ينام قليلا ويأكل بشكل غير منتظم، شعر طويل مسطح مربوط بلا مبالاة في ذيل على مؤخرة الرقبة. عيون رمادية تنظر إلى الخريطة وليس إلى جنرالاتها، كما لو أن الخريطة هي الشيء المهم وهم تعقيد ثانوي.

تحدث دون مقدمة.

— هذه هي وضعنا. كان البييمونتيون يسيطرون على خط الحافة في جبال الأبينين من سيفا إلى ميليسيمو. غطى النمساويون جناحهم الأيمن من مونتينوت إلى ديغو. في المنتصف، هناك مساحة هنا. ليس واسعا. ربما دورين فقط. لكن كفى. إذا ضربت ذلك المكان بقوة كافية وسرعة كافية، ستقطع الاتصال بينهما. وبعد ذلك يهزمون واحدا تلو الآخر.

تدخل سيروربيه بحذر، بنبرة من يثير اعتراضا على المبدأ بدلا من المقاومة الحقيقية.

— جنرال، أعدادنا ثمانية وثلاثون ألفا. يمثل البييمونتيون والنمساويون معا سبعين ألف رجل. الهجوم يفترض تركيزا على نقطة تترك أجنحتنا مكشوفة.

— هذا هو الخطر. أقبل ذلك لأن خطر عدم الهجوم أكبر. جيش لا يأكل، لا يتقاضى أجرا، يهرب بالمئات كل أسبوع، لن يوجد خلال شهرين. نهاجم الآن أو لا نهاجم أبدا.

كان ماسينا ينظر إلى الخريطة. لم يقل شيئا، لكن بونابرت رأى أنه تمسك بشيء، وأنه تعرف على شيء في هذه الخطة، منطق يتوافق مع طريقته في قراءة التضاريس.

— يجب أن نمتلك السرعة، قال بونابرت. هذه هي الميزة الوحيدة التي لدينا عليها. هم أكثر عددا منا، لكنهم على خط يبلغ ستين كيلومترا. نحن مركزون. إذا تحركنا أسرع مما توقعوا، يمكننا ضرب مونتينوت قبل أن يتمكن البييمونتيون من ميليزيمو من تعزيز النمساويين. ثم نلتفت. ثلاثة أيام للنمساويين. يومين من المشي. يومان للبييمونتيين. الأمر ممكن.

هز أوجيرو رأسه.

— الرجال يعانون من الجوع منذ شهر. فقدت بعض الشركات ثلث أفراد عملها بسبب الهروب من الخدمة. يطلب منهم السير ليلا والقتال في صباح اليوم التالي.

— يطلب منهم الفوز. الأمر ليس نفسه. عندما نخبرهم أننا ذاهبون إلى سهل لومبارد، وأن هناك مؤن ومال ومناصب يجب أخذها، يسيرون. الرجال يمشون عندما يفهمون ما يسيرون نحوه.

نظر إلى كل واحد منهم بسرعة، كما لو كان يقيم شيئا في كل وجه.

— بعد عشرة أيام. 10 أبريل. هل لديكم أسئلة؟

لم تكن هناك أي أسئلة. ليس لأن الجنرالات اقتنعوا—لم يكونوا مقتنعين بعد—بل لأن هناك شيئا في طريقة بونابرت في التعبير عن نفسه جعل الأسئلة صعبة الصياغة. لا غطرسة، لا تعالي: فقط يقين في الصوت يعطي الانطباع بأن الشكوك مشاكل حلت بالفعل وليست عقبات حقيقية.

انصرفوا.

في الأيام العشرة التالية، لم ينام بونابرت أكثر من أربع ساعات في الليلة. زار كل فرقة بنفسه، وليس الموظفين، بل الرجال. دخل المعسكرات بشكل غير متوقع، في أي وقت، ونظر إلى حالة الأسلحة، وحالة الأحذية، وطرح أسئلة على ضباط الصف. ما كان يبحث عنه لم يكن نظاما بالمعنى الرسمي، بل شيئا أصعب في القياس: كان يحاول معرفة ما يفكر فيه الرجال، إلى أي مدى يمكنهم الذهاب، ما الذي ينقصه ويمكن إصلاحه في عشرة أيام وما الذي لا يكون.

ما لم يكن بالإمكان إصلاحه: المدفعية موزعة في بطاريات صغيرة على جبهة واسعة جدا. فجمعها. تجمعت تسع بطاريات في ثلاثة مواقع بدلا من أن تتوزع على مدى ستين كيلومترا، وهو قرار يتعارض مع العقيدة السائدة، لكنه كان يتوافق مع ما فهمه من التضاريس. المدفعية المركزة في نقطة واحدة تخلق ضغطا لا يمكن لأي خط دفاعي منظم على السطح امتصاصه.

ما لم يكن بالإمكان إصلاحه في عشرة أيام: الجوع. الزي الرسمي. الأحذية. كان لدى هاسنفراتز في باريس قوائم بالمشاكل اللوجستية؛ كان لدى بونابرت في نيس رجال حفاة القدمين ينظرون إلى الأبينين وهم يعلمون أنهم سيضطرون لتجاوزها. وعدهم بسهل اللومبارد. قال لهم إن النصر أقرب من الهزيمة.

قالها بقناعة شعر بها حقا أنه لم يكن خطابة قائد، بل يقينا داخليا، مبنيا على تحليل التضاريس ومواقع العدو بدلا من تفاؤل مبدئي. خطته قد تنجح: لقد حسب كل خطوة ولم يجد ثغرات.

في 10 أبريل 1796، عند الفجر، بدأ الهجوم.

اتخذت فرقة ماسينا موقعها على حافة جبال الأبينين قبل أن يفهم النمساويون بقيادة الجنرال بوليو ما يحدث.

ستة آلاف فرنسي ضد ألفي نمساوي، على جبهة ضيقة أعدتها المدفعية في البطاريات الضخمة. في غضون ثلاث ساعات، تم كسر الجناح النمساوي. تراجع بوليو شرقا نحو ديغو.

في 13 أبريل، ضرب أوجيرو البييمونتيين من وادي بورميدا، مهاجما مباشرة من الغرب بينما تجاوزت ماسينا من الشمال. صمد البييمونتيون لمدة ساعتين ثم انسحبوا في فوضى نحو سيفا. أسر أوجيرو ألفي أسير، من بينهم الجنرال بروفيرا.

في 14 أبريل، حاول بوليو، بعد أن أعاد تجميع قواته، إعادة الاتصال مع البييمونتيين في ديغو. ضربه بونابرت هناك قبل أن ينتهيا من إعادة التجمع. تم صد هجومين، والثالث حاسم. ترك النمساويون خمسمائة قتيل وتراجعوا نحو أكوي.

انقطع الاتصال بين الجيشين العدوين.

توجه بونابرت نحو البييمونتيين. موندوفي، 22 أبريل. كان الطريق إلى تورينو مفتوحا. فهم فيكتور أماديوس الثالث أنه لم يعد قادرا على الصمود.

تم توقيع هدنة تشيراسكو في 28 أبريل 1796. بعد ثمانية عشر يوما من بدء الهجوم. تنازلت بيدمونت عن نيس وسافوي لفرنسا، وفتحت حصونها للقوات الفرنسية، وغادرت التحالف. اتفاقية عسكرية بحتة، بدون بند ثقافي. احتفظ بونابرت

بالمتطلبات الفنية للوقت اللاحق، للأراضي الأغنى، التي كانت مجموعاتها تستحق أن تعرف بالاسم في معاهدة بدلا من أن تصادرها في فوضى هدنة الهزيمة.

في باريس، تلقى الديركتوار الخبر بمفاجأة لم تكن مصطنعة. تم إرسال جنرال مجهول لقيادة جيش من المتسولين في جبال مستحيلة. في ثمانية عشر يوما، فصل جيشين من العدو، وأخرج بيدمونت من الحرب.

تراجع النمساويون نحو لومبارديا. تبعهم بونابرت دون أن يمنحهم وقتا لإعادة التشكيلة، وكان هذا هو المبدأ الذي طبقه: لا تعطي الخصم وقتا للتعافي بين ضربتين. السرعة كسلاح رئيسي، والحركة كشكل من أشكال الضغط لا تقل فعالية عن القوة الغاشمة.

في 10 مايو، احتفظ النمساويون بجسر لودي فوق نهر أدا.

كان جسرا حجريا، طوله مئتان وثلاثون مترا، وعرضه عشرة مترا. في الطرف الآخر، كان أربعة عشر ألف نمساوي يحملون ثلاثين مدفعا في البطارية يوجهون محور الجسر. لم يعد بيوليو هناك، فقد تراجع نحو مانتوا، لكن الجنرال سيبوتندورف وضع كل ما لديه لتغطية الانسحاب.

تقدم بونابرت بمدفعيته. عشرون مدفعا في البطارية على الضفة اليسرى، في مبارزة مع ثلاثين مدفعا نمساويا على الضفة اليمنى. استمر القصف ثلاث ساعات. لم تستطع أي من المدفعية إسكات الآخر.

أمر بشن هجوم على الجسر.

كان ماسينا هو من قاد عمود الغرينادير النخبة، ستمائة رجل في عمود بعرض أربعة رجال، ركضوا على الجسر تحت نيران البطارية النمساوية. سقط الصفوف الأولى. تجدد العمود على نفسه واستمر. وقد قدر لاحقا أن نيران النمساويين قتلت أو أصابت مئتي رجل في أقل من ثماني دقائق. وصل الناجون إلى الضفة اليمنى، وتطوقوا بالبطاريات، وفتحوا ثغرة اندفع إليها الفرسان.

انسحب النمساويون.

ظل بونابرت على الجسر بعد المعركة. كان الجرحى لا يزالون هناك، في المواقع التي سقطوا فيها، بعضهم على الحواجز، وبعضهم في الفجوات بين الحجارة، وبعضهم في النهر أدناه. رائحة البارود لم تختف بعد. كانت المدافع النمساوية المهجورة لا تزال تتصاعد الدخان في الهواء المسائي.

عادت إليه فكرة قديمة، من أيام أوكسون الأولى، عندما كان لا يزال ملازما في المدفعية والتهم قيصر وأسكندر، متسائلا عما إذا كانت المعارك الكبرى تشبه حقا ما كتب عنها، أم أن المؤرخين رتبوا واقعا أكثر ارتباكا ووحشية بعد ذلك.

كان يعتقد الآن أن كلا الأمرين صحيحان في نفس الوقت. وأن الحرب كانت مشوشة ووحشية، وأن شيئا أكبر من الارتباك لا يزال يحدث هناك. شيء لم ير من الداخل، لكن الرجال الذين مروا به تعرفوا عليه فيما قرأوه.

كان جنوده يطلقون عليه لقب العريف الصغير منذ لودي، ليس بدافع السخرية، بل بدافع المودة، وبتلك الطريقة التي يختزل بها الجنود ما يتجاوزهم إلى بعد مألوف. لم يكن عريفهم. لكنه فهم معنى اللقب: أنه كان على الجسر معهم، وليس خلفهم.

في 15 مايو 1796، دخل ميلانو.

امتدت المدينة إلى السهل اللومباردي ككتلة كثيفة من أبراج الجرس والأسقف المبلطة، محاطة بأسوار إسبانية من القرن السادس عشر لم يحافظ عليها أحد منذ قرن، والتي كانت تنهار في أماكن تحت وزنه.

مئتا ألف نسمة، وهي أكثر المدن سكانا في شمال إيطاليا بعد تورينو، مركز التجارة والحرير والتصنيع اللومباردي. قرنان من الهيمنة النمساوية كانت تميزت بالحجر بقدر ما في العادات: قصور فناء بورتا رومانا المبنية وفقا لنماذج فيينا، وشعار هابسبورغ على واجهات المباني الرسمية التي لم يكن لدى أحد وقت لإزالتها بعد. وزي ضباط الحامية الأبيض، الذي استبدل الآن بالأزرق للجيش الفرنسي.

رحب جزء من السكان بالفرنسيين بحماس بدا وكأنه حماس. الوطنيون اللومبارديون الذين كانوا يقرؤون الصحف الثورية منذ عام 1789 ورأوا في مدخل بونابرت بداية التحرر من نير النمسا.

راقب آخرون من نوافذهم بحياد حذر كأشخاص تعلموا مرارا أن المحررين يشبهون المحتلين بمجرد استقرارهم. أما الأكثر وعيا من الفئتين فكانوا سيدركون بسرعة أن واقع الاحتلال الفرنسي لم يكن مختلفا كثيرا عن واقع الاحتلال النمساوي من حيث المساهمات والطلبات وإدارة القرارات المتخذة في أماكن أخرى.

استقر بونابرت في قصر سيربيلوني، في كورسو دي بورتا أورينتالي، وهو مقر إقامة نبيلي من القرن السابق كانت غرفه العالية والباردة مناسبة كمقر رئيسي. استدعى بيرتييه، رئيس أركانه، ونظم في يومين ما فشل شيرير في تنظيمه خلال ثمانية عشر شهرا: إدارة عسكرية للمدينة المحتلة تعمل، تفرض مساهمات محسوبة، تصادر بطريقة واضحة بما يكفي لتكون مخيفة ومنظمة بما يكفي لتجنب النهب الفوضوي الذي لم يرغب فيه بونابرت. ليس بدافع الضمير الأخلاقي، بل لأن النهب الفوضوي يدمر الانضباط، والانضباط هو ما يميز الجيش عن العصابة.

خمسة عشر مليون فرنك من مساهمة الحرب، تدفع نقدا خلال خمسة عشر يوما. مصادرة المؤن لمئة ألف رجل لمدة ثلاثين يوما. مصادرة الخيول والعربات

للمراقبة. تعيين مفوضين فرنسيين للإشراف على السلطات البلدية. كل هذا في ثمان وأربعين ساعة.

وأعمال فنية.

في 17 مايو، أملي على بيرتييه رسالة للديركتوار. كانت الجملة المركزية موجزة ودقيقة: «سنحصل قريبا على كل ما هو جميل في إيطاليا، باستثناء بعض الأشياء الموجودة في تورينو ونابولي.» لم يكن وعدا غامضا، بل كان برنامجا. كان لديه وقت، خلال أسابيع الحملة، للتفكير في ما سيحققه النصر بعد الهدنة. كانت اللوحات والتماثيل ذات قيمة سياسية لم يكن لدى المال: كانت مرئية، ونقلت إلى باريس، وعرضت في متحف كان يشاهدها ألفا شخص يوميا ويفهمون دون أن يشرحوا أن فرنسا أصبحت منذ ذلك الحين مركز واقع يتجاوز القوة العسكرية.

قرأ ليبرون: القوائم التي أعدها المفوض في باريس. كان يعرف الأسماء: *مخطوطة أتلانتيكوس*، لوحات بروغل في أمبروزيانا، ولوحات كوريغيو من بارما. ليس بتفاصيل متخصص، بل بتفاصيل رجل فهم ما تمثله هذه الأسماء سياسيا ورمزيا. طلب من دينون أن يكتب له عن ما هو موجود في ميلانو. أجاب دينون بدقة.

في 19 مايو، وصل مونج وبيرثوليه وثوين إلى ميلانو من باريس، مع ملفاتهم، وأدوات القياس، ومواصفات الصناديق. كان هاسنفراتز قد سبقهم في اليوم السابق، قادما من الشمال عبر طريق سيمبلون. كانت اللجنة موجودة.

V — ميلانو: الجرد

ميلانو، 19 مايو 1796

استقبلها بونابرت في مكتبه في قصر سيربيلوني — حيث كان قصر سفورزيسكو، الأكثر سهولة للعربات، ليستوعب الصناديق — واقفا أمام خريطة لومبارديا التي تم تعليق المدن عليها: بارما، مودينا، بولونيا، فيرارا. ليس المسافات. المجموعات.

وصل مونج، بيرثوليه، وثوين معا في الساعة العاشرة صباحا. دخل هاسنفراتز في اليوم السابق متأخرا بثلاثة أيام بسبب كسر في المحور في فارينا، على شاطئ بحيرة كومو. كان هناك أيضا، واقفا بجانب النافذة مع دفتر ملاحظاته، وملاحظات الرحلة لا تزال طازجة في الصفحات. انضم إليهم دينون بعد خمس دقائق.

لم يجعلهم بونابرت ينتظرون. كان يقرأ شيئا وضعه جانبا عندما دخلوا.

نظر إليهم دون أن يتكلم.

— سادة. أنتم تعرفون مهمتكم. سأشرح لكم طريقتي في النظر للأمور، وستشيرون إليّ إلى أي عقبة قد أكون أهملتها.

دار حول المكتب، واقترب من الخريطة.

— الجيش سيغادر خلال خمسة عشر يوما. مانتوفا محاصرة. سيحاول النمساويون فك الحصار عنها. هذه هي خيارهم الاستراتيجي الوحيد في هذه المرحلة. عندما يهاجمون، سأحتاج إلى كل فرقي. لا أستطيع ترك القوات في ميلانو لمرافقة قوافل الأعمال الفنية بينما أقاتل على نهر أديجي. لذا تغادر القافلة القادمة من ميلانو خلال خمسة عشر يوما أو تنتظر الخريف. والخريف هو ثلوج الممرات الجبلية ومخاطر على الأعمال التي لن ترغب في خوضها.

قال هاسنفراتز: خمسة عشر يوما لجرد ميلانو، لتجهيزها وتحميلها. هذا ممكن طالما أن التغليف بسيط. إذا كنت تريد الصناديق المعززة ذات الجدران الثلاثية التي خططت لها للألواح الخشبية والمخطوطات، فالأمر يستغرق على الأقل عشرة أيام للصناديق الرئيسية فقط.

— ثم نعمل على الصناديق الرئيسية أولا والبقية بالتوازي. هل لديك نجارون هنا؟

— حددت ورشة عمل عبر بروليتو، قال ثوين. نجار ماهر يعمل لصالح عائلات ميلانو الكبرى. رأيته أمس. هو يفهم ما يطلب منه ولديه الحطب الجاف اللازم في المخزون.

— ممتاز. لذا التغليف ليس هو المشكلة. المشكلة هي المخزون. كم من الوقت؟

— بالنسبة للأمبروسيانا وحدها، ثلاثة أيام على الأقل، قال مونج. هناك مئات القطع. لا يمكنك تحديد الأولويات دون أن تكون قد رأيت كل شيء مرة واحدة على الأقل.

— ثلاثة أيام للأمبروسيانا، ويومان للكنائس الكبرى، ويوم واحد للاحتياطيات الدوقية. ستة أيام من الجرد. تسعة أيام من التعبئة المتوازية ابتداء من اليوم الثاني. هذا يدخل ضمن خمسة عشر يوما.

تحدث وهو يرسم خطوطا على الخريطة، يحسب التأخيرات والمسافات والقيود، بنفس الطريقة التي يختزل بها المشكلات المعقدة إلى متغيراتها الأساسية ويستخلص استنتاجا يبدو بسيطا بعد الحدوث دون أن يكون كذلك من قبل.

— ما أريده من أمبروزيانا: *كودكس أتلانتيكوس* كأولوية مطلقة. اثنا عشر مجلدا من المخطوطات. كتب لي دينون عن ذلك في يناير وقرأت ما أرسله لي. إنها أهم جائزة في ميلانو، وربما في الحملة بأكملها. البروغل، سلسلة العناصر *والعذراء مع الإكليل*. كارافاجيو إذا كان فعلا طبيعة صامتة بيده. بالنسبة للقطع الأخرى، تختارها، فهي مجالك، ليست مجالي.

قال دينون: *كودكس أتلانتيكوس* سيشكل مشكلة مع أمين المتحف. كان لدي معلومات عن أرجيلاتي. هو رجل مبدأ، وليس رجل تساهل. سيقاوم.

— سيقاوم ضمن حدود ما تسمح به الهدنة. تنص الهدنة على تسليم الأعمال الفنية. إذا رفض التعاون، حذرني وسأرسل بيرتييه إليه. يجب أن يكون ذلك كافيا.

— وماذا عن الجداريات؟ سأل غريغوار.

التفت بونابرت إليه.

— العشاء الأخير لليوناردو دافنشي في سانتا ماريا ديلي غراتسي. رسم جداريات. غير قابل للنقل. أعلم. سألت مهندسين عسكريين إذا كان بإمكاننا قطع الجدار وقالوا لا. الجدار الحامل سينهار والطلاء معه. حتى لا نلمس العشاء الأخير. وقد أشير في التقرير المقدم إلى الديركتوار إلى أن هذا العمل لا يمكن نقله. هذا كل ما يمكننا فعله.

— وإذا حدث نفس الوضع في روما، في كنيسة سيستين، وغرف رافائيل؟

— سنجيب في روما عندما نكون في روما. في الوقت الحالي نحن في ميلانو.

لاحظ غريغوار أنه سمع، ليس للموافقة، بل ليشير إلى أنه سيعود إليها.

تدخل هاسنفراتز.

— هناك أمر أود توضيحه بشأن المواعيد النهائية. في فلاندرز، واجهنا حالات أدى فيها الضغط على الجداول الزمنية إلى قرارات تعبئة سريعة كلفت تقريبا أعمال لا يمكن تعويضها. هنا، إذا كان العمل يتطلب وقتا إضافيا ليتم تغليفه بشكل صحيح — مثل توحيد طبقة طلاء مرفوعة، أو تجفيف ورنيش طازج، أو صنع علبة مخصصة لا يمكن تقصيرها — أحتاج إلى منح هذا الوقت دون الحاجة لتبرير ذلك للطاقم العام.

حدق فيه بونابرت للحظة.

— تقول لي أنك بحاجة إلى الاستقلالية في القضايا التقنية.

— أقول لك إن الأضرار التي لحقت بالأعمال أثناء النقل ستكون مصدر جدل في باريس وأوروبا. اللوحات التي تصل متشققة أو مع شظايا من الطبقة التصويرية هي سلاح لأولئك الذين يريدون إثبات أن عمليات المصادرة هي تخريب. هذا ليس في مصلحة أي أحد.

— بصياغة هكذا، الأمر معقول. لذا: إذا كنت بحاجة إلى تأجيل في جزء معين، تعال إلي شخصيا واشرح لي خلال دقيقتين لماذا هو ضروري وكم يستغرق من الوقت. أنا أقرر. هل هذا مقبول؟

— هذا مقبول.

— جيد. هل هناك شيء آخر؟

نجحت الحجة. الحجة التقنية، تلك حول الأضرار التي لحقت بالأعمال والجدل الباريسي. كانت حجة جيدة. وكانت أيضا، جزئيا، زائفة. لم تكن الأعمال هنا أكثر خطورة من فلاندرز إذا تم اتخاذ الاحتياطات المعتادة. ما تفاوض عليه هو الوقت. الوقت الذي يمكن فيه للقيمين نسخ وفهرسة وتحضير احتجاجاتهم الرسمية. زمن لا يغير شيئا في الجوهر، لكنه ربما سيغير شيئا في الشكل.

— شيء أخير، قال بونابرت. تذهب هذه الأعمال إلى باريس لأن باريس أصبحت الآن مركز الحضارة الأوروبية. هذا ليس بيانا سياسيا. هذه حقيقة. بعد مونتينوت، بعد لودي، بعد ميلانو، لا يمكن لأحد في أوروبا أن يدعي خلاف ذلك. قم بهذا العمل مع وعي بما تحمله. ليست غنائم الحرب. أعمال ستكون ملكا للجميع لأنها ستكون مرئية للجميع. هذا هو الفرق بين ما نفعله وما فعله الملوك عندما ملأوا خزائنهم بالفضول.

عند الفجر في 20 مايو، بدأ المفوضون في جردهم.

الوجهة الأولى: بيناكوتيكا أمبروسيانا، مكتبة ومعرض فني تأسست عام 1609 على يد الكاردينال فيديريكو بوروميو.

كان أمين القيم، الدكتور كارلو أرجيلاتي، ينتظرهم في قاعة المدخل. شعر أبيض، وجه نحيف. كان يعرف كل عمل في المجموعة. أصلهم. قصتهم. معناها.

رحب بالمفوضين بصمت. لا تحيات. لا مجاملة. مجرد نظرة باردة وإشارة نحو الدرج.

— اتبعني.

صعدوا إلى الطابق الثاني. فتحت غرف بيناكوتيكا في صف واحد. أسقف عالية. ضوء طبيعي من نوافذ كبيرة. كانت اللوحات معلقة على مستويين.

أشار أرجيلاتي إلى الغرفة الأولى.

— هذا ما جئتم لتسرقوه.

ارتجف مونج عند كلمة «سرقة». لكنه لم يعترض.

كانت المجموعة مذهلة. عشرات اللوحات الفلمنكية والإيطالية. البدائيون. أعمال عصر النهضة. لوحات باروكية.

أخرج ثوين سجلته. بدأ يلاحظ. العنوان. الفنان. الأبعاد. حالة الحفظ.

العمل الرئيسي الأول: *العذراء مع الزينة* من تأليف بروغل وروبينز، كما وصفه ليبرون في باريس، لكن الأصل كان أكثر إثارة للإعجاب من النقوش.

— هذا العمل، تمتم أرجيلاتي بصوت خافف،— أهدى إلى أمبروسيانا من قبل الكاردينال بورومیو نفسه في عام 1621. كانت لوحته المفضلة. كان يتأمل ذلك كل يوم.

— الأبعاد؟

— أربعة وثمانون سنتيمترا في خمسة وستين. زيت على قماش.

لاحظ ثوين. ووضع عليها علامة صليب أحمر على الهامش. قطعة جاهزة.

انتقلوا إلى الغرفة التالية. كانت هناك عناصر بروغل، اللوحات الأربع على النحاس التي تحدث عنها ليبرون في باريس.

— الأرض والهواء هما الأكثر اكتمالا. الماء و النار أقل نجاحا قليلا.

فحص ثوين اللوحات الأربع. سجل أفضل اثنين منها. الصليب الأحمر.

— نأخذ *الأرض والهواء*.

خفض أرجيلاتي جفونه للحظة. اثنان من أربعة. كان هذا شيئا على الأقل. تم كسر هذه السلسلة، لكن بقي على الأقل اثنان في ميلانو.

الغرفة التالية. مادونا من تأليف برناردينو لويني. سفوماتو رقيق. ألوان ناعمة. وجه العذراء ذات النعمة اللامتناهية.

— لويني رسم هذه اللوحة حوالي عام 1520. يعد من أكثر أعماله إنجازا. كانت ملكا لعائلة بورومیو لمدة قرن قبل أن تدخل مجموعة أمبروزيانا.

لاحظ ثوين. الصليب الأحمر.

ثم *عائلة مقدسة مع القديسة آن* من لويني. مجموعة مقدسة من الحلاوة الشبيهة بليوناردو، حيث تشكل العذراء والطفل ويوسف والقديسة آن هرما بشريا يغمره تباين خفيف بين الضوء والظل.

اقترب بيرثوليه وفحص الصورة.

لاحظ ثوين. الصليب الأحمر.

استمر الجرد طوال اليوم. غرفة بعد غرفة. لوحة بعد لوحة. تبع أرجيلاتي المفوضين بوجهه الرخامي الجامد. أحيانا، عندما يضع ثوين علامة الصليب الأحمر، كان يرتجف. لكنه لم يعترض. ما الفائدة؟

في الساعة الخامسة وصلوا إلى غرفة المخطوطات. هناك، في خزانة زجاجية، كانت هناك المجلدات الاثني عشر من *مخطوطة أتلانتيكوس*.

أربطة جلدية بنية. الشكل التذكاري، أربعة وستين سنتيمترا في ثلاثة وأربعين. ألف ومائة وتسعة عشر ورقة تحتوي على رسومات وملاحظات ليوناردو دافنشي.

الآلات. دراسات تشريحية. مشاريع معمارية. ملاحظات علمية. تركزت عبقرية ليوناردو في هذه المجلدات.

اقترب مونج من النافذة. ظل صامتا لعدة دقائق، يتأمل هذه الكنوز.

— هذه أكبر مجموعة من مخطوطات ليوناردو في العالم. حصل الكاردينال بوروميو عليها في عام 1637. منذ ذلك الحين، أصبح الأمبروزي الحارس. يأتي علماء من جميع أنحاء العالم إلى هنا لدراسة هذه الصفحات.

— نأخذهم بعيدا، قال مونج.

شحب وجه أرجيلاتي جدا.

— لا يمكنك. هذا هو قلب مجموعتنا. هذا هو سبب وجود الأمبروزيين. بدون كودكس أتلانتيكوس، نحن لا شيء.

— نحن نحملهم بعيدا، كرر مونج بحزم أكبر. هذه أوامر الجنرال بونابرت.

في الأيام التالية، بينما بدأ النجارون في صنع الصناديق للأعمال المختارة، زار مونج وبيرثوليه كنائس ميلانو الأخرى لإكمال جردهم.

في سان ماركو فحصوا عدة لوحات مذبح. في سانتا ماريا ديلي غراتسي — حيث توقفوا للوقت اللازم لرؤية ما يعرفونه بالفعل من باريس — رفع بيرثوليه عينيه إلى جدار قاعة الطعام.

— إنها أعظم خسارة. متحف باريس لن يمتلك أبدا *العشاء الأخير*.

— سنحصل على *مخطوطة أتلانتيكوس*، أجاب مونج. وهذا بالفعل كبير جدا.

من سانتا ماريا ديلي غراتسي توجهوا إلى سانت أمبروجيو. كانت البازيليكا المسيحية المبكرة في القرن الرابع تفتح على فناء يحتوي على رواق رومانسكية، وقاعة بها شرفة مزدوجة من الأعمدة القصيرة المنخفضة، وتيجان كورنثية متآكلة بسبب خمسة عشر قرنا من الطقس، وأرصفة غير مستوية كان الحجاج يلمعونها منذ أمبروسيوس نفسه. كان الكاهن الذي استقبلها يدعى دون فيرمو فاسالي، رجل هادئ، دون الجمود العدائي لأرجيلاتي أو الحذر المحسوب الذي كان يواجهه كبار ميلانو منذ وصولهم. قادهم دون تعليق إلى الصحن الرئيسي، ثم نزل سلما ضيقا إلى القبو.

كان سرداب سانت أمبروجيو منخفضا، مقببا، مضاءا بمصابيح زيتية مدخنة. توقف دون فاسالي قبل تجويف في الجدار الشمالي.

كان التابوت هناك.

رخام لوني، رمادي أزرق مع عروق بيضاء. طولها متران وعشرون، وارتفاع ستون سنتيمترا، وعمق ستين. تم دمجها في تجويف من الحجارة أبقته في مكانه منذ القرن الخامس على الأقل، وربما منذ تأسيس القبو نفسه، الذي لم يعرف تاريخه الدقيق. كانت النقوش المنحوتة على الجوانب الثلاثة المرئية تصور مشاهد من العهد القديم: على اللوحة المركزية، عبور البحر الأحمر، مع موسى واقفا على الضفة اليمنى وذراعه ممدودة وعربات فرعون مغمورة بموجات حلزونية مصممة بأسلوب مميز. على اللوحة اليسرى، ذبيحة إسحاق، إبراهيم بركبتيه مثنيتين، السكين مرفوعة، الملاك ينزل قطريا من الزاوية اليمنى العليا بدقة طائر يحلق. على اللوحة اليمنى، دانيال في عرين الأسود، واقفا بين الحيوانات البرية المستلقية عند قدميه بهدوء أيقوني خاص بالفن المسيحي المبكر الذي لم يسع إلى الواقعية الحيوانية، بل إلى الوضوح الرمزي.

كان التمثال ذا جودة استثنائية، ليس بجودة الورش الرومانية الكلاسيكية الكبرى، بل بشيء أكثر توترا وأكثر سردية، حيث كان للشخصيات حضور مادي لم تكن التوابيت الإمبراطورية تملكه دائما. كان الانتقال بين الفن الروماني المتأخر والأيقونات المسيحية واضحا في كل تفصيل: الستائر الكلاسيكية المستمرة، والتراكيب التي كانت بالفعل أمامية وهيراطيقية. كائن انتقالي، ينتمي إلى عالمين في نفس الوقت ولا يشبه تماما أي شيء آخر في أي منهما.

— الأبعاد والوزن المقدر؟ سأله هاسنفراتز.

— لا أعرف الوزن، قال الكاهن. لم يحركها أحد منذ أن توليت الخدمة هنا. أما الأبعاد، فلديك عيناك.

قاس هاسنفراتز بالمسطرة. طوله متران واثنان وعشرون سنتيمترا. ارتفاعه ثمانية وخمسون سنتيمترا. عمقه أربعة وخمسون سنتيمترا. قدر سمك الجدران بستة سنتيمترات. حسب. بالنسبة لرخام لوني، كثافة حوالي اثنين فاصلة سبعة طن لكل متر مكعب. الحجم التقريبي للرخام: حوالي مئة وسبعين لترا. الوزن: حوالي أربعمائة وستين كيلو، وربما خمسمائة مع اختلافات في السماكة.

— لإخراجه، يجب أولا تنظيف الفجوة. ملاط الختم عمره عدة قرون. لقد أصبح أكثر صلابة مما نراه. إذا ضربت بقوة كبيرة بحيث لا يمكنك التنظيف، ستكسر الرخام. إذا كنا حذرين جدا، لا نتقدم.

— يجب أن يكون لدينا عامل حجارة، قال ثوين. ليس بناؤا عاديا. شخص يعرف كيف يعمل بالرخام القديم دون أن يكسره.

تدخل دون فاسالي، الذي استمع إلى هذا الحوار دون أن يقول شيئا، بهدوء، دون رفع صوته، بطريقة لم تكن احتجاجا بل سؤالا.

— يحتوي هذا التابوت، وفقا لتقاليد كنيستنا، على رفات شهداء القرن الرابع. جيرفيه وبروتي. أنت تعرف القصة. اكتشفها أمبروز بنفسه ووضعها هنا. إذا أخذت التابوت، تذهب الآثار معه. أو تتركهم. لكن بعد ذلك تفتح الغطاء، وهو تدنيس لا يمكنني التصريح به دون موافقة رئيس الأساقفة.

نظر هاسنفراتز إلى ثوين.

— لا نلمس الآثار. نأخذ التابوت مع محتوياته، ونسلمه إلى باريس كما هو، وتتعامل السلطات الكنسية الفرنسية مع مسألة الآثار مع نظرائها في ميلانو. ليس قرارنا أن نتخذه.

— رئيس الأساقفة فيسكونتي سيحتج، قال دون فاسالي. رسميا، كتابيا، إلى بونابرت والديركتوار.

— هذا حقه، قال هاسنفراتز. سنوثق حالة التابوت قبل الانتقال. إذا كانت الآثار موجودة وسليمة عند وصولها إلى باريس، فستظل كذلك.

أومأ دون فاسالي. ليس للدلالة على موافقته، بل للتعبير عن أنه فهم وأنه سيفي بوعده بملاحظة التبادل. كان لديه نفس طريقة أرجيلاتي في تحويل مقاومته العاجزة إلى فعل شهود. وكأن الأمر الأساسي ليس منع ما سيحدث، بل ضمان بقاء أثر.

بعد يومين، قضى عامل حجارة ميلاني يدعى جاكومو فيراريو ست ساعات في القبو يحفر التابوت من مكانه باستخدام الإزميل والمطرقة، مليمترا بمليمتر، وهو ينقر على أوتاد خشبية متداخلة بين الرخام والحجر. في مساء 23 مايو، استقر التابوت على أرضية القبو، خاليا من مكانه لأول مرة منذ آلاف السنين. كان هناك في البناء المكشوف بصمة شكلها بالضبط، غياب أجوف ونظيف سيبقى هناك.

أرسل هاسنفراتز لطلب ستة جنود ورافعة. استغرق الأمر أربع ساعات لإخراج التابوت من القبو بجانب الدرج الضيق، مع هامش ثلاثة سنتيمترات على كل جانب بين الرخام وجدران السلم، توتر مستمر طوال الصعود، توقف لمدة عشرين دقيقة عندما انزلق أحد الجنود على درجة وكاد أن يستسلم. نظر الكاهن إلى أسفل الدرج دون أن يقول شيئا.

في الصحن الرئيسي، وفي ضوء النهار الذي يدخل من النوافذ العالية، لم يعد للتابوت نفس الحضور كما في القبو. اكتسب الرخام الرمادي الأزرق لونا ورديا خفيفا في ضوء بعد الظهر. كانت النقوش البارزة أكثر وضوحا، توتر الخطوط، الطريقة التي تعامل بها النحات مع أمواج البحر الأحمر بضربات إزميل شبه رسومية، مختلفة تماما عن نعومة ورش العمل الكلاسيكية المتأخرة.

صعد دون فاسالي بدوره وبقي أمام التابوت دون أن يتكلم. ثم قال:

— لقد كان هناك منذ أمبروز. لمدة ألف وأربعمائة عام. الآن يذهب إلى باريس.
لم يجب أحد.

بدأت ورشة فيا بروليتو العمل في 24 مايو. كان لدى باستياني بالفعل خشب جاف في المخزون. بنى صناديق ثلاثية الجدران من الحور والبلوط، يفصل بين كل جدار لباد فلمنكي وصوف ممشط. من بين ستين صندوقا مخططا، رفض ثوين سبعة صناديق اعتبرها سيئة الصنع. أعاد باستياني صنعها دون اعتراض. أرسل مجلس بلدية ميلانو وفدا إلى بونابرت؛ استقبله، وأجاب بأن شروط الهدنة قد تم احترامها، وصرف الوفد.
في 28 مايو، تم تعبئة عنصري الأرض والهواء لبروغل. في اليوم التالي، تم إغلاق كودكس أتلانتيكوس—اثنا عشر مجلدا في صناديق الحرير وأكياس الطين الماصة—في حالة رقم 58، ثلاثية الجدران، مختومة بالشمع الأحمر. ختم الجمهورية. نقش بالاستنسل: هش.
30 مايو، آخر يوم للتعبئة. جاء أرجيلاتي للمساعدة في العمليات. وقف في زاوية الغرفة، ذراعيه بجانبيه، ووجهه الرخامي.
في الأول من يونيو، التفتيش النهائي. أكد بونابرت بنفسه أن كل شيء جاهز. كان يمشي بين صفوف الصناديق المصطفة في فناء قلعة سفورزيسكو.
— كم المجموع؟ سأل مونج.
— ستون صندوقا.
— كودكس أتلانتيكوس؟
— صندوق رقم 58. جدران ثلاثية. تم إغلاقه أمس.
— العذراء لبروغل وروبينز؟
— الصندوق رقم 1. نفس الحماية.
ابتسم بونابرت برضا.
— عمل ممتاز. ستكون هذه الأعمال فخر متحف باريس. وهكذا ساهمت إيطاليا في مجد الجمهورية الفرنسية. هذا عادل.
كان مونج يفكر في أرجيلاتي. في سومّاريفا. لكل أولئك الإيطاليين الذين رأوا كنوزهم تختفي ولم يتحدثوا عن العدالة، بل عن السرقة.
عشية مغادرته، وبعد تفقد بونابرت، التقى مورو بثوين في مستودع قلعة سفورزيسكو حيث كانت الصناديق.

قاد الكابتن جوليان مورو قوافل إمداد طوال الحملة، والذخيرة، والإمدادات، والبارود، ومدافع الاحتياط. كان يعرف كيف يكون نقل المعدات على الطرق الجبلية، والتعامل مع المحاور المكسورة والخيول المنهكة، والحفاظ على جدول عندما يتآمر كل شيء ليعطلها. لكنه لم يحمل شيئا لا يمكن استبداله.

— سيدي المفوض، أحتاج أن أعرف ما الذي نحمله. ما هو الأكثر هشاشة؟ أيهما أثقل؟ ما الذي يتطلب أكبر قدر من الاحتياطات؟ طريق مخطط؟

أجاب ثوين على أسئلته قبل أن يفتح خريطة كبيرة على صندوق فارغ مسطح بينهما.

— ميلانو، كومو، كيافينا، ممر سبلوجن — على ارتفاع ألفين ومائة وثلاثة عشر مترا فوق مستوى سطح البحر — شور، ثم النزول إلى فاليه، مارتيني، جنيف، ليون. المسافة الإجمالية: حوالي ستمائة كيلومتر. المدة المقدرة: ستة أسابيع إذا سارت الأمور على ما يرام.

درس مورو الخريطة وهو يعبس.

— سبلوجن في يونيو؟ لا يزال الثلج على هذا الارتفاع. والمنحدرات شديدة الانحدار. اثنا عشر، خمسة عشر بالمئة في بعض الأماكن. مع عربات بهذا الحمولة، سيكون الأمر صعبا للغاية.

— ليس لدينا خيار. سيمبلون تحت سيطرة النمساويين. سانت جوتارد غير قابل للعبور مع هذه الأحمال، ضيق جدا، شديد الانحدار. مونت-سيني سيجبرنا على النزول بعيدا جنوبا. Splügen هو خيارنا المعقول الوحيد.

— إذا سنذهب ببطء شديد. بحذر شديد.

عند الفجر في 2 يونيو، تم ترتيب ستون صندوقا في ساحة قلعة سفورزيسكو. مرقم. تم جردها. مختوم.

عشرون عربة كانت تنتظر. مئة جندي مرافقة، بقيادة الكابتن مورو. ستة خيول جر لكل عربة لأثقل الصناديق. أربعة للبقية.

جار التحميل. أثقل الصناديق في أسفل العربات. الأخف في الأعلى. مربوطة بحبال سميكة. التحقق من كل عقدة.

في الساعة الثامنة كانت القافلة جاهزة للانطلاق.

فحص ثوين كل عربة. كل ربط. كل صندوق.

— إنه مثالي، قال لمورو. يمكنك المغادرة.

مورو هو من أعطى الأمر. انطلقت القافلة. صرير العجلات على الحصى. كانت الخيول تسحب بقوة.

غادرت القافلة ميلانو عبر بوابة كوماسينا. اتجه شمالا نحو بحيرة كومو، ثم جبال الألب.

تجمع بعض أهل ميلانو قرب البوابة لمشاهدة القافلة وهي تغادر. استمر معظمهم في المشي، وكأنهم غير مبالين — الطريقة التي يعبر بها الناس عن استيائهم دون أن يعبروا عنه.

أحضر مورو الخيول للمشي في الشوارع الضيقة. صرّت العجلات على الحصى غير المستوية. الصناديق، المثبتة بحبال القنب المضفرة، لم تتحرك.

سار ثوين بجانب العربة الأولى، التي تحمل الصندوق رقم واحد والصندوق رقم ثمانية وخمسين. كان يمشي بإيقاع الخيول، ويده تستند على جانب العربة، بدون سبب محدد، بدافع يقظة جسدية لا تفعل الكثير، لكنها بدت ضرورية له على أي حال.

عند بوابة كوماسينا، توقفت القافلة بينما كان الحرس يتحقق من إجراءات المرور الآمنة. كان الضابط المسؤول عن الموقع شابا—ربما في العشرين من عمره، لا أكثر—وكان يراجع كل وثيقة بطلب يكشف عن نقص خبرته أكثر من عدم ثقته الحقيقية. أعاد الأوراق إلى مورو وأشار ليمرر.

مرت القافلة عبر الباب.

VI — قافلة الألب

لم يحضر بونابرت المغادرة، فقد انضم إلى الجيش نحو الجنوب في الليلة السابقة. جاء بيرتييه ليوقع الوثائق الأخيرة.

كان اليوم الأول سهلا نسبيا. طريق مستو على طول نهر نافيليو إلى مونزا. قطعت اثنان وعشرون كيلومترا في سبع ساعات، تتحرك الخيول بوتيرة منتظمة، تتوقف كل ساعتين لفحص الأحمال، وشد الحبال، وإراحة الحيوانات.

في المساء، نقيم في مونزا. قام مورو بتركيب أغلى الصناديق في وسط المعسكر في ساحة دفاعية. أربعة رجال في الحراسة طوال الوقت، يتناوبون كل ساعتين.

في 3 يونيو، بدأ الأرض في الارتفاع. اقترب من أول سفوح جبال الألب، الطريق على طول بحيرة كومو. ضيق الطريق، في بعض الأماكن بعرض ثلاثة أمتار، وجه صخري على اليسار، منحدر باتجاه البحيرة على اليمين، بدون حاجز. كان السائقون يمشون بجانب خيولهم، ممسكين اللجام بإحكام، يتحدثون إليهم في أضيق الممرات.

عند الظهر، حادث. العربة رقم 7 فقدت عجلة في حفرة لم يرها أحد. كانت الصدمة قاسية. غرقت العربة. سمع صوت فرقعة من الصندوق الذي كان يحمله، ثم صوت زجاج مكسور.

اندفع ثوين للأمام.

— توقف عن كل شيء. لا يتحرك أحد.

توقفت القافلة. رفع عشرة رجال الصندوق ووضعوه على حافة العشب. ركع ثوين وفحصه من كل زاوية. كان الجدار الخارجي متصدعا على طول ثلاثين سنتيمترا. في الداخل، صوت رنين خفيف مع كل حركة.

— ما الأمر؟ سأل مورو.

راجع ثوين سجله.

— الصندوق 7: *العائلة المقدسة مع القديسة آن* من بروكاتشيني. زيت على قماش، مئة وعشرة سنتيمتر في خمسة وثمانين. واحدة من أثمن قطع اللومبارد في القافلة. علينا أن نفتح الصندوق.

قام فيراريو، العامل الحجري الميلاني الذي جلبه ثوين إلى القافلة، بإزالة المسامير واحدة تلو الأخرى، خلال خمس عشرة دقيقة مقابل عشرة مسمار. رفع ثوين الغطاء.

كانت اللوحة ملفوفة بثلاث طبقات من القماش. أزالها ثوين واحدة تلو الأخرى. ظهرت اللوحة. سليمة. لا شقوق جديدة، ولا رفع للطبقة التصويرية.

لكن الإطار القديم، المذهب بالأوراق، كان مكسورا إلى عدة قطع، والزوايا قد انهارت. الزجاج الرقيق الموضوع أمام اللوحة لحمايتها قد تحطم. كان هذا هو الصوت الذي سمع.

— الصورة نفسها ليست تالفة، قال ثوين. لكن الإطار قد ضاع. ولم يعد لدينا زجاج واق.

— هل يمكننا الاستمرار؟

— نعم. تزال قطع الإطار والزجاج، ويتم تعبئة القماش بعناية شديدة، ويغلق الصندوق بتعزيزات إضافية ويضاعف القش حوله.

استغرقت العملية ساعتين. وفي الوقت نفسه، قام الجندي النجار بإصلاح العجلة: فكك المحور، وأزال العجلة المكسورة، وصنع واحدة جديدة من الخشب الذي تمت مصادرته من مزرعة قريبة. غادرت القافلة في نهاية فترة بعد الظهر. أمرهم مورو بالتباطؤ مرة أخرى: سرعة كحد أقصى كيلومترين في الساعة، رجل يستطلع أمام كل عربة يشير إلى الحفر والحجارة، والجنود الآخرون يقودون العجلات أثناء التسلق. في ذلك اليوم، قطعت القافلة خمسة عشر كيلومترا فقط.

في 4 يونيو، هطل مطر. مطر خفيف ومستمر، حول الطريق إلى مستنقع. كانت العجلات تغوص. كان من الضروري وضع ستة خيول في عربة بدلا من أربعة والتقدم مترا تلو الآخر. عند الظهر، تعثرت عربة 15 تماما، وتوقفت العجلات إلى المحاور. قام مورو بتفريغ الصندوق. لوحة متوسطة الحجم، حوالي مئة كيلوغرام، حملها عشرون رجلا لمسافة خمسين مترا إلى أرض أكثر جفافا. ثم عادوا، ووضعوا الألواح تحت العجلات، وربطوا الحبال الإضافية، وسحبوا اثني عشر حصانا بينما دفع أربعون رجلا. خرجت العربة من الأخدود بوصة تلو الأخرى. أعادوا تحميل الصندوق، وانطلقوا مجددا. في ذلك اليوم، قطعت القافلة مسافة ثمانية كيلومترات.

في 5 يونيو، وصلت القافلة إلى كيافينا عند سفح ممر سبلوغن، وهي بلدة صغيرة يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة تقع في واد ضيق على ارتفاع ثلاثمائة متر. بلغ الممر ذروته عند

ألفين ومائة وثلاثة عشر مترا. كان لا بد من تسلق فارق ارتفاع قدره ألف وثمانمائة متر بعربات محملة بعدة مئات من الكيلوغرامات لكل عربة.

توقف مورو لمدة ثلاثة أيام كاملة استعدادا للصعود. استولى على ثلاثين حصانا إضافيا من الفلاحين المحليين مقابل الدفع. اشترت الجمهورية بسعر حددته، لكنها كانت تدفع الثمن. استقطب ستة مرشدين يعرفون الممر من عبورهم عشرات المرات وشرحوا المخاطر: الثلج المتبقي فوق ألف وخمسمائة متر، منحدرات بنسبة عشرين بالمئة في بعض الأجزاء، ممرات ضيقة جدا لعربتين متقابلتين، خطر الانهيارات الأرضية في الجانب الشمالي. صنع سلاسل للعجلات. عمل الحداد من كيافينا ليلتين متتاليتين، ستون سلسلة إجمالا، واحدة لكل عجلة، لا غنى عنها على المنحدرات الثلجية. فحص كل عربة: المحاور، العجلات، التعليق، الفرامل. كان يجب أن يصمد كل شيء. أبسط مشكلة ميكانيكية في الجبال العالية لن يكون لها حل سهل.

وفي الوقت نفسه، فتح ثوين جميع الصناديق لفحص حالة الأعمال بعد رحلة استغرقت أربعة أيام. كانت *العذراء مع الزينة* سليمة، وكذلك عنصرا بروغل. *كودكس أتلانتيكوس*—فحص كل من المجلدات الاثني عشر—كانت ملقاة في حريرها، جافة، دون أن تتحرك ورقة واحدة.

— كل شيء على ما يرام الآن. لكن الاختبار الحقيقي يبدأ غدا.

عند الفجر في 8 يونيو، بدأ الصعود.

تم تحسين طريق سبلوغن مؤخرا من قبل النمساويين، ولم يعد مسارا للبغال، بل كان طريقا حقيقيا للعربات، عرضه أربعة أمتار في بعض الأقسام، ومعبّد في بعضها الآخر. ظل الوضع خشنا: متوسط انحدار يبلغ عشرة بالمئة، ثلاثة عشر في بعض الأماكن، مع بقايا الثلج فوق ألف وخمسمائة متر.

غادرت العربة الأولى — وهي الصندوق 58، *كودكس أتلانتيكوس* — في الساعة السادسة صباحا، تجرها ستة خيول، مرشدان لتفقد الطريق، ومورو وثوين سيرا على الأقدام خلفهم، وعشرة جنود خلفهم. كيلومتر واحد في الساعة، وأحيانا أقل. في أكثر الممرات انحدارا كانوا يتوقفون كل مئة متر، تلهث الخيول والرجال في الهواء البارد. عند الظهر، تم قطع خمسة كيلومترات منذ البداية، ثمانمائة متر فوق مستوى سطح البحر، ولا يزال هناك ألف وثلاثمائة متر للصعود. كانت العربات الأخرى تتبع في صفوف متداخلة، واحدة كل ساعة، حتى يتمكنوا من التدخل بشكل فردي في حال حدوث مشكلة.

عند الساعة الثالثة عصرا، انكسر محور العربة رقم 18 في منعطف حاد، حيث انهار الخشب تحت التوتر، وانحنت العربة بشكل خطير إلى اليسار. فحص فيراريو الأضرار.

— قابل للإصلاح. ثلاث ساعات، وذلك من الخشب الصلب.

تم إرسال رجلين لقطع شجرة بلوط صغيرة في الغابة القريبة. تم قطع محور جديد، وتم استبدال القديم. خمس ساعات من العمل إجمالا، غادرت العربة في الساعة الثامنة مساء مستعينة بالمشاعل لإضاءة الطريق.

في 9 يونيو، رفضت العربة التي تحمل تابوت سانت أمبروجيو — الصندوق 52، تسعمائة كيلوغرام — أن تتسلق نصف المنحدر. الارتفاع ألفمائة متر، وانحدار خمسة عشر بالمئة، والثلج المسطح على الطريق. كانت الخيول الستة تسحب بكل قوتها. العجلات، رغم السلاسل، انزلقت. بدأت العربة تتحرك إلى الوراء.

— احظرها، قال مورو. قبل أن يندفع للأسفل.

دس الجنود الإسفينات تحت العجلات الخلفية. توقفت العربة. لكنها لم تعد تصعد.

— نحن نفرغها. التابوت يُرفع يدويا.

احتج ثوين.

— وزنها تسعمائة كيلو.

— سيتم استخدام ستون رجلا. إذا أجبرت الخيول، تنهار. إذا تم فصلهما لتخفيف العناصر، تندفع العربة للأسفل رغم الإمساكات. هل تفضل أن تخسر العمل؟

تم تفريغ التابوت. انزلقت ستة حبال تحت الرخام، عشرة رجال لكل حبل. ستون رجلا يحمل كل منهم خمسة عشر كيلو، ممكن. تقدموا خطوة بخطوة. كانت العضلات ترتجف. تصبب العرق رغم البرد. كيلومتر هكذا، مئة استراحة، عشر ساعات عمل. في الساعة الخامسة وصلوا إلى شقة حيث تمكنت العربة الفارغة من الصعود بنفسها. أعادوا التحميل، وشدوا السلاسل، وتحققوا ثلاث مرات. انطلقت القافلة مرة أخرى.

انهار ثلاثة جنود من الإرهاق، ولم يكن هناك شيء خطير حسب الجراح، حيث كان هناك إرهاق عضلي وأيدي ممزقة بالحبال. أحدهم، دوبون، كان يده تنزف. قام الجراح بتضميد يديه.

— كل هذا من أجل قطعة حجر، تمتم دوبون.

سمعته ثوين واقترب.

— هذه القطعة الحجرية عمرها ألف وأربعمائة عام. تم نحتها في القرن الرابع على يد فنان لا يعرف اسمه حتى. لقد عاش غزوات وحروب بين المدن الإيطالية والنهب. واليوم عبر أيضا ممر سبلوغن.

لم يجب دوبون.

في 12 يونيو، وصلت القافلة إلى قمة الممر. ألفان ومئتان وثلاثة عشر مترا. توقف الجنود. انهار بعضهم على العشب القصير، ووقف آخرون ينظرون إلى القمم المغطاة بالثلوج بقدر ما تستطيع العين أن تراه في الهواء الساكن. توقف مورو لمدة ست ساعات. أشعلت النيران بالحطب الذي جلبته من الوادي، ووزعت البراندي، وعالجت الجروح.

— لقد نجحنا في الصعود. الآن يأتي النزول. خطير بنفس القدر، لكن بشكل مختلف.

بدأ النزول من الجانب الشمالي، وهو منحدر مطابق للجانب الجنوبي. لم يعد الخطر أن ترفض العربات الصعود، بل كان أن تندفع بلا سيطرة. أمر مورو بربط حبال سميكة في مؤخرة كل عربة، مع عشرة رجال يمسكون الحبال كفرامل بشرية، ينظمون السرعة خطوة

بخطوة. كانوا ينزلون عربة واحدة فقط في كل مرة، بينما كانت البقية تنتظر في أعلى المنحدر، بإسفينات تحت العجلات. استغرقت العربة ساعتين للنزول مسافة كيلومتر واحد.

في 13 يونيو، اكتسب عربة رقم 9 سرعة كبيرة جدا على منحدر شديد الانحدار. انزلقت الحبال من بين أيدي الرجال، وأحرقت الكفوف. تسارعت العربة، وبدأت الخيول تجري حتى لا تسحق، فسحب السائق اللجام دون نتيجة. كانت العربة تندفع بسرعة لا تقل عن أربعين كيلومترا في الساعة.

ألقى أحد المرشدين بنفسه أمام الخيول، وهو يلوح بسترته. استدارت الحيوانات إلى اليسار. غادرت العربة الطريق، وغاصت في حقل عشبي منحدر بلطف، وتوقفت على بعد خمسين مترا. سقط السائق، مصابا، لكنه لم يكن هناك كسر. كانت الخيول ترتجف. فتح ثوين الصندوق، صورة *مادونا* من لويني. تحركت اللوحة في تغليفها، لكن اللوحة لم تتعرض لأي ضرر.

رفض جوزيبي أي مكافأة. هز كتفيه، التقط سترته، وغادر دون أن ينظر خلفه.

أعاد ثوين فتح كل صندوق في ضوء النهار. كان يبحث عن شقوق جديدة، ارتفاعات في الطبقة التصويرية، تمزقات في القماش، كل شيء لم تكن العين لتراه في شبه ظلام الممر. لم يجد شيئا.

— لقد نجحنا.

— هذا ليس معجزة، أجاب مورو. كان رجالي يحملون تسعمائة كيلوغرام من الرخام على منحدر بطول كيلومتر. كانوا يمنعون العربات التي كانت تندفع للأسفل. كانوا يقطعون المحاور في وسط الجبال. إنه الجيش الفرنسي الذي يقوم بعمله.

من شور كان الطريق ينحدر إلى بحيرة كونستانس ثم يتجه غربا. طرق سويسرية ثم فرنسية، واسعة ومصانة جيدا، أفضل بكثير من مسارات الألب الجبلية. استأنفت العربات إيقاع الأربعين كيلومترا يوميا. في 18 يونيو، عبرت بحيرة كونستانس على ثلاث عبارات متتالية، حملت عشرين عربة، وهي عملية استمرت ست ساعات. في 22 يونيو، تم عبور الحدود الفرنسية بالقرب من جنيف. صرخ الجنود. في 25 يونيو في جنيف، حيث تجمع سكان جنيف لمشاهدة مرور القافلة.

— ماذا تحمل؟ سأل أحدهم.

— إيطاليا، رد جندي.

في 30 يونيو، دخلت القافلة ليون. تم تفريغ الأعمال وتخزينها في مستودعات جيش الراين، شارع الجمهورية — وهو مبنى جاف ومحروس جيدا — في انتظار النقل النهائي إلى باريس.

في تلك الليلة كتب مورو تقريره في نزل. سجل الحقائق بالترتيب: تم نقل ستين صندوقا، عبور ممر سبليوجن، تضرر وإصلاح خمس عربات، ثلاثة وعشرون رجلا مصابون بجروح طفيفة، سائق واحد مصاب، صفر فقدان عمل، الحوادث في ترتيبها الزمني، عجلة العربة رقم سبعة، المحور مكسور في منتصف الممر، التابوت المحمول يدويا لمسافة

كيلومتر واحد على منحدر بنسبة خمسة عشر في المئة، العربة رقم تسعة التي كادت أن تندفع للأسفل، وأسماء من تميزوا، بما في ذلك الدليل جوزيبي والنجار السابق الذي نسي اسمه بالضبط. أعاد القراءة، واعتبر ذلك مرضيا، ووقع.

VII— بارما: لوحات كوريجيو

لم يتوقف بونابرت عند ميلانو. بينما سافرت أولى الصناديق إلى باريس، واصل حملته المبهرة عبر شمال إيطاليا. سقطت بافيا. ثم بليزانس. ثم بارما.

امتلكت بارما العديد من المجموعات، وخاصة الجداريات التي رسمها كوريجيو ذات قيمة لا تقدر بثمن. احتوت الكاتدرائية على لوحة صعود العذراء التي رسمت بين عامي 1526 و1530، والتي امتدت سمعتها في جميع أنحاء أوروبا، وكان مونج متحمسا لرؤيتها.

تم توقيع هدنة بارما في 9 مايو 1796، قبل ستة أيام من دخول بونابرت إلى ميلانو: حيث استسلم فرديناند مسبقا، دون انتظار نتائج حملة اللومبارد. حاول الدوق فرديناند من بوربون-بارما في البداية البقاء محايدا. وبصفته صهر ملك إسبانيا، كان يتمتع بحماية قوية. كان بلاطها مشهورا برقياته: حيث أقام فيه الموسيقيون والرسامون والمعماريون. فرديناند نفسه رسم ونقش. وسع المعرض الدوقي، وحصل على لوحات، وطلب نسخا من الأساتذة العظماء لتدريب ذوق الفنانين المحليين.

لكن عندما اقترب الجيش الفرنسي، فهم أنه يجب أن يخضع. التراجع كان مستحيلا. تم طرد النمساويين من مونتينوت، وتم قطع الطريق إلى الشمال. المقاومة تعني أن تنهب بارما. لذا تفاوض، على أمل الحد من الضرر.

لم يترك له بونابرت أي هامش. نصت الهدنة على مساهمة قدرها مليوني فرنك. مبلغ ضخم لدوقية صغيرة. بالإضافة إلى «عشرين لوحة من اختيارات الجمهورية الفرنسية، مع ذكر صريح لروائع كوريجيو».

كان هذا التوضيح الأخير كاشفا. بونابرت لم يترك شيئا للصدفة.

احتج فرديناند. عشرون لوحة كانت بالفعل كبيرة. لكن المطالبة ب«روائع كوريجيو» كانت بمثابة تفريغ المعرض من روائعه. كان من شأن ذلك أن يدمر في بضعة أسطر ما شكلته أجيال أربعة من الدوقات بصبر.

تجاهل بونابرت اعتراضاته. تم توقيع المعاهدة في 9 مايو. عاد فرديناند إلى قصر الدوق، مستاء وهو يعلم أنه قد تخلى للتو عن ميراث سلالته.

وصل مونج إلى بارما في 16 يونيو 1796، برفقة فريق كبير من المرممين والمعبئين. أظهرت التجربة الميلانية أن هناك حاجة إلى موظفين إضافيين للتعامل مع الصيغ الكبيرة والأعمال الهشة.

كان أمين معرض الدوق، الكونت أفو، في انتظارهم. كان إيرينيو أفو عالما محترما. مؤلف عدة مجلدات عن تاريخ بارما وفنانيها، كرس حياته لدراسة التراث الدوقي. كان رجلا مسنا هزيلا بمظهر لا يزال حيويا، يرتدي معطفا أسود مهترئا عند المرفقين.

استقبلهم في المعرض، محاطا بمساعديه. لا خطاب ترحيبي. لا توجد صيغ مهذبة.

— سيدي، أعرف لماذا أنت هنا. تم إبلاغي بالعمليات في ميلانو. أفترض أنك ستفعل الشيء نفسه هنا.

— هذا صحيح، الكونت أفو. علينا اختيار عشرين عملا وفقا لهدنة.

— عشرون عملا. من بين أكثر من ألف عمل لدينا. قد تكون معتدلا في اختياراتك.

— سنأخذ ما هو مفقود من متحف باريس. أجمل القطع، بالطبع.

لم يبدو أفو متفاجئا.

— إذا تعال. من الأفضل أن ننهي الأمر بسرعة.

أرشدهم عبر الغرف. كان مبنى عصر النهضة بخطة منطقية، مع نوافذ كبيرة تسمح بإضاءة مثالية. كانت اللوحات معلقة من قبل المدارس: أولا البدائيون المحليون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ثم أساتذة القرنين السادس عشر، وأخيرا الأعمال الباروكية للقرن السابع عشر.

كان قسم كوريجيو يشغل غرفتين كاملتين. كانت هناك لوحات مذابح ضخمة، ودراسات تحضيرية، ولوحات تعبدية. توقف مونج أمام تحفة المعرض، لوحة كبيرة يبلغ ارتفاعها مترين وخمسة وثلاثين سنتيمترا وعرضها مترا وواحدا وأربعين سنتيمترا، والتي سميت هنا *عذراء القديس جيروم*، أو بشكل غير رسمي *اليوم*.

قال مونج: هذه هي اللوحة التي وصفها بونابرت نفسه بأنها تحفة كوريجيو. وقد طلب صراحة أن تكون من أوائل القطع التي ترسل إلى باريس.

قام الكونت أفو بحركة تراجع غير ملحوظة.

— تم تكليف هذه اللوحة حوالي عام 1525 لكنيسة بيرغونتسي في بارما. المدينة كلها متعلقة بها. وأنتم تأخذونها.

لاحظ مونج اللوحة في قائمته. نعومة السفوماتو المميزة لكوريجيو—تلك الانتقالات غير المرئية بين الضوء والظل—وعظمة التكوين، وجودة الضوء الذهبي الذي يملأ المشهد بأكمله، جعلته قطعة من الدرجة الأولى.

— أرني الكوريجيوهات الأخرى.

سحبه أفو نحو اللوحات المجاورة. كانت هناك *مادونا تحمل وعاء*، ذات رشاقة مألوفة وحميمة. العذراء، جالسة في منظر خارجي للطبيعة، تحمل كأسا فضيا، وهو السكوديلا الذي أعطى اسمها للوحة. الطفل يسوع، الواقف بينها وبين يوسف، يمسك بيد كل منهما. يوسف، الذي يهيمن على النصف الأيمن من التكوين، يقطف التمر من نخلة مائلة. في الأعلى، تدور جوقة من الملائكة في الضوء. القطر الذي يربط بين الشخصيات الثلاث يمنح اللوحة حركة أنيقة.

— هذا أيضا، قال مونج.

ثم *زواج صوفي للقديسة كاثرين*. غمرت نفس النعومة الذهبية العذراء والطفل والقديسة الراكعة.

— هذا أيضا.

قبض أفو على قبضتيه، لكنه لم يقل شيئا. واصل مونج الجرد، مختارا ثلاثة من كوريجيوهات أخرى: *مادونا والطفل* بصيغة أصغر ولكن بحساسية شديدة، *ومرثية على المسيح الميت* ذو الجاذبية الهادئة، *والمسيح في جنة الزيتون* ذات كثافة درامية.

بالمجمل، ستة كوريجيوهات. كان هذا أكثر مما تركته بارما في وقت واحد.

لكن اللوحات كانت جزءا فقط من الثروة. كما كانت هناك جداريات. وقد شكلت هذه مشكلة تقنية كبيرة.

في اليوم التالي، ذهب مونج إلى الكاتدرائية لفحص الصعود. قضى الليل يدرس النقوش والوصف. الآن أراد أن يرى النسخة الأصلية.

كانت كاتدرائية بارما مبنى رومانسكيا يعود للقرن الثاني عشر. ضخم. صارم من الخارج. لكن الداخل قد تحول في القرن السادس عشر بواسطة جداريات كوريجيو.

دخل مونج، وعيناه مرفوعتان نحو القبة.

وبقي مذهولا.

على ارتفاع ستين مترا فوق الأرض، ارتفعت العذراء إلى السماء في وسط دوامة من الغيوم والملائكة والقديسين. كل شيء استدار، وارتفع كل شيء في حركة دوامة مذهلة. كانت الأجساد مطلية بتقصير عنيف — ذراعان ممدودتان، أرجل مثنية،

جذوع ملتوية — بدت كأنها لا ترى عن قرب، لكنها كانت مرتبة عند النظر إليها من الأسفل.

كان ذلك إنجازا فنيا مذهلا. حسب كوريجيو كل شكل من منظور معقد بحيث بدا وكأنه يطفو فوق المشاهد. كانت الغيوم تفيض بحدود القبة، مما أعطى انطباعا بأن العمارة انفتحت حقا على السماء. كان الوهم مثاليا. كان من الدوار مشاهدة هذا الصعود السماوي.

ظل لفترة طويلة تحت القبة، وحيدا. انضم إليه ثوين.

ثم صعد مع ثوين إلى العلية حتى قاعدة القبة، ليتحقق بأم عينيه مما وصفه دينون في باريس. لم يكن دينون قد كذب.

فحص ثوين السطح المطلي، مرر يده على الجبس، وفحص المفاصل.

— إنها جدارية حقيقية. *جدارية* مرسومة، على جص جديد. لقد اخترق الطلاء الجبس أثناء جفافه. إنه جزء لا يتجزأ من الجدار. لا يمكنك فصلها دون تدمير كل شيء.

— هل يمكننا قطع جزء من الجدار؟

— انظر إلى السطح. قطرها على الأقل اثنا عشر مترا على الأقل. وهي سطح منحني. الوزن سيكون عدة أطنان. سيحتاج الأمر إلى سقالة ضخمة لقطعها، ودعمها أثناء النزول، ونقلها. وحتى لو نجحنا، كيف يمكن إعادة تركيبه؟ القبة مصممة لترى من الأسفل، على بعد ستين مترا. في المتحف، لا يمكنك إعادة خلق هذه المسافة. سيختفي الوهم.

اضطر مونج للاعتراف بالهزيمة. ظلت *لوحة الصعود* في بارما.

كما فحص جداريات كنيسة سان جيوفاني إيفانجيليستا، وهي تحفة أخرى لكوريجيو. نفس الملاحظة. لم يكن بالإمكان نقل هذه الأعمال الضخمة. كانوا واحدا مع العمارة. أخذهم يعني تدميرهم.

تلقى بونابرت تقرير مونج عن الجداريات حتى قبل الانتهاء من القائمة النهائية للوحات.

التقيا في ميلانو، في قصر سفورزا الذي حوله بونابرت إلى مقر رئيسي. جلس الجنرال خلف مكتب مليء بالخرائط والتقارير. قرأ وثيقة مونج، وهو يعبس.

— ماذا تعني بمستحيل؟ غزوت إيطاليا في شهرين. هزمت أربعة جيوش نمساوية. وتقول لي أنك لا تستطيع تحريك لوحة؟

— جنرال، شرح مونج،— الأمر ليس مسألة إرادة. إنها مسألة فيزياء. الجدارية هي واحدة مع الجدار. تمزيقها سيدمر العمل. كنا ندمر ما نريد إنقاذه.

— إذا ابحث عن حل! اصنعوا نسخا! استأجر رسامين!

— النسخ لن تحل محل الأصل أبدا. والحجم كبير جدا. قبة قطرها اثنا عشر مترا... قاطعه بونابرت بإشارة من يده.

— لا يهمني مشاكلك التقنية. إذا لم تستطع أخذ الجداريات، عوض ذلك بالألواح المتحركة. ضاعف المصادرات. ضاعفهم ثلاث مرات. أريد من بارما أن تقدم أفضل ما لديهم. هل فهمت؟

لم يجب مونج. كان يعرف هذه النبرة. عندما تحدث بونابرت بهذه النبرة، كان الجدال بلا جدوى.

عاد مونج إلى بارما بعد ثلاثة أيام. هذه المرة لم يكتف بـ معرض الدوق. زار الكنائس والأديرة والمجموعات الخاصة. إذا أراد بونابرت المزيد من اللوحات، فسيجدها.

في كنيسة ستيكاتا، اكتشف دورة من الجداريات للفنان بارميجيانينو. لم يكن بالإمكان أخذ الجداريات نفسها، لكن الكنيسة احتفظت بعدة لوحات على الحامل لنفس الفنان. اختار مونج اثنين.

في قصر بيلوتا، المقر الثاني للدوقات، وجد مجموعة من اللوحات الفلمنكية والهولندية: روبنز، فان دايك، رامبرانت التي اقتناها الدوق رانوتشو الثاني في القرن السابع عشر. اختار مونج أربعة منها.

في مكتبة بالاتينا، استولى على خمسة وأربعين مخطوطة مزخرفة. كتب القرن الخامس عشر مليئة بساعات من الدقة الاستثنائية. كانت المنمنمات تصور مشاهد كتابية، وتقاويمات فلكية، وكتب وحوش خيالية. كل صفحة كانت عملا فنيا بحد ذاتها.

في المجمل، أخذ مونج أربعة وثلاثين عملا من بارما وليس عشرين عملا كما هو منصوص عليه في الهدنة.

عندما رأى أفو القائمة النهائية، شحب وجهه.

جاء عمال التعبئة لتنزيل لو جور. اقترب أفو. وضع يده على الإطار. ليس على القماش، على الخشب. لحظة واحدة. تظاهر ثوين بأنه لم ير. وكذلك عمال التعبئة.

احتج الدوق فرديناند رسميا أمام بونابرت. تلقى ردا مقتضبا: تم احترام شروط المعاهدة. إذا اعترضت سموك على تفسيرنا، يمكننا إعادة التفاوض على الهدنة ككل. مع ظروف أقل ملاءمة.

فهم فرديناند الرسالة. توقف عن الاعتراض.

تم تجهيز الصناديق لمدة ثلاثة أسابيع. تولى ثوين مسؤولية تغليف الستة من كوريجيو.

في 20 يوليو 1796، كان كل شيء جاهزا. كانت ثلاثون عربة تنتظر في فناء قصر الدوقية. مئتا جندي مرافقة، بقيادة قائد قام بونابرت بتعيينه بنفسه.

جاء أفو ليشهد المغادرة. وقف في ظل بوابة، مرتديا معطفه الأسود، ووجهه مغلق. راقب الصناديق وهي تحمل واحدة تلو الأخرى. كان كل صندوق يحمل ملصقا: «متحف الفن المركزي، باريس».

عندما انطلقت القافلة، وقف أفو بلا حراك حتى اختفت آخر عربة في نهاية الشارع.

لم ينتظر مونج مغادرة القافلة. لقد سلك بالفعل الطريق إلى مودينا.

VIII— مودينا وبولونيا

سقطت مودينا في مايو 1796، بعد أيام قليلة من بارما. استسلم الدوق إركولي الثالث ديستي دون قتال. لم يكن لديه جيش يستحق هذا الاسم. كان حماته النمساويون قد هزموا للتو. المقاومة تعني أن ترى عاصمة الشخص تنهب. كان يفضل التفاوض.

تم توقيع الهدنة في 17 مايو 1796. فرض بونابرت شروطه: مساهمة حربية قدرها سبعة ملايين فرنك، وتوصيل الطعام والخيول للجيش الفرنسي، و— وهو الآن مقال معتاد — «نقل عشرين لوحة ومخطوطة حسب اختيار الجمهورية الفرنسية.»

وقع إركولي. لكن عندما وقع، كان يعرف ما الذي يقدمه. أربعة قرون من التراكم. كنوز الإيستي.

حكمت عائلة ديستي فيرارا ومودينا منذ القرن الثالث عشر. أمراء مثقفون، رعاة مستنيرون، جامعون متحمسون، شكلوا واحدة من أجمل المعارض في أوروبا. جيلا بعد جيل، حصلوا على لوحات، وطلبوا أعمالا، وحموا الفنانين.

لكن في عام 1746، ومدفوعا بـ الضغوط المالية، باع إركولي الثالث أجمل جوهرة: *مادونا القديس جورج* من تصميم كوريجيو. كان الملك أوغسطس ملك ساكسونيا قد اشترى اللوحة بمبلغ ضخم. كانت قد غادرت إلى دريسدن.

والآن، بعد خمسين عاما، جاء الفرنسيون ليأخذوا الباقي.

وصل مونج وبيرثوليه إلى مودينا في 28 يوليو 1796. رافقه هاسنفراتز وفريق مكون من خمسة عشر مساعدا: مرممون، وعمال تعبئة ورسامين مسؤولون عن توثيق كل عمل يتم تنفيذه.

كان أمين معرض الدوق، جيرولامو تيرابوشكي، في انتظارهم.

استقبل المفوضين الفرنسيين في المعرض الكبير للقصر الدوقي بأدب بارد.

— أيها السادة، أنا تحت تصرفكم. هنا ستجد ما تبقى من مجموعاتنا بعد البيع المؤسف عام 1746.

— نعلم أنك فقدت كوريجيو، قال مونج. لكن حسب معلوماتنا، لا تزال تحتفظ بقطع كبيرة.

— بالفعل. تيتيان، فيرونيز، تينتوريتو. المدرسة الفيراريزية ممثلة أيضا بشكل جيد: دوسو دوسي، غاروفالو، البدائيون. ومكتبتنا تحتوي على مخطوطات مزخرفة ذات قيمة كبيرة.

— أرنا، قال بيرثوليه.

توقفوا أولا أمام *صورة ألفونسو ديستي*. رسمت حوالي عام 1523، وصورت الدوق مدرعا وهو يحمل عصا قيادته. شخصية قتالية ذات نظرة حادة، ترتدي درعا داكنا معززا بالذهب.

— الأبعاد؟ سأل ثوين.

— مئة وثمانون سنتيمترا في تسعين. زيت على قماش. حالة حفظ ممتازة.

وضعها في قائمته.

قادهم تيرابوشكي إلى غرف أخرى. كان هناك تيتيان ثان هناك: *صورة رجل بنظرة حزينة*، شخصية غامضة بنظرة حزينة. ثم صورة *لجيان جورجيو تريسينو*، الإنساني والشاعر، مصورة في زاوية ثلاثة أرباع الرؤية مرتديا فستانا داكنا، ويده تستند على كتاب مفتوح، وهي صورة لعالم في حالة رصانة فينيسية تميز نضج تيتيان.

— اثنان آخران من التيتيان، قال مونج.

— ثلاثة تيتيان، أيها السادة؟ احتج تيرابوشكي. أنتم تفرغون مجموعتنا الفينيسية.

— نطبق المعاهدة. عشرون عملا. لقد اخترنا ثلاثة فقط منهم في الوقت الحالي.

تنهد تيرابوشكي وقادهم إلى القسم المخصص لمدرسة فيرارا. وهناك وجدت أبرز الأعمال في المجموعة، لوحات لم تر في أي مكان آخر.

دوسو دوسي أولا. جيوفاني دي نيكولو دي لوتيري، المعروف باسم دوسو دوسي، رسام بلاط إيستي في القرن السادس عشر. كان أسلوبه فريدا: مناظر طبيعية حالمة بألوان متلألئة، شخصيات أسطورية في بيئات خيالية، أجواء حلم يقظة.

توقف أمام *جوبيتر، عطارد وفضيلة*. كان جوبيتر جالسا في الغيوم، وعطارد يحمل صولجانه، ووقفت فضيلة بينهما في ضوء ذهبي يشبه الجنيات. كان السماء زرقاء بشكل لا يصدق. كل شيء كان يغمره جو الحلم اليقظ الخاص بدوسو.

قال تيرابوشكي: كان دوسو الرسام المفضل لألفونسو الأول. كان يحب هذه الأجواء الأسطورية. هذه العوالم الخيالية التي تنبض فيها الأساطير بالحياة.

— هذه، قال مونج.

كما اختار *العائلة المقدسة*، وهي تركيبة مقدسة في منظر طبيعي غابي بدرجات ذهبية.

ثم جاء غاروفالو. بينفينوتو تيسي، المعروف باسم جاروفالو، أستاذ فيرارا آخر. أسلوب أكثر كلاسيكية من دوسو، لكن بأناقة راقية. اختار مونج *العذراء والطفل والميلاد*.

وأخيرا، البدائيون في القرن الخامس عشر. كوزمي تورا، فرانشيسكو ديل كوسا، إركولي دي روبرتي. طور هؤلاء الرسامون أسلوبا غريبا، يكاد يكون هلوسا، مع أشكال زاوية مع ستائر مكسورة، وعمارة رائعة، وتوتر عصبي في كل تركيب.

— هناك أسباب كثيرة لأخذها، أجاب بيرثوليه. يجب أن يكون المتحف عالميا. يجب أن يمثل جميع المدارس.

واصلوا الجرد. لوحة ضخمة لفيرونيز: *عبادة المجوس*، وهي تركيبة كبيرة بعرض أربعة أمتار تظهر عبادة المجوس في بيئة قصر مع العمارة الفينيسية، حشد من الشخصيات في أزياء فاخرة، وضوء مبهر.

— تم اقتناء هذه اللوحة من قبل الدوق تشيزاري ديستي في عام 1657، شرح تيرابوشكي. جاء من تكليف خاص لقصر في إميليا.

— الأبعاد؟

— أربعمائة وعشرة سنتيمترات عرضا ومئتان وعشرون ارتفاعا. إنها قطعة ضخمة. النقل سيكون معقدا.

— لقد نقلنا أعظم من ذلك. سنأخذ هذه.

أضاف مونج إلى قائمته لوحة «تينتوريتو» — تقديم يسوع في الهيكل، وهي لوحة كبيرة بحجم ثلاثة في مترين رسمت لمدرسة سان ماركو الكبرى.

لكن اللوحات لم تكن كل شيء. كان هناك أيضا المكتبة.

تأسست مكتبة إستنسي في القرن الخامس عشر، واحتوت على آلاف المخطوطات. كان آل إستس عشاق كتب كبيرين. جمعوا مخطوطات من العصور الوسطى، ونسخ غير مكتومة، وطبعات نادرة، ومخطوطات مزخرفة.

زار بيرثوليه، الذي كان مهتما أيضا بالعلم، المكتبة برفقة كبير أمناء المكتبة. فحصوا المجموعات لمدة يومين.

اختار بيرثوليه خمسة وأربعين مخطوطة مزخرفة. جمع آل إستس مخطوطات متنوعة بشكل ملحوظ: كتابات الساعات بحروف ذهبية على خلفية زرقاء، ورسائل فلكية مزينة بكرات الدروع، ومجموعات من شعر البلاط مزينة بصور لمغني التروبادور. كل مجلد صمم ليأخذ مظهرا أميريا.

كان هناك أيضا خرائط بحرية من القرن السادس عشر مزينة بوحوش بحرية وسفن. أعشاب مصورة تظهر النباتات الطبية بخصائصها. رسائل عن الكيمياء مزينة برموز غامضة.

احتج كبير أمناء المكتبة. استمع إليه بيرثوليه، ثم واصل جرده.

احتفظ تيرابوشكي بسجلاته الخاصة ليلة بعد ليلة، مسجلا مصدر وظروف كل قطعة مأخوذة. ما لم يستطع الاحتفاظ به، على الأقل كان يريد أن يكتبه.

غادرت صناديق مودينا إلى باريس في 15 أغسطس 1796. أربعون عربة محملة وثلاثمائة جندي مرافقة. استغرقت القافلة أربعة أسابيع لعبور جبال الألب.

راقب الدوق إركولي المغادرة من نافذة القصر. أربعة قرون من جمع العائلة كانت تغادر إلى فرنسا. التيتيون الذين كلف ألفونسو الأول برسمها. دوسو دوسي الذي أحبه إركولي الثاني. المخطوطات التي جلبها ألفونسو الثاني معه من فيرارا.

توفي إركولي الثالث بعد سبع سنوات، في عام 1803.

لكن في باريس، تم دمج كنوز مودينيس في مجموعة المتحف المركزي. انضم التيتيون إلى بقية التيتيين الذين نهبوا في أماكن أخرى. أنشأ دوسو دوسي قسما فريدا في فيرارا. أثرت المخطوطات المزخرفة المكتبة الوطنية.

هذا ما حاول غريغوار في باريس صياغته دون نجاح. ما كان يسمى بالحفاظ على تراث البشرية بني هنا على تدمير تراث معين. لم يعرف كيف يكتب ذلك دون أن يبدو كأنه اتهام أو غفران. لذا لم يكتبها.

استسلمت بولونيا في 19 يونيو 1796. كانت المدينة مقرا لجامعة شهيرة، وهي الأقدم في أوروبا. كما كانت مركزا فنيا رئيسيا حيث ازدهرت المدرسة البولونية في القرن السادس عشر مع كاراتشي، جيرشينو، وغويدو ريني.

تم توقيع الهدنة في 23 يونيو. وقد نصت على الشروط المعتادة: المساهمات المالية، وتوصيل الطعام، ونقل الأعمال الفنية والأشياء العلمية. مئة قطعة في المجموع. لوحات، مخطوطات، أدوات.

وصل مونج في 25 يونيو برفقة بيرثوليه وفريق موسع، يضم الآن خمسة عشر مساعدا: مرممون، حزميون، خبراء. كان النظام يعمل بسلاسة. الجميع يعرف دوره. زادت الكفاءة.

استقبلهم السيناتور ألدروفاندي، ممثلا السلطات البلدية. ولد في عائلة بولونية كبيرة، وقضى حياته في خدمة المدينة.

— أيها السادة، بولونيا تستسلم. سندفع المساهمة. سنقوم بتسليم الأعمال المطلوبة. لكننا نفعل ذلك تحت الضغط. دعني أكون واضحا. أنت لا تقنعنا. أنت تجبرنا.

— ندون موقفك، سيناتور، رد مونج. اجعل من السهل علينا الوصول إلى المجموعات الآن.

— سأجعل من السهل عليك الدخول، نعم. لكنني لن أساعد في النهب. ستحصل على ما تنص عليه المعاهدة. لا لوحة واحدة أخرى.

كان مونج يعلم أنه سيأخذ المزيد. قال بونابرت ذلك بلا لبس فيه: خذ كل ما هو ثمين. تصنع المعاهدات ليتم تفسيرها.

أخذهم ألدروفاندي إلى البيناكوتيكا الوطنية، الواقعة في قصر بوجي. كان المخرج، مارسيلو أوريتي، ينتظرهم.

كان متحمسا دقيقا قام بفهرسة جميع الأعمال الفنية في بولونيا لمدة ثلاثين عاما. كانت سجلاته نماذج للدقة.

طوال حياته، خدم فن مدينته. الآن يطلب منه المساعدة في تفكيكه.

— المفوضون. حضرت كتالوجي. هنا ستجد كل ما تحتاجه لتحديد الأعمال. أعتقد أنك ستبدأ بالكاراتشي.

— بالفعل، قال مونج. هذه هي القطع الأساسية.

— اتبعني.

قادهم أوريتي عبر الغرف. كان المعرض يشغل طابقا كاملا من القصر. تم تعليق اللوحات حسب المدارس والفترات: أولا البدائيون في القرن الرابع عشر، ثم أساتذة الرباعية، وأخيرا الرسامين العظماء في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

كان القسم المخصص لكاراتشي هو الأهم. هانيبال، أوغسطين، ولودوفيكو، أبناء عمومة ثلاثة أحدثوا ثورة في الرسم الإيطالي في نهاية القرن السادس عشر من خلال رد فعلهم على المانيرية.

أشار أوريتي إلى لوحة ضخمة.

— *ظهور العذراء إلى القديس هياسنت* من تأليف لودوفيكو كاراتشي. ثلاثة أمتار وخمسة وسبعين سنتيمترا في مترين وثلاثة وعشرين سنتيمترا. رسمت عام 1594 لكنيسة سان دومينيكو. تركيبة بخلفية من العمارة الرومانية: العذراء في المجد، تحمل على سحابة من الملائكة، تظهر للقديس الراكع في ظل المقدمة. انظر إلى التباين بين النور السماوي والظلام الأرضي. إنها الروحانية الكاملة للكاراتشي تتركز في هذه المعارضة.

كان مونج يفحص الصورة. عظمة التركيب، والتوازن المثالي بين الواقعية والمثالية، وإتقان تقنية الضوء والظل، كلها أكدت سمعة الكاراتشي.

— هذا.

أغلق أوريتي عينيه للحظة.

— هذه هي تحفتنا الكبرى للودوفيكو.

— وهذا سبب إضافي.

انتقلوا إلى هانيبال كاراتشي. صعود العذراء، آلة باروكية ضخمة. العذراء تصعد إلى السماء في دوامة من الملائكة والغيوم، والرسل على الأرض وأذرعهم مرفوعة. ثم تناول القديس جيروم بقلم أوغستين كاراشي، أكثر هدوءا: الرجل العجوز المحتضر يتلقى القربان المقدس في صمت من الرهبان وضوء ناعم.

— كلاهما، قال مونج.

ذهبوا إلى جيرسينو. أوقفهم أوريتي أمام القديس *سيباستيان الذي كانت القديسة إيرين تعتني* به. تركيبة ليلية من إحساس مزعج: الضوء لم يكن يأتي من مصدر محدد، بل كان ينبعث من الأجساد نفسها.

— عمل مبكر، قال أوريتي. 1619. انظر إلى النور.

— هذا أيضا.

— تأخذ كل ما هو ثمين.

— نأخذ ما ينقص متحف باريس.

لاحظ أوريتي في سجله، الكتابة الكثيفة والسريعة. كل لوحة متبقية سيتم توثيقها. كل خسارة مسجلة. كما أشار إلى أن لوحة القديسة بيترونيا لجيرسينو — وهي لوحة مذبح ضخمة يزيد ارتفاعها عن سبعة أمتار، والتي كلفت سابقا بكنيسة القديس بطرس في روما ونقلت منذ عام 1730 إلى قصر كويرينال — كانت في روما.

— لا يمكنك أخذ هذه هنا، قال لمونج. لكنني أفترض أن زملاءك سيتولون الأمر عندما يذهبون إلى الفاتيكان.

لاحظ ذلك. روما ستكون الخطوة التالية.

ثم جاء غويدو ريني. توقف أوريتي أمام *بييتا*. كانت العذراء تحمل جسد المسيح الميت على ركبتيها. تركيبة مثلثة من البساطة المطلقة: لا ديكور، لا إكسسوارات، فقط شخصان في مساحة فارغة، الألوان مختزلة إلى بياض بشرة المسيح، أزرق رداء مريم، الأحمر للستائر. ولدت المشاعر من هذا التحسن.

— هذا.

وأضاف إلى قائمته *القديس جيروم في حالة تأمل*.

لكن بولونيا كانت تملك أيضا كنوزا من نوع آخر. احتوت الجامعة على مجموعات علمية رائعة.

احتوى متحف الفيزياء على أدوات من القرن الثامن عشر بدقة وتنوع لا مثيل لهما: تلسكوبات، مجاهر، بوصلات انعكاس، آلات كهروستاتيكية، مضخات هواء.

كان هناك معشبة تحتوي على آلاف العينات النباتية مدرجة بعناية فائقة. كرات سماوية وأرضية ذات جودة مذهلة. مجموعات معدنية.

طلب بونابرت صراحة أن تؤخذ مقتنيات أيضا من هذه المجموعات. لم يكن على إيطاليا أن توفر اللوحات فحسب. كان عليها أن تساهم في جميع مجالات المعرفة.

تولى بيرثوليه مسؤولية هذا الجزء من المهمة. زار متحف الفيزياء برفقة البروفيسور لويجي جالفاني، نفس الأستاذ الذي اكتشف الكهرباء الحيوانية.

كرس جالفاني حياته لجامعة بولونيا. الآن رأى آلاته تغادر إلى فرنسا.

— سيدي، قال لبيرثوليه،— هذه القطع ليست أعمالا فنية. إنها أدوات تعليمية. بدونها، يتضرر تعليمنا بشكل كبير.

— هناك أسباب كثيرة لإحضارها إلى باريس. ستستخدم لتدريب المهندسين والفيزيائيين الفرنسيين. جامعتك ستتمكن من طلب أجهزة جديدة.

— بأي مال؟ بولونيا دفعت للتو خمسة عشر مليون مساهمات. خزائننا فارغة. سيستغرق الأمر سنوات لإعادة بناء هذه المجموعات.

واصل بيرثوليه جرده، ملاحظا الأبعاد والحالة والقيمة التعليمية لكل آلة.

اختار عشرين أداة علمية إجمالا. مضخات هواء لتجارب التفريغ. مجموعات عدسات للبصريات. موازين دقيقة. أجهزة كيميائية.

كما أخذ كرات سماوية وأرضية، كرات رائعة من الخشب المطلي مثبتة على إطارات نحاسية. ومجموعات المعادن والنباتات.

راقب جالفاني آلاته وهي تُعبأ، صامتا. قضى حياته في القياس، والوزن، والتحقق. كان يعرف الفرق بين ما يمكن إثباته وما لا يسع المرء إلا أن يتحمله.

كما زار بيرثوليه غرفة التشريح في الجامعة. بنيت في عام 1637، وكانت مسرحا صغيرا من الخشب المنحوت حيث كان الأساتذة يشرحون الجثث أمام الطلاب.

احتوت الغرفة أيضا على شموع تشريحية لإركولي ليلي — أعضاء، أجهزة عصبية، أجنة — التي كان بيرثوليه يريدها لكلية الطب في باريس.

كان بيرثوليه يعبئها بالفعل.

لكن المقتنيات المأخوذة لم تتوقف عند اللوحات والأدوات العلمية. وكان هناك أيضا مكتبة الجامعة.

تأسس في القرن الثالث عشر، واستمر في إثراء مستمر لمدة خمسمائة عام، واحتوى على آلاف المخطوطات من العصور الوسطى وكتب ثمينة. كان الأساتذة البولونيون قد أودعوا أعمالهم هناك. كان النساخون قد نسخوا النصوص القديمة هناك. كان المضيئون يزينون كتب الساعات هناك.

زار بيرثوليه المكتبة مع الأب أنسيلمو كوستادوني، وهو بندكتيني قضى حياته في فهرسة مجموعاتها. كانت المخطوطات مخزنة في خزائن كبيرة من خزائن البلوط. انتشرت رائحة

الرق القديم في الهواء. أخرج كوستادوني أثمن القطع: مخطوطة يوستينيانوس من القرن الثاني عشر بالأحرف الأولى المذهبة، وقانون طبي لابن سينا باللاتينية من القرن الثالث عشر، وكتب ساعات من القرن الخامس عشر مع صور مصغرة لا تزال حية—أزرق اللازورد، أوراق ذهبية، أحمر قرمزي—، كتاب المجسي لبطليموس، عشبة مصورة من القرن الرابع عشر، رسالة هندسية لإقليدس مع رسومات بالحبر الأحمر. كان بيرثوليه يأخذ، يضع جانبا. لم يكن هناك نقاش.

تم اختيار ما مجموعه ثلاثين مخطوطة.

— ثلاثون مخطوطة، قال كوستادوني بصوت مشدود. أنت تدمر مكتبتنا.

— لا يزال لديك الآلاف. ستثري هذه المكتبة الوطنية في باريس.

— حيث لا يستشيرهم أحد! في باريس، من يهتم بمخطوطات القانون الروماني البولونية؟ هنا، هم أحياء، مستخدمون، معلمون!

— في باريس، سيتم حفظها، وفهرستها، والوصول إليها للعلماء من جميع أنحاء العالم.

— الوصول المناسب لا يعني الاستخدام. هذه المخطوطات ستموت من اللامبالاة في احتياطياتك الباريسية.

كان بيرثوليه يعلم أن كوستادوني كان على حق جزئيا. العديد من المخطوطات المأخوذة من إيطاليا انتهت في احتياطيات المكتبة الوطنية، ونادرا ما تم الرجوع إليها، ونسيت تدريجيا.

كرر لنفسه، كما فعل في كل مرحلة منذ فلاندرز، أنه لا يشعر بأي تأنيب ضمير حيال هذه المهام، وأنه عمل كأي عمل آخر، تقني، دون سؤال أخلاقي. لكن العبارة هذه المرة لم تنطل عليه. بقي لحظة دون أن يدون شيئا، عيناه على الخزائن الفارغة، قبل أن يستعيد تماسكه. كان بونابرت يريد إثراء باريس. هذه المخطوطات ستغادر. كان لا بد من المضي قدما.

استمر الجرد عشرين يوما. عشرون يوما من تصفح المجموعات، المكتبات، المستودعات، الترقيم، الوزن، القياس، القرار.

في 15 يوليو 1796، قدم مونج وبيرثوليه قائمتهما النهائية للسلطات البولونية: ثمانون لوحة، عشرون أداة علمية، نحو عشرة شموع لليلي، ثلاثون مخطوطة، مجموعات معدنية، ومنحوتات متنوعة—مئة وسبعة وثمانون قطعة في المجموع، لمعاهدة نصت على المئة.

عقد السيناتور ألدروفاندي جلسة استثنائية لمجلس شيوخ بولونيا. أمام الجمعية المجتمعة، قرأ قائمة المقتنيات التي أخذها الفرنسيون.

— احتجت، أجاب ألدروفاندي. أخبرني المفوض مونج أن اللوحات كانت الأشياء الرئيسية. الفئات الأخرى لم تحتسب ضمن الحصة.

صوت مجلس الشيوخ على احتجاج رسمي. تم إعداد وثيقة رسمية موقعة من جميع أعضاء مجلس الشيوخ، موجهة إلى الجنرال بونابرت.

جاء رد بونابرت بعد أسبوع. رسالة من ثلاثة أسطر:

— تقول الرسالة إن «مئة عمل فني وأشياء علمية في آن واحد. اللوحات هي أعمال فنية. أما البقية فهي أشياء علمية. إذا لم تكونوا راضين، يمكنني أخذ المزيد. الخيار لكم.»

فهم ألدروفاندي الرسالة.

بينما كانت الصناديق تجهز، كان أوريتي يكتب. فتح سجله على صفحة اليوم ولاحظ: 15 يوليو 1796. بشارة جيرسينو. زيت على قماش، 248 × 197 سم. تم إسقاطه في الساعة 2 ظهرا على يد جنديين. ظل الإطار قائما. كانت هذه طريقته في المقاومة، ليس الإدانة، بل الشهادة الدقيقة، التاريخ، المقياس، الحقيقة الصريحة.

غادرت صناديق بولونيا إلى باريس في أغسطس 1796. ثلاثون عربة محملة ومئتا جندي في الحراسة. استغرق الطريق شمالا أربعة أسابيع.

راقب أوريتي وألدروفاندي المغادرة، جنبا إلى جنب في فناء القصر، ساكنين، يراقبان العربات وهي تبتعد.

على كل غطاء، كان هناك نفس النقش بالاستنسل: «متحف الفن المركزي، باريس».

عندما اختفت آخر عربة في نهاية الشارع، التفت ألدروفاندي إلى أوريتي.

— لقد أخذوا كل شيء. الكاراتشي. لو غيرسينو. غويدو ريني. آلات جالفاني. شمع ليلي. كل شيء.

— ليس كل شيء، أجاب أوريتي. احتفظت بالكتالوجات. لقد احتفظت بالوصف. لقد احتفظت بالذكرى.

أومأ ألدروفاندي. ثم عاد كل واحد منهم إلى المنزل.

لأن بونابرت حول عينيه نحو روما.

بينما كانت صناديق بارما وموديا وبولونيا تسافر إلى باريس، واصل بونابرت حملته العسكرية. لم يستسلم النمساويون. كانوا يعيدون تشكيل جيوشهم. كانوا يستعدون لهجوم مضاد.

تميز صيف وخريف عام 1796 بسلسلة من المعارك الحاسمة. كاستيليوني في 5 أغسطس. النصر الفرنسي على النمساويين بقيادة ورمسر. باسانو في 8 سبتمبر. وبعد انتصار آخر، دفع النمساويون إلى الخلف شمالا. أركول في نوفمبر. بعد ثلاثة أيام من القتال العنيف على جسر ضيق، كاد بونابرت أن يقتل.

ثم جاء ريفولي، في 14 يناير 1797. المعركة الحاسمة. سحق بونابرت الجيش النمساوي بقيادة ألفينتشي. عشرون ألف سجين. فقد النمساويون شمال إيطاليا نهائيا.

بعد تسعة عشر يوما، في 2 فبراير 1797، استسلمت مانتوا. قاومت المدينة لمدة ثمانية أشهر. محاصرة، جائعة، مدمرة بالتيفوس، ظلت صامدة. لكن بعد ريفولي، لم تعد المقاومة منطقية، واستسلم القائد النمساوي فورمسر.

مع سقوط مانتوا، أصبح شمال إيطاليا بالكامل تحت السيطرة الفرنسية. تم إخضاع الدوقيات.
هزم النمساويون. لم تتحرك فينيسيا، محايدة لكنها مرعوبة.
لم يتبق سوى هدف واحد. الأعظم على الإطلاق.

الفصل الثالث: روما والبندقية (1797)

I — الدخول إلى المدينة الأبدية

وصل مونج وبيرثوليه إلى روما في 25 فبراير 1797. أبهرتهم المدينة رغم أنفسهم. لقد رأوا ميلانو، بولونيا، بارما. لكن روما كانت مختلفة. كانت المدينة الأبدية. *الكاردينال مونديي*. كان معروفا ذلك قبل الوصول.

خرجوا من العربة بالقرب من مبنى الكابيتول. كان التل، القلب السياسي لروما القديمة، يهيمن على المنتدى. امتدت الأطلال بقدر ما تراه العين: أعمدة مكسورة، أقواس انتصار، معابد منهارة، بازيليكات مغطاة بالنباتات. في وسط هذه الآثار القديمة كانت تقف كنائس باروكية، وقصور عصر النهضة، ونوافير ضخمة.

روما كانت مثل الباليمبست. كل عصر ترك أثره: الماضي الوثني، العصور الوسطى المسيحية، عصر النهضة الإنساني، الباروك المنتصر، كل شيء تعايش في مزيج فريد.

تأمل مونج هذا المشهد. كل هذه الحضارات المتراكبة، كل هذه القرون تراكمت في نفس الفضاء.

— مثير للإعجاب، همس بيرثوليه بجانبه.

— أكثر من ذلك. الأمر مرهق. نشعر بثقل التاريخ. كل هذه الحضارات متراكبة. كل هذه القرون المتراكمة.

— وهذا سبب إضافي لأخذ ما هو ثمين. سننقذ هذه الكنوز. الحفاظ عليها للأجيال القادمة.

استقروا في قصر مصادرة بالقرب من الفاتيكان. ومن هناك، كان بإمكانهم الانتقال إلى المجموعات المختلفة: الفاتيكان بمتاحفه الاستثنائية، وكذلك تل الكابيتولين ومجموعاته القديمة، وقصور بورغيزي، باربريني، فارنيزي ومعارض الرسم الخاصة بها، والكنائس التي لا تحصى التي تضم جداريات وتماثيل ولوحات مذابح.

من أين أبدأ؟ كان الاختيار محيرا. احتوت روما على كنوز فنية أكثر من جميع المدن التي زارتها حتى ذلك الوقت مجتمعة.

قطع بونابرت الطريق. كتب إلى مونج في 27 فبراير: ركز أولا على الفاتيكان. أريد *أبولو البلفيدير*. أريد *لاوكون*. أريد كلا البروتوس. ابدأ من هناك. ثم سترى الباقي.

في 28 فبراير، ذهبوا إلى الفاتيكان. استقبلهم الكاردينال دوريا بامفيلي، سكرتير دولة الكرسي الرسولي، وإنيو كويرينو فيسكونتي، أمين المتاحف البابوية.

كان الكاردينال ينتمي إلى واحدة من أعظم العائلات الرومانية. لقد خدمت دوريا البابوية لأجيال، موفرة الكرادلة والدبلوماسيين والإداريين. جسد الكاردينال دوريا هذه الأرستقراطية الرومانية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالكرسي الرسولي.

استقبل الفرنسيين في غرفة بالقصر الرسولي. متقنة، أنيقة، مزخرفة بلوحات جدارية من القرن السادس عشر. زينت الجدران بورتريهات للباباوات. جو من القوة القديمة، من تقاليد عمرها آلاف السنين، يطفو في الهواء.

— أيها السادة، وجودكم هنا يعد إساءة. إهانة للمسيحية. إهانة للكنيسة. إهانة لله نفسه.

رد مونج بهدوء.

— يا صاحب السمو، نحن لا نأتي لإساءة. لقد جئنا لتنفيذ بنود الهدنة الموقعة قانونيا. تنص المادة الثامنة على نقل مئة عمل فني. نحن هنا لتحديد هذه الأعمال.

— هدنة موقعة تحت التهديد! جيوشكم كانت عند أبواب روما! هذا ليست اتفاقا مجانيا، بل هو ابتزاز!

— الشكل القانوني لا يزال ساريا، يا صاحب السمو. المعاهدة الموقعة هي معاهدة موقعة.

كان الكاردينال على وشك الرد عندما قاطعه فيسكونتي بإيماءة.

— صاحب السمو، اسمح لي. أعتقد أننا نضيع وقتنا في مناقشات عقيمة. هؤلاء السادة لديهم أوامرهم. سينفذونها مهما قلنا. من الأفضل أن نركز على الجوانب العملية.

كان فيسكونتي أرستقراطيا. كان والده، جيوفاني باتيستا فيسكونتي، أمينا للمتاحف البابوية قبله. نشر فيسكونتي نفسه عدة مجلدات تسجل فيها التماثيل القديمة. كان يعرف كل غرفة، كل تفصيل، كل قصة.

كان أيضا رجلا عمليا. كان يدرك أن الفرنسيين لا يمكن إيقافهم بالاحتجاجات. الشيء الوحيد الذي كان بإمكاننا فعله هو التأكد من أن الأعمال ستعامل بعناية، وألا تتلف أثناء النقل.

توجه إلى مونج وبيرثوليه.

— أيها السادة، أعتقد أن لديكم قائمة. الأعمال التي ترغب بها بشكل خاص.

— بالفعل، رد مونج، ممدا وثيقة.

تصفح فيسكونتي الوثيقة. ازداد وجهه ظلمة وظلمة.

— *أبولو بلفيدير. لاوكون. جذع بلفيدير.* تماثيل بروتوس. تريد أن تأخذ كل شيء. تريد أن تفرغ الفاتيكان من أغلى كنوزه.

— نأخذ ما هو منصوص عليه في الهدنة. مئة عمل.

— لكن ليس أي قطعة! المئة الأجمل! المئة الأهم! إنه مصمم لإذلالنا. لإظهار المسيحية كلها أن روما مهزومة ومنهبة ومذلولة.

كان فيسكونتي على حق. لم يستطع مونج أن ينكر ذلك. كان هذا هو الهدف. بونابرت أراد رموزا. انتزاع أبولو من الفاتيكان كان يعني انتزاع مكانتها كعاصمة للفنون من روما. تركيب أبولو في المتحف المركزي للفنون يعني نقل هذا الوضع إلى باريس.

— لنبدأ بمتحف بيو-كليمنتينو، قال بيرثوليه. نريد أن نرى التماثيل القديمة.

وقف فيسكونتي بتصلب.

— اتبعني.

مروا عبر سلسلة من المعارض والساحات. كان الفاتيكان متاهة: ممرات لا نهاية لها مزينة بالجداريات، وسلالم ضخمة، وغرف ضخمة. في كل مكان، تراكم لقرون من الثروة والسلطة.

كان متحف بيو-كليمنتينو يشغل جناحا من القصر. وقد أنشأه الباباوان كليمنت الرابع عشر وبيوس السادس لاستضافة التماثيل القديمة. كانت المجموعة استثنائية، فقد جمع الباباوات على مر القرون الرخام المكتشف في حفريات روما: تماثيل يونانية ورومانية، تماثيل نصفية لأباطرة، توابيت منحوتة، فسيفساء. كل ما ورثته ألفي عام من التاريخ.

قادهم فيسكونتي عبر الغرف، موضحا أصل كل قطعة. تحدث بشغف، لكنه أيضا كان بحزن متزايد.

دخلوا قاعة الإلهات. غرفة دائرية جدرانها مغطاة بتجاويف تحتوي على تماثيل. في الوسط، على قاعدة، وقف *جذع بلفيدير*.

كان قطعة من النحت. جذع ذكر بلا رأس، بدون ذراعين، بلا أرجل. فقط الجذع وجزء من الفخذين، الرجل الجالس على جلد حيوان موضوع على صخرة من الرخام البنتيلي. الطول: متر واحد وتسعة وخمسون. الوزن المقدر: ثمانمائة كيلوغرام. لكن يا له من جذع. تم تصميم العضلات بقوة استثنائية. كل عضلة مرئية، متوترة، جاهزة للعمل. كنت تشعر بالقوة الكامنة في هذا الجسد المجزأ. الظهر المنحني قليلا يوحي بحركة ملتوية. كانت عضلات البطن تشكل بروزا واضحا. كانت عضلات الصدر ضخمة.

— النحت اليوناني من القرن الأول قبل الميلاد، شرح فيسكونتي بصوت كئيب. موقع: أبولونيوس، ابن نيستور، من أثينا. التوقيع منقوش على الصخرة التي تعمل كقاعدة. درس مايكل أنجلو ذلك لساعات. رفض استعادتها، معتقدا أن إضافة الأعضاء ستكون تدنيسا.

داعب الرخام برقة.

— هذا العمل أثر على جميع النحت الغربي منذ عصر النهضة. الإغنودي على سقف مصلى سيستين مستوحاة منها مباشرة. شكل هذا الجذع التصور الجسدي المشدود على طريقة ميكيلانجيلو. *يوم* قبر جوليان دي ميديتشي في فلورنسا، *وانتصار قصر فيكيو*. جميع النحاتين الذين أرادوا تمثيل القوة والطاقة الموجودة فيه درسوا هذا الجذع. كان يسمى مدرسة ميكيلانجيلو.

فحص ثوين الرخام، وقيم وزنه، وفكر في لوجستيات النقل.

— النقل ممكن، لكنه حساس. يجب بناء صندوق مبطن. تجنب أي صدمة. يبدو الرخام بصحة جيدة، لكن لا أحد يعلم. قد يظهر شق غير مرئي أثناء الرحلة.

— سنأخذه، قرر بيرثوليه، ملاحظا في قائمته.

انتقلوا إلى الغرفة التالية. قاعة أبولو. وهناك، في فجوة مصممة خصيصا لتسليط الضوء عليها، كان التمثال. *أبولو بلفيدير*. توقف مونج فجأة. لقد رأى نسخا مكررة، ونقوشا، وقوالب من الجبس. النسخة الأصلية أذهلته.

وقف التمثال على قاعدة من الرخام الأحمر. ارتفاعه مترين وأربعة وعشرون، دون احتساب القاعدة. رخام باروس بلون بياض مبهر ومتلألئ الجمال. كان التلميع مثاليا. تحت الضوء المتساقط من النوافذ العالية، بدا الرخام شبه شفاف.

تم تصوير أبولو كشاب، بالكاد خرج من سن المراهقة. عاريا. في وضعية مسترخية وديناميكية. كان وزن الجسم يستند على الساق اليمنى. كانت الساق اليسرى منحنية قليلا، والقدم مستندة إلى الخلف. كانت الذراع اليسرى ممدودة، تحمل قوسا. الذراع اليمنى خفضت، واليد كانت تمسك بسهما اختفى الآن.

كان الرأس موجها إلى اليسار، كما لو أن الإله ينظر إلى المسافة، ربما عدو قتله للتو، ربما منظر طبيعي كان يتأمله. كان التعبير هادئا، يكاد يكون بعيدا. لا مشاعر عنيفة. مجرد نبل هادئ.

كان الشعر مرتبا في تجاعيد معقدة مثبتة بواسطة عصابة رأس. سقطت بعض الخصلات على الكتفين.

كان الجسم مثاليا تشريحيا مطلقا. النسب المثالية. لكل عضلة مكانها، ليست متطورة جدا ولا ضعيفة جدا. كانت الانتقالات بين أجزاء الجسم المختلفة سلسة وطبيعية. كان التوازن المثالي بين القوة والرشاقة، القوة والأناقة.

— نسخة رومانية من أصل يوناني مفقود، يقول فيسكونتي. من المحتمل أنها صنعت في القرن الثاني الميلادي. الأصل كان منحوتة برونزية من القرن الرابع، ربما قبل المسيح، تنسب إلى ليوكاريس، نحات بلاط الإسكندر الأكبر. لكن كل هذا افتراضي. الأصل اختفى. لم يتبق سوى هذه النسخة.

اقترب من التمثال.

— تم اكتشافه في عام 1489 في أراضي الكاردينال جوليانو ديلا روفير، على الأرجح في أنزيو. اشترى الكاردينال جوليانو ديلا روفيري التمثال في الحال. كان هو، عندما أصبح بابا يوليوس الثاني، قد قام بتركيبه في ساحة بلفيدير حيث لا يزال قائما.

التفت فيسكونتي إلى مونج وبيرثوليه.

كتب وينكلمان أنه يمثل أعلى مثال فني بين جميع الأعمال القديمة التي نجت من الدمار. قضى مينغز شهورا في رسمه. تأتي كانوفا لتتأمل. ليس مجرد نحت. إنه النموذج المعياري. النموذج المطلق. المرجع النهائي.

— سبب إضافي لذهابها إلى المتحف المركزي للفنون، أجاب بيرثوليه. لا يمكن لعمل بهذه الأهمية أن يبقى محبوسا هنا حيث لا يراه سوى قلة مميزة.

— بعض الأشخاص المميزين؟ قال فيسكونتي بغضب. الفاتيكان مفتوح! أي فنان لديه توصية يمكنه الحضور ودراسة مجموعاتنا! لدينا تقليد في الضيافة يعود إلى عصر النهضة!

— توصية، بالضبط. يجب أن تعرف شخصا ما. كوني علاقات. هذا غير مفتوح للناس. في المتحف المركزي للفنون، يمكن لأي شخص الدخول. بدون توصية. بدون امتيازات. هذا هو الفرق بين النظام القديم والجمهورية.

كان فيسكونتي على وشك الرد، لكنه كبح نفسه. ما فائدة الجدال؟ قرر الفرنسيون. كان الأبولو سيغادر.

فحص ثوين التمثال من جميع الزوايا. قيم الوزن، وتحقق من نقاط الربط بالقاعدة، وبحث عن أي نقاط ضعف.

— حوالي تسعمائة كيلو، قدر. رخام كثيف جدا. لا توجد شقوق ظاهرة. الذراعان هما ترميمات عصر النهضة. يمكنك رؤية المفاصل. الساق اليمنى أيضا، جزئيا. لكن الجذع والرأس قديمان.

— هل تشكل هذه الترميمات مشكلة في مجال النقل؟

— إنها مصنوعة بإتقان. مثبتة بمسامير برونزية. يجب أن تصمد. لكن عليك التعامل مع الأمر بحذر. إذا انفك ذراع أثناء الرحلة، سيكون ذلك كارثيا.

— إذا تأكد ألا يسقط شيء.

استمع فيسكونتي إلى هذا الحوار باشمئزاز. كان هؤلاء الرجال يتحدثون عن أبولو كأي شيء. حسبوا وزنه. قيمت مخاطر النقل. لم يروا العمل الفني. لم يكن بإمكانهم رؤية سوى كتلة من الرخام لنقلها من النقطة أ إلى النقطة ب.

— أنت لا تفهم. لا يمكنك أن تفهم. هذا التمثال ليس شيئا بسيطا يمكن تحريكه في الوقت الذي يناسبه. له سياق. رابط مع المكان الذي يحتضنه. انتزاعها من هنا هو قتلها روحيا.

رد مونج بلطف.

— السيد فيسكونتي، الرومان أخذوا التماثيل اليونانية وجلبوها إلى روما. لا أحد يوبخهم على ذلك اليوم. بل على العكس، نشكرهم على حفظهم لهذه الأعمال.

— كان الرومان غزاة وحشيين نهبوا بلا خجل. تتظاهر بأنك مختلف. تتحدث عن الحضارة، والتقدم، والتعليم. لكن تتصرف مثلهم. أنتم لصوص تريحون ضمائركم بخطب جميلة.

— ربما. لكن النتيجة هي نفسها. هذه الأعمال ستكون في باريس. ستُرى. ستُدرس. ستثار الإعجاب بها. أليس هذا هو الأهم؟

— لا. الأمر الأساسي هو الاحترام. الاحترام لأولئك الذين يمتلكون هذه الأعمال. احترام رابطهم مع مكان نشأتهم. كل هذا تدوسه.

كان النقاش يدور في دوائر. أخيرا، اتخذ مونج قرارا.

— السيد فيسكونتي، نحن نحترم مواقفك. لكن أوامرنا واضحة. أبولو ستغادر إلى باريس. وكذلك أعمال لاوكون، الجذع، وغيرها من الأعمال في قائمتنا. لا شيء مما تقوله سيغير ذلك.

— فلماذا نتجادل؟ إذا كان كل شيء قد اتخذ، فلماذا هذا التظاهر بالحوار؟

— لأننا بحاجة إلى خبرتك. لتغليف التماثيل. للتأكد من أنها لن تتضرر أثناء النقل. قد ترفض التعاون. لكن في هذه الحالة، سنقوم نحن بالعمل بأنفسنا. مع كل المخاطر التي يحملها ذلك.

فهم فيسكونتي الابتزاز. إما أنه كان يساعد الفرنسيين وأن التماثيل كانت لديها فرصة للوصول سليمة إلى باريس. أو أنه رفض وأنهم يعرضون لخطر الضرر بسبب عدم الكفاءة.

— حسنا. سأتعاون. ليس لمساعدتك، بل لحماية الأعمال الفنية. إنه واجبي كأمين للمتحف. حتى في هذه الظروف.

— نحن نقدر تفانيك.

— أفعل هذا تحت الضغط.

— افعل ما تشاء.

انتقلوا إلى الغرفة التالية. قاعة لاوكون. في الوسط وقفت المجموعة المنحوتة.

تصور لاوكون الكاهن الطروادي وابنيه وهم يتعرضون لهجوم من قبل أفاعي أرسلتها الآلهة. ثلاثة أشخاص متشابكين في صراع يائس. الأب في الوسط، جسده العضلي متوتر من الجهد، رأسه مرفوع إلى الخلف، وفمه مفتوح في صرخة ألم. الأبناء على كل جانب، الأصغر سنا، أيضا محاصرون في حلقات الأفاعي. كان ارتفاع التمثال مترين واثنان وأربعين. رخام باريان. تم اكتشافه في عام 1506 في الشقق الإمبراطورية السابقة عند سفح تل إسكويلين، بالقرب من الكولوسيوم. اشترى البابا يوليوس الثاني التمثال فورا ووضعه في الفاتيكان.

— تحفة فنية من الفن الهلنستي، شرح فيسكونتي. يحتمل أن تكون منحوتة في القرن الأول قبل الميلاد على يد أجيساندروس، بوليدوروس وأثينودوروس من رودس. ثلاثة نحاتين يعملون معا. نرى تعاونهما في التكوين: كل شخصية تعامل بشكل مختلف، لكن الكل يشكل وحدة.

أشار إلى التفاصيل.

— الأب يحتل المركز. هذه هي النقطة المحورية. جسده هو الأكثر تطورا وعضليا. يقاتل بنشاط، محاولا انتزاع الثعبان الذي يحيط به. عضلاته متوترة إلى أقصى حد. نرى الأوردة بارزة. الجلد يتجاعد عند المفاصل.

أشار إلى الرأس.

— التعبير مذهل. وفمه مفتوح. يعبس. رفع عينيه إلى السماء وكأنه يسأل لماذا تعاقبه الآلهة. هذه هي الحزن المأساوي. معاناة الإنسان في مواجهة المصير الحتمي.

ثم أشار إلى الابنين.

— يعامل الصبيان بشكل مختلف. الذي على اليسار، الابن الأكبر، لا يزال يكافح: جسده يقاوم، وعضلاته تنقبض. الشخص على اليمين، الأصغر، يبدو مهزوما بالفعل. جسده ينهار. لقد تخلت قوته. نشعر بالتدرج: الأب البطولي، الابن الأكبر يقاوم، والأصغر يستسلم.

اقترب فيسكونتي من التمثال.

— هذا العمل أثر على عصر النهضة بأكمله. رآه مايكل أنجلو في يوم اكتشافه بالذات. ركض في روما ليعجب بها. غيرت نظرتها للنحت. موسى، العبيد، كل شيء ينبع منه.

لمس الرخام برقة.

— لكن بعيدا عن التأثير الفني، هناك نية أعمق. هذا التمثال يتناول الحالة الإنسانية. معاناة غير ضرورية. عن صمت الآلهة في وجه عذاب الأبرياء.

استمع مونج، مفتونا رغم نفسه. حول فيسكونتي النحت إلى فلسفة. لم يصف التقنية فقط. لقد كشف المعنى، والنطاق الإنساني للعمل.

قاطع بيرثوليه، الأكثر واقعية.

— السيد فيسكونتي، هذه الاعتبارات مثيرة للاهتمام. لكن علينا أن نمضي قدما. هذا التمثال أيضا يغادر إلى باريس. كيف تم تثبيته على القاعدة؟

تنهد فيسكونتي.

— تتكون المجموعة من عدة كتل مجمعة. جسد الأب ضخم. لكن الأذرع، الأرجل، الابنين هي كتل منفصلة. يربطها بأعمدة برونزية وإسمنت. يمكن تفكيك كل شيء لتسهيل النقل.

— ممتاز. سنقوم بتفكيكه. سيكون أكثر أمانا.

— فكك *لاوكون*، تمتم فيسكونتي. افصل الأشكال. كسر وحدة التركيبة. إنه... إنه تجديف.

— تجديف ضروري. من الأفضل تفكيكه نظيف بدلا من المخاطرة بكسر كل شيء أثناء النقل.

لم يكن لدى فيسكونتي إجابة. وقف هناك أمام *لاوكون*، كما لو كان يراه للمرة الأخيرة. أقال مونج فيسكونتي. بدأ العمال.

II — جرد ونهب الفاتيكان

خصصت الأيام التالية للجرد المنهجي لمجموعات الفاتيكان. عمل مونج وبيرثوليه وفريقهم من الفجر حتى الغروب، غرفة زيارة تلو الأخرى، يفحصون منحوتات تلو الأخرى.

رافقهم فيسكونتي في كل مكان. وافق على التعاون، لكن هذا التعاون كان مؤلما. كل عمل مختار أثار تعليقا حزينا منه. كان يروي قصة كل مسرحية كما تروي قصة صديق على وشك أن يفقد.

في معرض الشمعدانات، فحصوا شمعدانات رخامية ضخمة عثر عليها في أنقاض فيلا هادريان في تيفولي. ارتفاعه مترين ونصف. منحوتة بدقة: أكاليل من النباتات ملفوفة حول الأعمدة، وشخصيات أسطورية ترقص على القواعد، والغريفين تحرس القمم.

— هذه الشمعدانات تعود إلى القرن الثاني الميلادي، شرح فيسكونتي. زينت فيلا هادريان. قام الإمبراطور بنحتها من رخام بنتيلي مستورد من اليونان. تشهد هذه الشمعدانات على ذروة الفن الروماني.

لاحظ بيرثوليه: شمعدانان أثريان. أولوية متوسطة.

في معرض التماثيل، قاموا بجرد عشرات التماثيل. الأباطرة الرومان: أغسطس شاب، بوجه هادئ ومثالي. ماركوس أوريليوس، فيلسوف، ملتح ومتأمل. كاراكلا قاسية، بنظرة صارمة. كل بورتريه كشفت عن شخصية الحاكم، حيث تفوق النحاتون الرومان في هذه الواقعية النفسية.

الآلهة أيضا. جوبيتر يدوى، وذراعه مرفوعة ليطلق البرق. جونو مهيبة، مغطاة بردائها. مينيرفا ترتدي خوذتها، تحمل الرمح والدرع. باخوس في سن المراهقة، متوجا بالكروم. كل إله يمثل وفقا للقوانين الأيقونية التي تحددها التقاليد القانونية.

— كم عدد التماثيل في هذه الغرفة؟ سأل مونج.

— ثلاثة وخمسون، أجاب فيسكونتي. كلها مصنفة. كل ذلك موثق. لقد نشرت سبعة مجلدات تصف هذه المجموعات. الآن ستبعثرها.

— نحن لا نتفرق. نركز. في باريس، ستجمع كل هذه التماثيل. ستشكل مجموعة أكثر تماسكا من هنا حيث تتوزع في غرف مختلفة.

— مجموعة متماسكة؟ هل تسمي التماسك حقيقة تمزيق الأعمال من سياقها الذي يعود لألف عام لتكديسها في متحف حديث؟ أنت تحريف معنى الكلمات.

تدخل بيرثوليه بحدة.

— السيد فيسكونتي، نقدر معرفتك الواسعة. لكن ملاحظاتك تبطئ عملنا. فقط زودنا بالمعلومات التقنية التي نحتاجها. الأبعاد. الوزن. حالة الحفظ. الباقي لا يهمنا.

تصلب فيسكونتي.

— أفهم. تريدني أن أصبح مجرد آلة. أنسى أن لهذه الأعمال تاريخا. معنى. روح.

— الأعمال بلا روح. هي أشياء مادية. جميلة جدا. ثمين جدا. لكن الأشياء على أي حال. تسقط مشاعرك عليهم.

— وأنت تقلل من قيمتها إلى مادية فقط. من هو على حق؟ أم القيم الذي يحب الأعمال، أم النهب الذي يراها غنائمة؟

— أنا لست ناهبا. أنا مفوض في الجمهورية الفرنسية ولدي مهمة شرعية.

— شرعي! هل تصبح السرقة شرعية عندما ترتكب باسم الجمهورية؟

تدخل مونج لتهدئة التوترات.

— أيها السادة، لن نتقدم إذا تشاجرنا. السيد فيسكونتي، نحن نفهم موقفك. لكن لدينا مهمة نقوم بها. ساعدنا في القيام بذلك بشكل صحيح. هذا كل ما نطلبه.

أخذ فيسكونتي نفسا عميقا.

— حسنا. لنكمل. لكن لا يفسر صمتي على أنه موافقة. أتعاون تحت الضغط. لا شيء آخر.

دخلوا قاعة التماثيل النصفية. قادهم فيسكونتي عبر المجموعة. قاطعه مونج.

— تماثيل نصفية لبروتوس. هدنة بولونيا تذكرهم تحديدا. هم في الكابيتول، إذا فهمت بشكل صحيح.

— بالفعل، رد فيسكونتي بجفاف جديد. هذه قطع من متاحف الكابيتولين، وليست من متاحفنا. سيتعين عليك الذهاب بشكل منفصل.

— سنذهب. لكن أولا أرنا ما الذي لديك هنا يمكن مقارنته.

قادهم فيسكونتي أمام عدة تماثيل نصفية في مجموعة الفاتيكان. وبعد يومين، ذهب مونج وبيرثوليه إلى متاحف الكابيتولين لأخذ القطعتين المذكورتين في هدنة بولونيا.

كان تمثال جونيوس بروتوس مصنوعا من البرونز. أربعون سنتيمترا ارتفاعا. تصوير صارم لرجل في منتصف العمر ذو وجه صارم. شعر قصير. لحية ناشئة. نظرة جادة وجامدة. كان صورة الجمهوري العنيد، المؤسس الذي طرد الملوك وأسس الجمهورية.

— هذا التمثال النصفي يعود إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، شرح أمين الكابيتول. لكن التماهي مع جونيوس بروتوس افتراضي. ليس لدينا أي يقين. يمكن أن يكون أي شخصية رومانية بارزة من الحقبة الجمهورية.

— لا يهم، أجاب بيرثوليه. تذكر الهدنة هذا بالاسم. إذن هذه هي القطعة التي سنأخذها.

كان تمثال ماركوس بروتوس مصنوعا من الرخام. الأطول: خمسة وستين سنتيمترا. تمثيل لشاب ذو وجه نبيل لكنه معذب. حاجباه معقودان قليلا. شفاه مشدودة. تعبير من العزيمة ممزوج بالشك.

— ماركوس بروتوس، قاتل قيصر، علق مونج بصوت منخفض. رمز المقاومة الجمهورية ضد الطغيان. ولكنها أيضا رمز للغموض الأخلاقي. بروتوس قتل حاميه. هل كان فعله بطوليا أم جريما؟ قتل طغان أم جريمة قتل بسيطة؟ كان الرومان أنفسهم منقسمين حول هذه القضية.

كان بونابرت يريد هذين التمثالين لأسباب رمزية واضحة. جونيوس بروتوس، الذي أسس الجمهورية. ماركوس بروتوس، الذي دافع عنها ضد قيصر. شخصيتان شرعتا الجمهورية الفرنسية، وتوقعا اغتيال الطغاة.

تأمل مونج في التمثالين النصفيين لفترة طويلة.

— هذه التماثيل ستغادر بعد ذلك إلى باريس. للاحتفال بالجمهورية الفرنسية.

قال ذلك بصوت ثابت، لكن شيئا فيه تعثر عند هذه العبارة. جونيوس بروتوس كان قد طرد ملكا. ماركوس بروتوس كان قد قتل رجلا كان يحسب نفسه ملكا. وها هما وجهاهما يُحملان قسرا في صناديق جيش يفرض شروطه على دولة عريقة دون أن يستشيرها — احتفالا، بالتحديد، بحق مقاومة الأقوياء. لم يدون مونج شيئا من هذا في قائمته. أغلق دفتره واستأنف سيره.

استمر المخزون لمدة أسبوعين. بالإضافة إلى التماثيل، زار مونج وبيرثوليه صالات الرسم في الفاتيكان.

احتوت غرفة التوقيعات، التي زينها رافائيل بين عامي 1508 و1511، على أربع جداريات رائعة تمثل مجالات المعرفة البشرية: اللاهوت (*نزاع القربان المقدس*)، الفلسفة (*مدرسة أثينا*)، الشعر (*بارناسوس*)، والقانون (*الفضائل الأساسية والقانون*).

كانت هذه الجداريات من المستحيل تحريكها. كانت واحدة مع الجدران. أي محاولة للانفصال ستدمرها. اضطر مونج وبيرثوليه إلى الاستسلام لفكرة تركهم.

لكن الفاتيكان كان لديه أيضا لوحات متحركة لرافائيل.

بدأت قائمتهم بتحفة فنية مطلقة: *التجلي*، الذي كان المفوضون الفرنسيون قد نزلوه للتو من مذبحه في كنيسة سان بيترو في مونتوريو، على جانيكولوم، حيث كان موجودا منذ عام 1523. أربعة أمتار عشرة في مترين وتسعة وسبعون. كانت آخر رحلة لرافائيل. تم رسم الرسم بالزيت على لوحة خشبية، وبدأ العمل عليه عام 1518 للكاردينال جوليو دي ميديتشي، البابا المستقبلي كليمنت السابع. توفي رافائيل في عام 1520 قبل أن يكملها. كان تلميذه جوليو رومانو قد أكمل الأجزاء السفلية.

كان التكوين جريء. وقد وضع مشهدين كتابيين جنبا إلى جنب: أعلاه، تجلي المسيح على جبل تابور، محاطا بموسى وإيليا؛ في الأسفل، الرسل العاجزون يحاولون شفاء طفل مصاب بالصرع.

كان التباين واضحا. في الأعلى، السكينة الإلهية، النور، السمو، المسيح يطفو في هالة ذهبية. تحتها، الاضطراب الأرضي، الظل، القلق، الرسل يلمحون، همسات الحشد، الطفل يرتجف.

خلق هذه الازدواجية توترا دراميا. وقد طرح السؤال اللاهوتي الأساسي: كيف يتدخل الإلهي في العالم المادي؟ كان جواب رافائيل واضحا: بحضور المسيح المباشر وحده. بدونه، حتى الرسل بلا قوة.

من الناحية التقنية، كان العمل مذهلا. الجزء العلوي، الذي أكمله رافائيل، أظهر براعته المطلقة. كانت شخصيات المسيح وموسى وإيلياهو تتمتع بنعمة لا توصف. كانت الألوان متوهجة: بيضاء زاهية، ذهبية زاهية، أزرق سماوي. التكوين متوازن رغم الحركة الصاعدة.

الجزء السفلي، الذي أكمله جوليو رومانو، كان أغمق. ألوان ترابية. بني، رمادي، أخضر داكن. وشخصيات أثقل وأقل مثالية. كان رومانو يحترم أسلوب معلمه دون أن يصل إلى خفته المتسامية.

— يجب ألا تنتقل هذه الصورة، قال فيسكونتي. إنه هش جدا. اللوح الخشبي قديم. كان يتحرك، ربما يتشقق تحت السطح. قد يسبب النقل أضرارا لا يمكن إصلاحها.

فحص بيرثوليه اللوحة باهتمام. رأى الشقوق في طبقة الطلاء. تشوهات اللوح. الترميمات القديمة التي كانت تتقشر بسرعة.

— سيتم فحصه وتدعيمه قبل النقل. مرممونا ممتازون. سيثبتون اللوح. عزز مفاصل الخشب. ثم سننقلها في الطقس الجاف، متجنبة الصدمات.

— أنت لا تفهم. لا يمكن تدعيم هذا اللوح خلال بضعة أسابيع. سيستغرق الأمر شهورا. وحتى مع أفضل علاج، تظل الرحلة خطيرة. انتظر سنة على الأقل. أعطنا وقتا لتحضيره بشكل صحيح.

— ليس لدينا سنة. أراد الجنرال بونابرت أن تصل الأعمال الرومانية إلى باريس قبل الصيف. سنغادر خلال ستة أسابيع. سواء مع أو بدون تدعيم مسبق.

فهم فيسكونتي أن كل الاعتراضات كانت بلا جدوى. سيغادر التجلي. مهما كانت المخاطر.

— لن يدمر. سيتم إنقاذه. محفوظ.

بالإضافة إلى لوحة التجلي، اختاروا لوحات أخرى.

لوحة *دفن* من قبل كارافاجيو من سانتا ماريا إن فاليسيلا. تركيبة درامية تظهر ستة أشخاص مجتمعين حول جسد المسيح وهم ينزلون إلى القبر. نيقوديموس ويوحنا يحملان الجثة، والسيدة وامرأتان أخريان تبكيان خلفهما، ومريم الكليوفاس ترفع ذراعيها إلى السماء. حولت واقعية كارافاجيو القاسية المشهد الديني إلى دراما إنسانية عالمية. كانت الأجساد ثقيلة، ثقيلة. احتل لوح القبر المقدمة، مبرزا مادية الموت.

توقف فيسكونتي لفترة طويلة أمام هذا العمل.

المسيح عند عمود رخامي من التعبير المتقد، مأخوذ من احتياطيات الفاتيكان. ثم سلسلة من البرونزيات القديمة: تماثيل إمبراطورية، تماثيل نذرية فقدت أصلها الدقيق عبر القرون. قطع بدون اسم، شبه بلا تاريخ، لكنها ذات جودة تنفيذ لا تخدع.

عدة لوحات بيروجينو، أستاذ رافائيل، يرسمون لوحات أومبرية في القرن الخامس عشر. بينتوريكيو بألوان رقيقة. الأخ أنجيليكو من التقوى المضيئة.

تم اختيار ثلاثة وعشرين لوحة بالمجمل. بالإضافة إلى المئة وسبعة منحوتات تم اختيارها بالفعل. بالإضافة إلى مخطوطات مكتبة الفاتيكان التي كان بيرثوليه في طور جردها.

كانت مكتبة الفاتيكان من أغنى المكتبات في أوروبا. تأسست رسميا في عام 1475 على يد البابا سيكستوس الرابع، وقد جمعت على مدى قرون مخطوطات من جميع أنحاء العالم: مخطوطات يونانية ولاتينية، كتب إنجيل مضيئة، رسائل علمية عربية، وكتب قديمة.

تطلبت معاهدة تولينتينو خمسمائة مخطوطة. قضى بيرثوليه أسبوعا كاملا في اختيارهم، بمساعدة رئيس الأرشيف البابوي، المونسنيور بورجيا.

كرس بورجيا حياته للمكتبة. كان يعرف كل مخطوطة، وكل نسخة مطبوعة، وكل نادرة. الآن، في نهاية حياته، رأى المبنى الذي بناه بصبر ينهار.

— ها هو *مخطوطة الفاتيكانوس*، قال مشيرا إلى مخطوطة يونانية. القرن الرابع الميلادي واحد من أقدم الشهود على النص التوراتي. يحتوي على تقريبا كامل الكتاب المقدس باليونانية. إنه مصدر نصي ضروري لتأسيس النص الأصلي.

فحص بيرثوليه المخطوطة. رق أصفر. الخط اليوناني الأونسيال. سبعمائة وتسعة وخمسون ورقة. تجليد من القرن الخامس عشر.

— هذه المخطوطة، نحن نسجلها لقافلة لاحقة.

— لا! احتج بورجيا. إنه أعظم كنز لدينا! بدونه، تتعرض دراساتنا الكتابية للخطر!

— نسخ موجودة. ستتمكن من العمل على نسخ.

— النسخ لا تحل محل الأصل! كل تفصيل مهم! كل تصحيح هامش! كل محو! لا يمكن تحديد النص النقدي إلا من خلال فحص المخطوطات الأصلية!

— في باريس، سيتمكن العلماء الفرنسيون من فحصه. خسارتك هي مكسبهم.

انحنى بورجيا برأسه، مهزوما.

واصل بيرثوليه اختياره. فيرجيل من القرن الخامس، أحد أقدم مخطوطات الإنيادة، يحتوي على منمنمات استثنائية. تيرينس من القرن التاسع مع رسومات هامشية تصور الكوميديا. بطليموس من القرن الثالث عشر مع خرائط مضيئة.

المخطوطات العلمية أيضا. لوحة ديوسكوريدس من القرن السادس تصف النباتات الطبية مع رسومات نباتية. لوحة باليمبسيست لأرخميدس حيث تم شطب النص اليوناني وتغطيته بصلوات بيزنطية، لكن الرسائل الرياضية الأصلية لا تزال مميزة. ترجمات لاتينية لأرسطو أجريت في القرن الثاني عشر.

كتب الإنجيل الكارولنجي ذات الإضاءة الرائعة. كل صفحة كانت تحفة فنية بحد ذاتها: الأحرف الذهبية، مشاهد سردية، حدود النباتات. لقد حقق رسامي المنمنمات في القرن التاسع كمالا نادرا ما يضاهى.

خمسمائة مخطوطة. خمسمائة شاهد على ألفي عام من الثقافة المكتوبة. خمسمائة قطعة لا يمكن تعويضها كانت ستغادر روما إلى باريس.

راقب بورجيا كل هذا بصمت. كان يسجل كل مخطوطة في سجل يحتفظ به لنفسه فقط.

في 15 مارس 1797، تم الانتهاء من الجرد. قدم مونج وبيرثوليه قائمتهما النهائية للكاردينال دوريا: مئة وسبعة منحوتات، ثلاثة وعشرون لوحة، وخمسمائة مخطوطة. بالإضافة إلى حوالي خمسين قطعة مختلفة: ميداليات، صور كاميو، مزهريات أثرية، برونز.

تجاوز المجموع بكثير المئة عمل المنصوص عليه في المعاهدة. لكن بونابرت طور تبريره المعتاد. كانت المئة «أهمية» هي التماثيل الرئيسية، مثل أبولو، لاوكون، الجذع، والبروتوس. أما التماثيل الأخرى فكانت «ثانوية». كانت اللوحات فئة منفصلة. المخطوطات، واحدة أخرى. لم تدرج العناصر المتنوعة في العد.

كان ذلك خطأ قانونيا واضحا. لكن من سيعترض؟ كان البابا قد أهين عسكريا للتو، وأجبر على توقيع معاهدة كارثية. لم يكن يستطيع إلا قبول التفسير الفرنسي.

احتج الكاردينال دوريا رسميا. أرسل رسالة دبلوماسية. وطلب تقليل عدد الأعمال وفقا للمعاهدة. تلقى ردا لاذعا من بونابرت: إذا لم يكن قداسة البابا راضيا عن الشروط التي نطبقها، يمكننا إعادة التفاوض على المعاهدة بأكملها. مع ظروف أكثر سوءا للكرسي الرسولي.

اضطر البابا إلى الانحناء.

بدأ التعبئة في 18 مارس. كان فيسكونتي يشرف على كل عملية. لقد حشد جميع المرممين والحرفيين في الفاتيكان. كان النجارون يصنعون صناديق مخصصة الصنع. صنع الحدادون هياكل تقوية معدنية. كان النساجون يحضرون أقمشة واقية.

تم معالجة التماثيل أولا. كانت الأكثر رقة. صدمة، وسقوط، وقرون من الفن يمكن محوها.

تم إنزال أبولو من قاعدته في 20 مارس. كان من الضروري بناء نظام من الرافعات والبكرات لرفعه دون مخاطرة. كان عشرة رجال يتحركون، بقيادة فيسكونتي الذي كان يصرخ بالتعليمات.

ببطء، مليمتر بعد مليمتر، ارتفع التمثال. تم شد الحبال. ترك الرخام قاعدته. لبضع ثوان مرعبة، طفت أبولو في الهواء، معلقة من الحبال.

ثم أنزل برفق على عربة مبطنة، مستلقيا أفقيا، مشلولا بالأحزمة.

فحص فيسكونتي التمثال بدقة. بحث عن أصغر شق. أدنى وميض. لا شيء. كانت العملية ناجحة.

حملت العربة أبولو إلى ورشة التعبئة التي أقيمت في ساحة الفاتيكان. هناك، كان هناك صندوق خاص ينتظر. جدار مزدوج من خشب البلوط. القش والقماش مبطنان بسماكة خمسة عشر سنتيمترا. أحزمة جلدية لتثبيت التمثال. غطاء مثبت بمسامير برونزية يسمح بفتح سهل للفحص.

وضع التمثال بعناية في الصندوق. تحقق فيسكونتي من أن الحشوة متجانسة، وأنه لا توجد نقاط ضغط، وأن التمثال لا يمكنه التحرك حتى مليمتر.

وبعد أن اقتنع، أذن بإغلاق الصندوق. كان الغطاء مشدودا. كان الصندوق جاهزا للنقل.

وقف فيسكونتي طويلا أمام الصندوق المغلق. في الداخل كان أبولو نائما. غير مرئي الآن. تم تقليصها إلى كتلة مستطيلة من الخشب. لم نعد نرى الجمال. بالإضافة إلى الكمال. صندوق واحد فقط بين صناديق أخرى.

ثم تم علاج لاوكون. على عكس أبولو الذي كان متماسكا، تكونت المجموعة من عدة كتل. تقرر تفكيكه لتسهيل النقل.

استغرقت العملية يومين. كان من الضروري إزالة المسامير البرونزية التي جمعت الأجزاء المختلفة. افصل جذع الأب عن ذراعيه. افصل الابنين. عزل الأفاعي.

كل قطعة كانت معبأة في صندوقها الخاص. بالمجمل، سبع صناديق *للاوكون*. وسيتم إعادة تجميعهم في باريس.

شاهد فيسكونتي هذا التمزيق برعب. رؤية المجموعة المنحوتة مقسمة إلى قطع كانت كرؤية جسد ممزق إلى قطع. انكسرت الوحدة الفنية. لم يعد لاوكون موجودا. لم يكن هناك سوى شظايا من الرخام في صناديق.

— أنت تدمر العمل، قال لثوين، الذي كان يشرف على العملية. تم تصور هذه المجموعة ككل. فصله يعني قتله.

— سنعيد تجميعه كما كان. بنفس المسامير. في نفس الموقع. لن يرى أحد الفرق.

— أنت لا تفهم. الأمر ليس مسألة الرؤية. إنها مسألة وجود. لاوكون لن يكون أبدا كما كان من قبل.

هز ثوين كتفيه.

— أنا أعمل في اللوجستيات. وظيفتي هي نقل هذه الرخاميات إلى باريس دون أن تكسرها. إذا اضطررت لتفكيكها لذلك، فأنا أفككها.

تبع ذلك التماثيل الأخرى. *جذع بلفيدير* في علبته المبطنة. تماثيل نصفية لبروتوس ملفوفة بالقماش. الأباطرة الرومان، والآلهة اليونانية.

طرحت اللوحات مشاكل مختلفة. بعضها رسم على ألواح خشبية، مثل لوحة التجلي. وأخرى على القماش. كل وسط كان يتطلب علاجا محددا. تم تفكيك التجلي من إطاره. تم تثبيت اللوح الخشبي بقضبان تعزيز، ثم لف بقماش زيتي.

كانت المخطوطات أسهل في التعبئة. كل واحدة كانت ملفوفة بورق مناديل، ثم بقماش، ثم وضعت في صندوق فردي. احتلت الخمسمائة مخطوطة عشرين صندوقا كبيرا.

في 2 أبريل 1797، كان كل شيء جاهزا. مئة وسبعة وثلاثون صندوقا مصطفة في فناء الفاتيكان. كانت تحتوي على القلب الفني لروما. ألفي عام من التراكم. كنوز الأباطرة والباباوات وجامعي الكرادلة.

وكل هذا كان سيذهب إلى باريس.

تم تشكيل القافلة في الصباح. ثلاثة وعشرون عربة للصناديق الأولى، الأثقل، التماثيل. مرافقة من ثلاثمائة جندي بقيادة الجنرال ميوليس. العمال للمساعدة في التحميل والتفريغ. يقوم المرممون بفحص حالة الأعمال على طول الطريق.

جاء فيسكونتي ليشهد المغادرة. وقف على درجات كنيسة القديس بطرس، يراقب العربات وهي تحمل واحدة تلو الأخرى.

اقترب منه مونج.

— سيد فيسكونتي، أردت أن أشكرك على تعاونك. بدون خبرتك، لما تمكننا من تغليف هذه الأعمال بهذه الدقة.

نظر إليه فيسكونتي ببرود.

— لا تشكرني. لم أفعل ذلك من أجلك. فعلت ذلك من أجل العمل. لكي ينجو من رحلتك.

— أنا أفهم. ومع ذلك، فإن موقفك يفرض الاحترام.

— حافظ على احترامك. احتفظ بأعمالنا بتقدير. رمموها. حافظ عليها. لأننا يوما ما سنعود لنأخذها. عندما تهزم فرنسا. عندما تثور أوروبا على غرورك. في ذلك اليوم، سنستعيد ما يخصنا.

— ربما. المستقبل سيكشف ذلك.

— ربما لا. بالتأكيد. للتاريخ دوراته. الإمبراطوريات تسقط. توازن القوى يتغير. أنت منتصر اليوم. سوف تهزم غدا.

مد يده إلى مونج. ليس بدافع الصداقة. لكن من باب المجاملة الرسمية.

صافح مونج بيده الممدودة.

انطلقت القافلة حوالي الظهر. مرت العربات عبر روما. تردد صوت العجلات على الحصى في الشوارع الضيقة. خرج الرومان إلى عتبة أبوابهم لمشاهدة الموكب يمر.

بعضهم كان يبكي. وكان آخرون يلقون اللعنات. بعضهم بصق على الأرض عندما مر الجنود الفرنسيون. كان الجو ثقيلا ومهددا. ظل الحراسة العسكرية يقظة. قد تندلع أعمال شغب في أي لحظة.

لكن لم يحدث شيء. شاهد الرومان كنوزهم وهي تختفي في صمت.

غادرت القافلة روما عبر بوابة الشعب. سلكت طريق فيا فلامينيا شمالا. الوجهة: باريس. ألف ومئتي كيلومتر.

ظل فيسكونتي على درجات كنيسة القديس بطرس حتى اختفت آخر عربة. ثم عاد إلى الفاتيكان. في مكتبه. جلس على طاولته. فتح سجله.

وبدأ يكتب. كان يدون كل عمل اختفى. مصدرها بالضبط. قصته. ظروف إزالتها. كتب بحذر، مكونا كل حرف بشكل مميز. دقة الإيماءة لم تعوض عن أي شيء، لكنه استمر.

وفي هذه الأثناء، تم تشويه روما. الفاتيكان نُهب. تضاءلت المدينة الأبدية.

على بعد خمسمائة فرسخ من روما، في البحيرات الشمالية، كانت عاصمة أخرى تنتظر دورها.

III— سقوط البندقية وخيول *القديس مرقس*

واصل بونابرت حملته. هزمت النمسا، لكنها لم تخضع بعد بشكل نهائي. استمرت مفاوضات السلام. سعت فيينا إلى الحد من الخسائر الإقليمية. طالب بونابرت بتعويضات ضخمة.

وفي هذه الأثناء، كان مشغولا بالبندقية. حاولت جمهورية سيرينيسيما، التي كانت دولة مستقلة لألف عام، أن تبقى محايدة خلال الحرب. لكن حيادها كان يميل نحو النمسا. كان بونابرت يبحث عن ذريعة للتدخل.

ظهرت هذه الذريعة في أبريل 1797. اندلعت أعمال شغب مناهضة للفرنسيين في فيرونا. قتل جنود فرنسيون. ندد بونابرت بتواطؤ الحكومة البندقية. طالبت باعتذار. الإصلاحات. رؤوس.

لم يكن مجلس الشيوخ الفينيسي، وهو حكومة أوليغارشية مكونة من نبلاء، يعرف كيف يتصرف. بعضهم أراد المقاومة. وآخرون يخضعون. التردد شل المؤسسة.

لم ينتظر بونابرت. في 1 مايو 1797، أعلن الحرب على البندقية. احتلت قواته البر الرئيسي، الأراضي القارية للجمهورية. في 12 مايو، وصلوا إلى شواطئ البحيرة التي تواجه البندقية نفسها.

كانت المدينة منيعة من اليابسة. بنيت على جزر صغيرة، ولم يكن بالإمكان غزوها إلا من قبل الأسطول. لكن بونابرت لم يكن لديه أسطول. تم حصار البحرية الفرنسية من قبل الإنجليز.

لكنه لم يكن بحاجة لغزو البندقية عسكريا. مجرد التهديد كفى. في 12 مايو 1797، وتحت ضغط فرنسي، صوت مجلس الشيوخ الفينيسي لصالح حل نفسه. انهار ألف عام من الجمهورية في يوم واحد.

تنازل الدوج الأخير، لودوفيكو مانين، عن العرش. خلع قبعة الدوقية وسلمها لخادمه قائلا: «لن أحتاجها بعد الآن.» ثم عاد إلى المنزل، محطما من عار ترأس نهاية السيرينيسيما.

أقام بونابرت حكومة مؤقتة. تم استبدال جمهورية البندقية ببلدية ديمقراطية يسيطر عليها الفرنسيون. تم تدمير رموز النظام القديم بشكل منهجي.

تم تمزيق أسود سان ماركو — شعار البندقية — من الواجهات العامة. أحدهم، الأسد البرونزي المجنح، تم إنزاله من عموده. عملية مذهلة تطلبت سقالاتات ورافعات. الأسد، رمز القوة البندقية الذي يعود لألف عام، أصبح الآن موضوعا على حصى الساحة.

كان شعار البندقية طُرق أينما ظهر. النقوش التي تمجد السيرينيسما كانت مخدوشة. كان النسر الإمبراطوري للهابسبورغ أحيانا يحل محل الأسد، حيث كان بونابرت قد قرر بالفعل تسليم البندقية للنمسا كجزء من مفاوضات السلام.

كان ذلك خيانة ساخرة. تظاهر بونابرت بالدفاع عن الحرية للإطاحة بالحكومة البندقية. الآن كان يبيع البندقية للنمسا الملكية. الحرية كانت مجرد ذريعة. كان السبب الحقيقي استراتيجيا: الحصول على امتيازات في ألمانيا من فيينا مقابل البندقية.

لكن قبل أن يتنازل بونابرت عن المدينة للنمساويين، كان ينوي نهبها.

وصلت الأوامر إلى باريس في بداية يونيو. كان من المقرر أن يغادر تكليف فني جديد إلى البندقية. المهمة: إزالة روائع البندقية قبل أن تخضع المدينة للسيطرة النمساوية.

بحث الديركتوار عن متطوعين. رفض مونج ذلك بشكل قاطع. شارك في بعثات ميلانو وروما. كان ذلك كافيا. لم يرغب أبدا في المشاركة في هذه العمليات مرة أخرى. أن نجد شخصا آخر.

قبل بيرثوليه دون تردد. لم يكن لديه، على الأقل كما اعتقد، أي تحفظات على هذه المهمات. بالنسبة له، كانت وظيفة مثل أي وظيفة أخرى. نظم. الجرد. اجمع الأغراض. السفينة. مهام تقنية يعتقد أنها لا تثير أي أسئلة أخلاقية.

غادر في بداية يوليو مع فريق صغير: ثوين للوجستيات، ويكار وغوفييه كخبراء، وستة عمال تعبئة متخصصين. أعطاهم بونابرت شهرا. كان يريد أن تغادر الأعمال الفينيسية قبل التنازل الرسمي عن المدينة للنمسا.

وصل بيرثوليه إلى البندقية في 15 يوليو 1797. أذهلته المدينة. لقد رأى ميلانو، روما، بولونيا. لكن فينيسيا كانت فريدة من نوعها. مبنية على الماء. لا شارع. فقط القنوات والجسور. القصور ترتفع مباشرة من البحيرة. هندسة معمارية مستحيلة تتحدى قوانين الفيزياء.

كانت المدينة في حالة حداد. لقد أنهى الاحتلال الفرنسي ألف عام من الاستقلال. كان آخر دوج قد تنازل عن العرش قبل شهرين. تم حل المجلس الكبير. تم تدمير رموز سيرينيسيما بشكل منهجي.

تجول البندقيون على قنواتهم كالأشباح. تحطم كبرياؤهم. تاريخهم محو. مستقبلهم غير مؤكد. بعضهم تعاون مع المحتل. قاوم آخرون بشكل سلبي. معظمهم كانوا يعانون، مستسلمين.

انتقل بيرثوليه إلى قصر مصادرة على القناة الكبرى. من هناك، كان بإمكانه الوصول بسهولة إلى المجموعات الرئيسية. قصر الدوق مع كنوزه التي تراكمت على مر القرون. أكاديمية الفنون الجميلة ومجموعتها من البدائيات الفينيسية. السكولي — الأخويات الدينية — تضم دورات من اللوحات السردية. الكنائس التي لا تحصى مزينة بالمذابح والمنحوتات وأعمال الصائغ.

ولكن قبل كل شيء، كانت هناك بازيليك القديس مرقس. وعلى واجهته، المطل على الساحة الرئيسية، توجد أربعة خيول برونزية.

كانت خيول سانت ماركو أسطورية. في القرن الثامن عشر، كان يعتقد أنها ذات أصل يوناني، وهي أعمال تعود للقرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد. لكن العلماء المعاصرين أصبحوا يميلون الآن إلى التاريخ الروماني. القرن الثاني أو الثالث الميلادي كان لديهم تاريخ مضطرب. من المحتمل أنها زينت مضمار الهيبودروم في القسطنطينية. في عام 1204، خلال الحملة الصليبية الرابعة، نهب البندقيون العاصمة البيزنطية، وجلبوا غنائم هائلة. كانت الخيول الأربعة جزءا من هذه الغنيمة. منذ عام 1204، هيمنوا على واجهة سان ماركو. تم تركيبها على الشرفة فوق المدخل الرئيسي، وكانت رمزا حقيقيا للبندقية. وقوتها البحرية. من ثروته. من مجده.

الآن بونابرت أرادهم. كان يريد هذه الخيول لباريس. ليثبتهم على قوس النصر الذي كان يخطط لبنائه. أو ربما على واجهة المتحف المركزي للفنون. لم يكن يهم الموقع بالضبط. الأمر الرئيسي كان إبعادهم عن فينيسيا. لنقل هذا الرمز للقوة من البحيرة إلى نهر السين.

ذهب بيرثوليه إلى سان مارك في 16 يوليو. استقبله أمين القيم، فيليبو فارسيتي. لقد خدم آل فارسيتي الجمهورية لأجيال. الآن، لم تعد هذه الجمهورية موجودة. وكان فيليبو شهدا على نهب البازيليك التي خدمها لمدة ثلاثين عاما.

— السيد بيرثوليه، أعرف لماذا أنت هنا. أنت جئت من أجل الخيول.

— بالفعل. أمر الجنرال بونابرت بنقلهم إلى باريس.

— هذه الخيول هي فينيسيا. لقد كانوا هنا منذ خمسمائة وثلاثة وتسعين عاما. أخذها يعني تمزيق قلب المدينة.

— السيد فارسيتي، دعني أذكرك بشيء. هذه الخيول ليست من موطنة فينيسيا. أجدادك أخذوها من القسطنطينية. كانت بالفعل في حالة نهب. الآن نفعل ما فعلته فينيسيا قبل ستة قرون.

شحب وجه فارسيتي.

— كيف تجرؤ؟ لمقارنة الفتح المجيد للقسطنطينية على يد صليبيينا بغنائمكم القذرة؟ حرر البندقيون هذه الخيول من البيزنطيين المنحطين. لقد كرموها. محفوظ. تسرقها من أجل مجدك الشخصي.

— الاختلاف في المنظور مثير للاهتمام. عندما تنهب فينيسيا، يكون ذلك مجدا. عندما تجمع فرنسا، يكون ذلك سرقة. لكن النتيجة واحدة: الخيول تغير مالكيها.

— هناك فرق جوهري. احتلت البندقية القسطنطينية بعد حصار بطولي. لقد حصلت على البندقية بالخيانة. لقد استغليت فرقنا. لقد تلاعبت بفصائلنا. لقد أجبرتم مجلس شيوخنا على الحل.

— لست مهتما بالتفاصيل السياسية. لدي أوامر. أنا أعدمهم. الخيول ستغادر إلى باريس. الآن، اجعل من السهل علي الوصول إلى الشرفة. يجب أن أنظر إليها.

اضطر فارسيتي للانحناء. قاد بيرثوليه وثوين إلى الشرفة عبر درج ضيق داخل البازيليك. خرجوا تحت أشعة الشمس الكاملة على الرصيف المطل على ساحة سان ماركو.

وهناك وقفت الخيول الأربعة.

كل واحدة منها كانت بطول مترين وثلاثة وثلاثين سنتيمترا. برونز مذهب ذو جودة استثنائية. تم تصميم تشريح الحيوانات بدقة كبيرة: عضلات مشدودة، عروق بارزة، عرف مجعد. كانت الرؤوس تدار في اتجاهات مختلفة، مما خلق حركة ديناميكية.

في الأصل، ربما كانت هذه الخيول تسحب رباعيا اختفى الباقي. صممت لترى من الأمام، في حركة، تجسد القوة والسرعة.

كانت حالة الحفظ مذهلة. خمسة قرون ونصف من التعرض لطقس فينيسيا لم يسبب سوى أضرار طفيفة. الطبقة الخضراء على البرونز حمت المعدن. كانت هناك بعض الشقوق الظاهرة، لكن لا شيء هيكلي.

فحص ثوين الخيول من جميع الزوايا. اتخذ إجراءات دقيقة. حسب الوزن. درس أنظمة التثبيت.

— حوالي تسعمائة كيلو لكل حصان، قدر ذلك. المجموع: أكثر من ثلاثة أطنان ونصف. تثبت على المدرج بواسطة ألواح برونزية مثبتة بالمسامير. يمكن فصلها بسهولة نسبيا. المشكلة ستكون في النزول.

— ما هو الطول؟ سأل بيرثوليه.

— على بعد عشرين مترا من أرض الساحة. يجب بناء نظام من الرافعات والسقالات. الأمر ممكن، لكنه معقد. إذا انزلق الحصان، يسقط ونحن معه.

— كم من الوقت تحتاج؟

— أسبوع واحد لصنع المعدات. ثم ثلاثة أيام للنزول نفسه، مع تقدم حصان بعد حصان. إذا سارت الأمور على ما يرام.

— وماذا لو حدث خطأ؟

— تحطم الخيول الساحة وتحولت إلى أكوام من البرونز بلا شكل.

— إذا تأكد أن الأمور تسير على ما يرام. يبدو أن بونابرت مرتبط جدا بهذه التماثيل. إذا فقدناها، سيحاسبنا.

تدخل فارسيتي، الذي استمع إلى هذا الحوار.

— إذا تحطم حصان، فلن يبقى لفينيسيا سوى ثلاثة. وأنتم، لن يبقى لكم سوى شظايا من البرونز. فكروا في الأمر قبل التسرع.

هز بيرثوليه كتفيه.

— الخيول ستذهب. هذا كل ما يهم.

استغرق الأمر شهورا من التحضير. مفاوضات مع الحكومة المؤقتة. انتظار التفويض النهائي من باريس، المرتبط بالمحادثات الفرنسية-النمساوية حول التنازل عن فينيسيا. تصنيع معدات رفع خاصة كان على حدادي الترسانة دراستها لعدة أسابيع. بدأت العملية في 29 نوفمبر. بنى النجارون سقالات ضخمة مقابل واجهة سان ماركو. صنع الحدادون سلاسل وخطاطيف يمكنها تحمل وزن التماثيل. كان صانعو الحبال يضفرون كابلات معززة خاصة.

انتشرت الأخبار في أنحاء البندقية. جاءت الحشود لمشاهدة التحضيرات. بعضهم كان يبكي. وألقى آخرون الشتائم. دعا بعض المتشددين إلى المقاومة المسلحة. اضطرت الحامية الفرنسية لتعزيز الأمن. وقف الجنود للحراسة ليلا ونهرا لمنع أي تخريب.

في 3 ديسمبر، كان كل شيء جاهزا. بدأوا بأول حصان، حصان اليسار المتطرف. كان من الضروري أولا فصلها عن قاعدتها. كانت البراغي البرونزية التي ثبتت الوضع منذ عام 1204 متآكلة. انكسر عدة منها عندما تم محاولة فكها. كان لا بد من قطعها، وهي عملية دقيقة استغرقت ساعات.

وأخيرا، حوالي الظهر، تم تحرير الحصان. تم تمرير سلاسل حول جسده، مثبتة بنظام البكرة. ثم بدأ الهبوط.

سحب عشرون رجلا الحبال للتحكم في السرعة. أشرف ثوين على ذلك، يصرخ بالأوامر، ويضبط التوتر. نزل الحصان ببطء. كانت حوافره تلامس الواجهة. في عدة مناسبات، تأرجح بشكل خطير. كان يمكن سماع أصوات صرير مزعجة في السقالات.

وأخيرا، حوالي الساعة الرابعة، لمس الحصان الأرض. سليمة. كانت العملية ناجحة.

لكن هذا النجاح التقني لم يقلل من شعور الانتهاك. رأى البندقيون رمزهم الأقدس ممزقا من موقعه الذي يعود لألف عام. نزلت كجسم فظ. مستلقيا على حصى الساحة.

انهمرت الدموع. امرأة أولا، ثم عدة نساء، ثم كل الحشد. لم يكن أحد يصرخ. لم يتحدث أحد. فقط هذه النحيبات التي تتصاعد من كل مكان في آن واحد، مختلطة بصرير الحبال.

تم إنزال الخيول الثلاثة الأخرى في الأيام التالية.

في 11 ديسمبر، اصطفت الخيول الأربعة في ساحة سانت ماركو. قام بيرثوليه بفحصها من قبل مرممين. كانت التماثيل في حالة جيدة رغم الهبوط الخطير. بعض الخدوش السطحية.

— لا تلمس أي شيء، أمر. لا تنظيف. سنشحنها كما هي. في باريس، سيقرر الأخصائيون العلاج المناسب.

كانت الخيول معبأة بشكل فردي في صناديق ضخمة مبطنة. كل صندوق كانت تزن أكثر من طن.

في 13 ديسمبر، غادرت القافلة فينيسيا. أربع عربات تحمل الخيول. مئتا جندي مرافقة. العمال للمساعدة في المراحل الصعبة. كانت رحلة طويلة — عدة أشهر عبر أنكونا وتولون والرون — قبل أن تصل الخيول أخيرا إلى باريس.

على واجهة كنيسة سان ماركو، بقيت أربع قواعد فارغة. فجوة مفتوحة إلى الفراغ. تشويه واضح للمدينة.

فقدت البندقية استقلالها. لقد فقدت حكومتها الألفية. فقدت مكانها في حفل الأمم. والآن كانت تفقد خيولها. رمزها.

كان المجلس الكبير قد حل نفسه في 12 مايو. منذ ذلك اليوم، لم تعد البندقية موجودة كجمهورية. لا تزال المدينة موجودة كمدينة—القصور، القنوات، أبراج الأجراس، أسواق ريالتو، الحشود في ريفا ديلي شيافوني—لكن ما جعل المدينة كيانا سياسيا اختفى مع تصويت 512 صوتا للتنازل و20 ضد. أطول جمهورية في تاريخ الغرب أنهت نفسها في نصف ساعة من الجلوس، تحت تهديد المدافع الفرنسية المتمركزة عند مدخل البحيرة.

تولى بيرثوليه منصبه في البندقية في يوليو. كان يعمل منذ ثلاثة أسابيع عندما التقى بموروسيني لأول مرة.

وقد دعي إلى الاجتماع من قبل البلدية المؤقتة، وهي الهيئة الحاكمة اليعاقبة والباتريكية التي أنشأها الفرنسيون بعد حل المجلس الكبير. أقيمت في غرفة غادرها دوج مانين قبل شهرين

عندما وضع غطاء الرأس الذي يرمز إلى منصبه دون أن ينطق بكلمة للحشد المتجمع في ساحة الساحة. كانت الغرفة لا تزال مؤثثة كما في زمن الجمهورية: طاولات عمل، شمعدان فضي، صورة دوج من القرن السابق على الجدار. لم يقرر أحد بعد ماذا يفعل به.

مثل موروسيني البلدية. رافقه رجلان آخران — محامٍ يدعى كويريني ومسؤول في الأرشيف لم يتذكر بيرثوليه اسمه. جلس ثوين بجانب بيرثوليه.

— معاهدة كامبو-فورميو، أعلن بيرثوليه،— تنسب إلى فرنسا الأعمال الفنية التي خصصتها اللجنة. نحن هنا لإعداد القائمة وتنظيم العينات وفقا للقواعد.

— حسب القواعد، كرر موروسيني. نعم.

لم يكن هناك سخرية في صوته. فقط حيادية تامة، نبرة رجل قرر ألا يكون له رأي في أي شيء.

— سنبدأ بسان جورجيو ماجوري، تابع. الزفاف *في قانا* لفيرونيزي.

قال كويريني: *الزفاف في قانا* ملك للمجتمع البندكتي. ليس للجمهورية. حل المجلس الكبير لا يؤثر على حقوق الملكية للمؤسسات الدينية.

— تنطبق المعاهدة على كامل الأراضي البندقية ومؤسساتها، أجاب بيرثوليه. تملك اللجنة السلطة على جميع المجموعات، العامة والخاصة.

— نبدأ صباح الغد. سان جورجيو ماجوري. سأطلب منك أن تكون حاضرا.

— سأكون هناك، قال موروسيني.

IV— سان جورجيو ماجوري: الزفاف *في قانا*

في اليوم التالي، عبر بيرثوليه البحيرة في جندول. غطى ضباب الصباح الماء. كانت جزيرة سان جورجيو ماجوري تظهر ببطء، وبرج جرس بالاديو يبرز أمام السماء البيضاء. لم يكن هناك شيء يشبه هذا في أي من المدن التي زارها.

دخل الدير من الباب الجانبي. قاد رئيس الدين، الأخ جيامباتيستا، بيرثوليه إلى قاعة الطعام دون كلمة.

دخل الغرفة.

توقف.

كان القماش يحتل طول الجدار الخلفي بالكامل—تسعة أمتار، أربعة وتسعين سنتيمترا عرضا، وستة أمتار سبعة وسبعين ارتفاعا. كان فيرونيزي قد رسمته بين عامي 1562 و1563 لقاعة الطعام هذه، لهذا الجدار تحديدا، بأمر من رهبان البينديكتين الذين طالبوا باحتلاله بالكامل للجدار. صاغ العقد الأمر بشكل لا لبس فيه: *بنفس العرض والارتفاع مثل الجدار الأمامي، شاغلا المساحة*. حافظ فيرونيزي على هذه الالتزام. لم تكن اللوحة زينة موضوعة على جدار. كانت الجدار.

— الزفاف في قانا: مئة وثلاثون شخصا في الوليمة، المسيح في الوسط، العذراء بجانبه، العروس والعريس في أقصى اليسار كما لو كانا مجرد إكسسوارات لحفلتهما. الحياة الفينيسية في القرن السادس عشر بكل روعتها من حولهم. موسيقيون على منصة في المقدمة، خدم يحملون جرار، سيدات يرتدين حريرا لامعا، شخصيات ترتدي عمائم من الشرق، ببغاء، كلاب عند قدم الطاولة. ترتفع العمارة البالادية نحو سماء زرقاء، وتمتد أعمدة أعمدة المطعم الحقيقي، مما خلق استمرارية مكانية بين المبنى المعيشه والوليمة الممثلة. تناول الرهبان الطعام في صمت لمدة قرنين أمام هذا الجدار، وأقيمت وجبة المسيح أمامهم في نفس الوقت، في مكان خيالي كان نسخة مطابقة تماما من مكانهم.

تقدم بيرثوليه إلى وسط الغرفة وتوقف. على هذه المسافة—حوالي عشرين مترا، وهي المسافة التي حسبت منها فيرونيزي منظوره—عمل الوهم بالكامل. بدت الأعمدة المرسومة في الثلث العلوي من اللوحة وكأنها ترتفع فوق الجدار الفعلي. كان السماء الزرقاء تبدو مفتوحة. بدت المئة والثلاثون شخصا على قيد الحياة.

ثم اقترب من السطح على بعد مترين فقط.

كانت تقنية فيرونيز مرئية من هذه المسافة. عمل بالزيت على القماش، مطبقا طبقات متتالية من الطلاء الشفاف على تحضير واضح. تم تصميم بياض مفارش الطاولات — الأبيض الرصاصي المعزز في بعض الأماكن مع الأصفر النابولي — بواسطة لطخات متتالية لخلق طيات وظلال. الأحمر في الستائر، الذي تم الحصول عليه من خلال وضع اللون الأحمر الأحمر واللني، كان يشع من عمق لم تستطع النسخ المنقوشة تقديمه. كانت الأخضر — وهي صفات فيرونيزي، أخضر بارد يميل قليلا إلى الأزرق — يهتز بشكل مختلف حسب زاوية الرؤية، ويتغير قيمته مع الضوء الطبيعي المتساقط من النوافذ الجانبية. كان هذا الضوء الطبيعي هو ما حسبت من أجله قيمه. إزالة القماش من هذا الفضاء يعني إزالة القماش من ضوءها.

حدد الشخصيات واحدة تلو الأخرى.

في مركز التكوين المطلق، المسيح، هالة الذهبي، الرداء الأبيض، وجهه الهادئ موجه نحو المشاهد. العذراء على يمينها مباشرة، يمكن التعرف عليها من خلال الحجاب الداكن. قال البعض إنه حجاب من الحداد، تجسيد للآلام في فرحة وليمة الزفاف. العروسان والعريس، اللذان كانا في أقصى يسار الطاولة، مجرد شاهدين في مجموعتهما. حولهم، كان الرسل والضيوف يرتدون زي فينيسي من القرن السادس عشر، يمزجون بين الأزياء الغربية والشرقية كما في موانئ سيرينيسيما.

في المقدمة، احتل منصة من الموسيقيين الموقع المركزي تحت المسيح. وفقا للتقاليد، يمثل الموسيقيون الأربعة أعظم أساتذة المدرسة الفينيسية: فيرونيزي نفسه يرتدي الأبيض، يحمل فيولا دا براتشيو؛ تيتيان باللون الأحمر مع الكمان؛ أكمل تينتوريتو وجاكوبو باسانو الرباعية. كان التشابه مع البورتريهات الذاتية المعروفة لهؤلاء الرسامين غير كاف لتحديد ذلك بيقين. لكن الفرضية كان لها منطق: فيرونيزي يستدعي في لوحته الخاصة جيلا كاملا

من الرسامين، مدرسة كاملة تمثل نفسها في ذروة مجدها. على طاولة الموسيقيين، ساعة رملية. كان زمن مهمة المسيح قد بدأ للتو، لكنه كان معدوما.

عند قدم الطاولة، كلبان مربوطان بنفس المقود. قزم يرتدي زي مهرج نظر إلى المشاهد بثبات مقلق قليلا. كان خادم يقطع اللحم على شرفة في الخلفية. ستة أواني حجرية في المقدمة، تلك التي طلب المسيح أن تملأ بالماء. تحول الماء إلى نبيذ. المعجزة التي اختارت فيرونيزي ألا تمثلها مباشرة (لا إيماءة ثوماتورجية، ولا تحول مرئي)، بل أن تترك ضمنيا في ذهول الخادم الذي يتذوق كأسه بشكل خفي.

لم ير بيرثوليه اللوحة إلا في نسخ مكررة. النسخة الأصلية سحقته.

لاحظ ثوين الأبعاد. اقترب وقال بصوت منخفض:

— تسعة أمتار وسبعون. لا يمكن نقلها بشكل مسطح. صلبة جدا بحيث لا يمكن لفها على طبلة عادية. لا يمكنك صنع صندوق بهذا الحجم.

لم يجب بيرثوليه على الفور. واصل النظر إلى اللوحة. ظل الأخ جيامباتيستا على العتبة، ويداه مدفونتان في أكمام رداءه.

— نقطعها، قال بيرثوليه.

صمت في الغرفة.

— في كم شريط؟ سأل ثوين.

— سبعة. يمكن لف كل شريط بشكل منفصل. نلصقها معا مرة أخرى في باريس.

سمع الراهب. خطا خطوة للأمام، ثم توقف. لم يكن هناك ما يقول. كان بيرثوليه قد نطق «نقطعها» بنفس الصوت الذي كان سيستخدمه لعبارة «نحملها».

وصل ثلاثة رجال بمعداتهم، سكاكين رفيعة الشفرات، مساطر معدنية، طباشير بيضاء لرسم الإرشادات. وضعوا أدواتهم على أرضية القاعة الحجرية دون ضوضاء. كانوا قد عملوا بالفعل في ميلانو وبارما وبولونيا. كانوا يعرفون مهمتهم.

جاء الأخ جيامباتيستا خلال تلك الفترة. كان قد وضع نفسه على الجدار الجانبي، وذراعيه بجانبيه. كان هناك أخ أصغر يقف خلفه. لم يتكلم أي منهما بينما أنهى ثوين حساباته بصوت منخفض.

اقترب ثوين من القماش بمسطرته المعدنية، موضحا القطع كما لو كان يكشف عن مشكلة هندسية.

— سبعة شرائط بعرض متقارب، كل منها حوالي متر واحد وأربعين. ارتفاع ستة أمتار وسبعة وسبعين سيسمح بتدوير الأسطوانة دون إجهاد مفرط على طبقة الطلاء، بشرط أن يكون قطر الأسطوانة كافيا. على الأقل ستين سنتيمترا. الخياطة الأصلية لفيرونيزي موجودة بالفعل في اللوحة: فقد رسم على عدة شرائط من الكتان مجمعة معا. يمكن متابعة اثنين أو ثلاثة دون ضرر. بالنسبة للشقوق الأربعة المتبقية، يجب اختيار خطوط تمر عبر مناطق السماء أو العمارة، حيث يكون الكسر أقل وضوحا عند لصقها.

أشار إلى المناطق بطرف قلمه، دون أن يلمس السطح المرسوم.

— يمر الخط المركزي للقطع بين مجموعة المسيح ومنصة الموسيقيين.

نظر بيرثوليه إلى المكان المشار إليه. بين المسيح في الوسط والموسيقيين الذين يعزفون. بين المقدس والدني. كان القطع سيعبر هذا الحد الدقيق.

حينها تحدث رئيس الدير.

— بيرثوليه.

استدار بيرثوليه. لم يقل الأخ جيامباتيستا شيئا آخر للحظة. نظر إلى الخطوط الخيالية التي رسمها ثوين ذهنيا على اللوحة.

— تم رسم هذه اللوحة لقاعة الطعام. حسب فيرونيزي منظوره بناء على المسافة بين هذا الجدار والطرف الآخر من هذه الغرفة. حسب قيمه بناء على ضوء هذه النوافذ. إذا أزلت من هنا، وقطعت إلى سبع قطع وأعيد لصقها معا، فلن يكون كما هو الآن.

— سيكون في المتحف المركزي للفنون، أجاب بيرثوليه. عشرات الآلاف من الناس سنويا سيتمكنون من رؤيته.

— سيشاهدون لوحة مقطوعة إلى سبع قطع وأعيد لصقها معا، ممزقة من المكان الذي صمم من أجله، ومن الضوء الذي رسم من أجله.

— سيشاهدون فيرونيز.

خفض رئيس الدير جفونه. لم يعد لديه حجة منطقية. لم تعد الجمهورية موجودة. لم يعد هناك حكومة يمكن الشكوى لها، ولا محكمة يمكن الاستيلاء عليها. ما تبقى كان محميا فقط بحسن نية الرجل الذي وقف أمامه. وكان للنوايا الحسنة هنا قوانينها الخاصة.

— ليس لدينا اعتراض على تقديمه. لم يعد لدينا الحق في الاعتراض.

أشار إلى أول مرمم.

ركع الرجل ورسم خطا عموديا أول بالطباشير على بعد ثلاثين سنتيمترا من الحافة اليسرى للوحة، مارا في السماء المرسومة فوق الأعمدة. الخط الأبيض يعبر سماء فيرونيز من الأعلى إلى الأسفل، نظيفا ودقيقا، غير مبال.

خرج الأخ الأصغر، الذي كان يقف خلف الرئيس. بقي الأخ جيامباتيستا.

أطلقت الطعنة الأولى على القماش صوتا قصيرا، يكاد يكون دقيقا. قاوم قماش الكتان في البداية، ثم انهار تحت النصل. عمل المرممون على شكل أربعة، اثنان يمسكان القماش الممدود على جانبي الشق بينما كان الخامس يوجه الشفرة على طول خط الطباشير. كل شبر يفصل إلى الأبد ما تصوره فيرونيزي وحدة. تقدم الشق للأسفل، منتظم، ميكانيكيا.

لاحظ ثوين. أبعاد الشريط الأول، حالة الطبقة التصويرية على حواف القسم، توتر قماش الكتان.

راقب الأخ جيامباتيستا بلا حراك.

بعد فصل القطعة الأولى — المسيح والعذراء على جانب، والموسيقيون على الجانب الآخر، والخط الأبيض من الطباشير أصبح مقطوعا نظيفا في لحم القماش — قام المرممون بتدوير القسم بعناية على طبلة خشبية. ثم اتخذوا مواقعهم في المرة الثانية.

بعد الشريط الأول، خرج بيرثوليه إلى ساحة الدير. كان الهواء في البحيرة منعشا. وقف هناك للحظة، وعيناه مغلقتان.

لم ينظر إلى الأشرطة التالية.

في اليوم التالي، عبر بيرثوليه بيازيتا في الصباح الباكر. كان قصر الدوج يمتد على طول الواجهة الجنوبية بأكملها لحوض سان ماركو. القوطي الفينيسي، مستويين من الأروقة المفتوحة يحملان أرضية كاملة بألماس رخامي أبيض ووردي، وخفة القاع تدعم عتامة الأعلى، وهو عكس منطق البناء العادي الذي كان يخص البندقية فقط. كان موروسيني ينتظره تحت قوس المدخل الرئيسي.

كان لودوفيكو موروسيني آخر مسؤول عينته الحكومة المؤقتة لمرافقة اللجنة الفرنسية في جردها. رجل من عائلة باتريكية طيبة خدم الجمهورية في مناصب إدارية مختلفة ووجد نفسه الآن يقود الأجنبي عبر أروقة ما كان مركز قوة البندقية. فعل ذلك بدقة تامة وغياب تام عن المشاعر الظاهرة.

صعدوا الدرج الذهبي، المغطى بالجص الأبيض والمذهب، الذي كلف به سانسوفينو تحت قيادة دوغات بريولي، ودخلوا غرف المؤسسات في الطابق الثاني.

كانت أول غرفة فحصها بيرثوليه بجدية هي غرفة مجلس العشرة. كان المجلس أكثر الهيئة رعبا في الجمهورية. هيئة دائمة مسؤولة عن أمن الدولة، بصلاحيات تحقيق وحكم لا يمكن لأي شيء أن يحدها، تعمل عبر التصريح المجهول، مع أفواه الأسود المدمجة في جدران المدينة تتلقى الانتقادات من المواطنين. الدولة داخل الولاية. تم تزيين الغرفة وفقا لذلك: سقف بتسع حجرات تهدف إلى الإشارة إلى سلطة المجلس وشرعية أحكامه.

كانت الحجرة المركزية عبارة عن تركيب بيضاوي من عمل فيرونيزي، رسمت بين عامي 1553 و1556: *المشتري يصعق الرذائل*. فحص بيرثوليه السقف.

كان المشتري يحتل مركز التركيبة، جالسا في الغيوم، مع صاعقة الرعد مرفوعة. حوله وتحته، كانت أشكال ساقطة — هرطقة، شهوة، فساد، تمرد — خرجت من السماء بإرادة الإله. كان التكوين بيضاويا، يهدف إلى رؤيته من زاوية منخفضة من أرضية الغرفة. حسب فيرونيزي طرقه المختصرة وفقا لذلك: بدت الأجساد الساقطة وكأنها تندفع نحو المشاهد، أطرافها ملتوية في حركة من التفكك تخلق انطباعا بالدوار. كانت الألوان—أزرق السماء، لحم لامع، ستائر حمراء دافئة—هي ألوان فيرونية كاملة، دون أي ثقل من التصرفات الرومانية.

كانت الرسالة واضحة بلا لبس: الرذائل التي عاقبها مجلس العشرة كانت الرذائل التي ألغاها جوبيتر نفسه. العدالة البندقية والعدالة الإلهية كانتا واحدا.

— الأبعاد؟ سأل بيرثوليه ثوين.

قاس ثوين. كان التكوين البيضاوي حوالي مترين وأربعين سنتيمترا. محمول. كان الإطار مصنوعا من الخشب الذهبي، مثبتا على السقف المغلف بواسطة أنظمة تعليق. قابل للتعافي مع العناية.

— سنأخذه.

نظر موروسيني إلى التركيبة البيضاوية للحظة، ثم أشاح بنظره إلى الحجرات الجانبية التي ستبقى. بقيت اثنتان من فيرونيزي في مكانهما — *جونو تصب هداياها على البندقية* واستعارة عن الشباب والشيخوخة. ما سيبقى هو المركز، التركيز، الشخصية التي تعطي معنى للكل. ما سيبقى هو هوامش تأليف قد انتزع قلبه.

— سيبقى هناك نسخة واحدة.

— نعم، قال موروسيني. سيبقى هناك نسخة واحدة.

كانت الأنتيكوليجيو هي الغرفة التي ينتظر فيها السفراء الأجانب والوفود التي ينتظر استقبال المجلس، وهي الهيئة التنفيذية للجمهورية، وتتكون من الدوج والسافي والسينيوريا. كانت الغرفة متواضعة الحجم، مما جعلها أكثر حدة: كانت الأعمال ترى عن قرب، في مساحة ضيقة تعزز حضورها.

على الجدران الأربعة، رسم تينتوريتو أربع تركيبات أسطورية، كل منها يبلغ ارتفاعه حوالي مترين. فحصها بيرثوليه واحدة تلو الأخرى.

عطارد والنعم الثلاث : نزل عطارد نحو الإلهات الثلاث، التي التفت أجسادهن العارية حول بعضها في حركة من السلاسة المذهلة. كان تينتوريتو قد تعامل مع اللحم ببريق مميز، حيث تظهر لؤلؤه البيضاء من ظلال عميقة تكاد تكون مخملية. كانت الاستعارة سياسية: عطارد، إله التجارة، جاء ليبارك النعم الثلاث التي تمثل الفضائل التي أسست ازدهار البندقية.

حدادة فولكان : الإله الأعرج يعمل في حدادته، محاط بالسايكلوب، عضلاته متوترة من شدة الجهد. تركيبة داكنة، بألوان حمراء جمرة وسوداء دخانية، مختلفة جدا عن خفة الجمال الهوائية في فرقة Graces.

مينيرفا تبعد المريخ عن السلام والوفرة : إلهة الحكمة ترفض إله الحرب، بينما في الخلفية السلام والوفرة، شخصيات نسائية جالسة بهدوء، تمثل مثل الجمهورية المثالية. كان البرنامج الأيقوني شفافا: فقد فضلت البندقية الدبلوماسية على الحرب، والتجارة على الفتح.

أريادني، فينوس وباخوس : الأكثر هوائية بين الأربعة. نزل باخوس من بين الغيوم نحو أريادني المهجورة، والزهرة تحوم فوقهم في سماء مضيئة. الأجساد معلقة في الفضاء، والستائر تطفو بدون جاذبية. أظهر تينتوريتو قدرته على إلغاء الجاذبية.

— هؤلاء الأربعة؟ سأل ثوين.

تأمل بيرثوليه. أربع دبابة تينتوريتو رئيسية، قابلة للنقل، في حالة ممتازة. كل واحد منها حوالي مترين ارتفاعا وعرضهما مترين. قابلة للدحرجة بدون قطع.

— هذه تبقى.

أغلق موروسيني عينيه للحظة. ثم فتحها مرة أخرى. لم يسمع خطأ.

— هذه اللوحات الأربعة تشكل دورة، قال بعد توقف. تم رسمهما معا، لهذه الغرفة، لهذا الجهاز الدقيق. وعندما يفصلون عن سياقهم، يفقدون تماسكهم الأيقوني. إن جدران الكلية الأنتيكوليجيو نفسها هي التي تعطيها معناها: فبدون انتظار السفراء، وبدون بروتوكول الجمهور، وبدون التنقل من غرفة إلى أخرى، فهي ليست سوى أربع مشاهد أسطورية.

لاحظ ثوين. كان هناك تينتوريتو في أماكن أخرى. مدرسة سان روكو، سان جورجيو ماجوري. غرف معزولة، دون عبء التمثيل الدبلوماسي الذي يجعلهما لا ينفصلان عن مكانهما.

لم يقل موروسيني شيئا. كانت هذه أول مرة، منذ بداية الجرد، التي يتم فيها إعفاء غرفة بسبب حجة غير الاستحالة المادية.

كانت غرفة الكلية أكثر الأماكن تمثيلا للطموحات الزخرفية للجمهورية. وهناك استقبلت الدوجي رسميا السفراء، وعقدت الكلية جلساتها العامة، وأعلنت قرارات الدولة رسميا. ونتيجة لذلك، أوكلت الزخرفة إلى فيرونيزي وحده، التي نفذته بين عامي 1575 و1582.

كان السقف مقسما إلى أحد عشر حجرة بأحجام مختلفة—مستطيلة وماسية متناوبة—كل منها يحتوي على رمز. رسمت فيرونيزي الفضائل التي أسست المثل المثالي للحكومة الفينيسية: الإيمان يحمل الكأس والصليب، العدالة بالسيف والميزان، الاعتدال يصب الماء في النبيذ، السلام المتوج بأشجار الزيتون، الاعتدال، اليقظة، والأخيرة يمكن التعرف عليها من خلال الرافعة التي تحمل حجرا في قدمها المرفوعة، وفقا للأيقونات التقليدية. كانت الشخصيات النسائية تطفو في سماء مضيئة، وستائرهن تتلألأ بالأخضر والفضي الذي يميز أسلوب فيرونيز المتأخر.

كان ثوين يقيس حجرات السقف.

— ألواح السقف مدمجة في هيكل من الخشب المشغول، والزخارف، والكورنيس، والإطارات المدمجة في الإطار. لتفكيكها دون إتلافها، ستحتاج إلى بناء سقالات، وفك المسامير واحدة تلو الأخرى، وخفض كل لوحة بشكل مسطح. خشب الإطارات قديم. الخطر حقيقي في كل مرحلة.

— الوقت المقدر؟

— بالنسبة للمقصورات الإحدى عشرة: ثلاثة أسابيع على الأقل. مع خطر فقدان الألواح إذا انهار الخشب.

حسب بيرثوليه. ثلاثة أسابيع كانت ثلث الوقت الذي تركه قبل المواعيد النهائية التي حددها بونابرت. وكانت المقصورات الأحد عشر تمثل أعمالا لفيرونيزي، لكنها رمزية، فضائل

بلا وجه محدد، وبدون روعة سردية للمؤلفات العظيمة. في سان سيباستيانو، كان هناك فيرونيون أكثر سهولة وتمثيلا.

— نترك السقف.

موروسيني، هذه المرة، لم يغلق عينيه. حدق في السقف بصمت للحظة طويلة، فضائل الجمهورية تطفو في سمائها المشرقة الثابتة واللامبالية.

— هذه قصتنا. ليست استعارة. قصتنا.

— كل مجموعة تتكون من تاريخ الآخرين، أجاب بيرثوليه. هذا هو مبدأ المتحف العالمي.

لاحظ ثوين. تم استدعاء المرممين.

V — الكنائس المسروقة

في الأيام التالية، زار بيرثوليه الكنائس البندقية. كانت مليئة بالروائع. كان لدى فينيسيا أكثر من مئتي كنيسة، العديد منها يحتوي على مذابح ولوحات من أساتذة.

بمجرد وصوله في يوليو، بدأ بيرثوليه في جرد مجموعات البندقية. كان بونابرت يريد أكثر من الخيول. كان يريد أجمل لوحات المدرسة الفينيسية. التيتانيون، الفيرونيزيون، التينتوريتوس الذين كانوا مجد السيرينيسيما.

كان لفينيسيا تقليد تصويري فريد في إيطاليا. بينما كانت فلورنسا تفضل الرسم والديسيغنو، وتكوين روما الضخم، طورت فينيسيا فن الألوان، وهو التلوين. لم تكن هذه الخصوصية صدفة. وقد تم تفسيرها بتاريخ وجغرافية المدينة.

كنيسة سانتا ماريا ديلا سالوتي، وهي بازيليكا باروكية تقع عند مدخل القناة الكبرى، بنيت كوقف بعد الطاعون العظيم عام 1630. هيمنت هندسته الدائرية على البحيرة لمدة مئة وعشرة عاما. وصل إليه بيرثوليه في جندول، وصعد القناة الكبرى عند الغسق.

دخل غرفة التخزين المقدسة. زينت السقف ثلاث لوحات كبيرة لتيتيان: *ذبيحة إبراهيم*، *قابيل وهابيل*، *ديفيد وجالوت*، أعمال من نضجه الكامل، رسمت في أربعينيات القرن السادس عشر لكنيسة سان سبيريتو في إيزولا، ثم نقلت إلى هنا في عام 1656. تركيبات بألوان داكنة وعميقة، بقوة درامية لافتة، وعنف العهد القديم تم تقديمه بصرامة لا تحمل أي نعمة مضيئة لصعود الفراري.

— هؤلاء التيتيان لا يمكن نقلهم، شرح الكاهن الحارس. هي مثبتة على السقف، مصممة لترى من الأسفل. فصلها سيستغرق أسابيع وسيخاطر بتدميرها.

نظر بيرثوليه إلى الأعلى. في الواقع، كانت اللوحات الثلاث موضوعة في السقف المغلق، محسوبا لرؤية منخفضة الزاوية.

— هذه تبقى، قرر.

ارتسمت على وجه الكاهن ارتياح غير ملحوظ. على الأقل كان التيتيون في غرفة التخزين سيكونون في حالة عفو. على الأقل سيبقى شيء ما.

شعر بيرثوليه تقريبا بالانزعاج من هذا. في ميلانو وروما، قاتل المحافظون. جادلوا. احتجوا. شهدوا. هنا، في البندقية، كان الاستسلام. قبول سلبي.

لكن ربما يمكن تفسير هذا الاختلاف. كانت ميلانو وروما وبولونيا لا تزال موجودة. كانوا مشغولين ومهينين، لكنهم نجوا ككيانات سياسية. أما البندقية، فقد اختفت. لم تعد الجمهورية موجودة. الحكومة قد حلت. كانت المدينة تنتظر أن تمنح للنمسا. كان مجرد جثة سياسية. لماذا تدافع الجثة عن نفسها؟

في كنيسة سان جيوفاني إي باولو، وهي كنيسة قوطية ضخمة دفن فيها خمسة وعشرون دوجا، فحص بيرثوليه لوحة متعددة الأشكال لجيوفاني بيليني. تسع لوحات تصور قديسين وشهداء يحيطون بعذراء بعظمة. الرسم القديم، من الجيل الفينيسي الأول، لا يزال يميز القوطية المتأخرة.

كان بيليني هو المؤسس. الشخص الذي بدونه لم يكن أي من ما حدث بعده، جورجيوني، تيتيان، تينتوريتو، لكان ممكنا.

قاس ثوين. حسب. فحص المثبتات.

— تم تثبيت الإطار في بناء الحنية منذ القرن الخامس عشر. البراغي صدأت في الحجر. لفتح الحجر كله، كان يجب هدم جزء من الجدار. والألواح الخشبية صلبة جدا بحيث لا يمكن فصلها دون خطر تشققها.

نظر بيرثوليه إلى اللوحة متعددة الأشكال لبضع لحظات. كان للعمل جودة لا يمكن إنكارها. لكن أجزاء أخرى كانت تنتظر، والوقت ينفد.

— ننتقل. هناك المزيد من البليني في الأكاديمية.

أغلق رئيس دير سان جيوفاني إي باولو، الذي شاهد المشهد دون أن يجرؤ على التدخل، جفونه. القوة كانت لها الأولوية على الحق.

من كنيسة سان سيباستيانو، التي زينها فيرونيزي بالكامل في الفترة من 1555 إلى 1565، أخذ بيرثوليه أربع لوحات. ليس الجداريات على السقف — التي لا يمكن نقلها — بل لوحات متحركة تمثل مشاهد من العهد القديم. أظهرت أستير التي توجها أهاسويروس روعة فينيسية: عمارة ضخمة، أزياء فاخرة، ألوان متلألئة.

بدأ بيرثوليه بقصر الدوق. احتوت على دورات من اللوحات التاريخية التي تحتفي بعظمة السيرينيسيما. كانت الغرف الضخمة — غرفة المجلس الكبرى، غرفة الكلية، غرفة مجلس الشيوخ — مزينة بالكامل بالجداريات واللوحات الضخمة.

أمين القصر، ألفيزه موروسيني، ينتمي إلى واحدة من أقدم عائلات النبلاء الفينيسية. كرس حياته لسيرينيسيما. سقوط الجمهورية في مايو كسرها. منذ ذلك الحين، كل يوم يجلب إذلالا جديدا. وافق على مضض على الإشراف على المجموعات في محاولة للحفاظ على ما لا يزال يمكن حفظه.

— السيد بيرثوليه، أعرف لماذا أنت هنا. أنت تأتي من أجل اللوحات، كما جئت من أجل الخيول.

— بالفعل. أمر الجنرال بونابرت بجرد كامل لمجموعات البندقية. سيتم نقل أهم الأعمال إلى باريس.

— الإنسانية! أعتقد أنك ستشرح لي أنك تتصرف نيابة عن البشرية. أن الأعمال ستكون أفضل في باريس. سيكون هذا الوصول عالميا. وأن نهنئ أنفسنا على النهب.

كان موروسيني يرتدي أردية رتبته السوداء بوقار لا شيء يستطيع أن يخفف منه. كانت نظراته تعبر عن حزن بارد، بلا غضب، حزن من فقد كل شيء بالفعل.

— باريس هي عاصمة الجمهورية الأوروبية الأولى، أجاب بيرثوليه. المدينة التي أعلنت فيها حقوق الإنسان.

— كانت البندقية جمهورية قبل فرنسا بوقت طويل، أجاب موروسيني. منذ القرن الحادي عشر. ألف عام من التقاليد الجمهورية. لكنها كانت جمهورية أرستقراطية، لذا لا يهمك ذلك. فقط جمهوريتك هي التي تحتسب. الذي ينهب، يضطهد، يدمر.

— السيد موروسيني، أرني المجموعات. لدي قائمة بالأعمال التي نرغب في الاطلاع عليها. كلما بدأنا أسرع، انتهينا أسرع.

انحنى موروسيني. لم يعد لديه القوة للجدال.

كانوا واقفين في غرفة انتظار لقصر الدوق. من خلال النافذة، كان بإمكانك رؤية البحيرة تتلألأ تحت شمس يوليو. انزلقت الجندول بصمت فوق الماء. كانت فينيسيا تعيش ببطء، كما لو كانت نائمة في حزنها. لقد استنزف الاحتلال الفرنسي المدينة من طاقتها. كان الفينيسيون يمارسون أعمالهم اليومية، لكن بلا فرح وبدون كبرياء. مثل الآلات الآلية التي تؤدي إيماءات بلا معنى.

لم يسمح بيرثوليه لنفسه بأن يتأثر بهذه الاعتبارات. وقد سمع نفس الحجج في ميلانو، وبولونيا، وروما. دائما نفس الاعتراضات. دائما نفس عدم الفهم. لم ير هؤلاء الإيطاليون التقدم الذي مثله تركيز الأعمال. ظلوا مرتبطين بخصوصياتهم المحلية، غير قادرين على تصور المصلحة العامة للبشرية.

قاده موروسيني عبر الممرات. قاعة المجلس الكبير أولا. مساحة شاسعة بطول أربعة وخمسين مترا وعرضها خمسة وعشرون مترا حيث كان يجلس مجلس ماجيور كونسيليو، وهو تجمع من النبلاء الفينيسيين يصل عدد أعضائهم إلى ألفي عضو. كانت واحدة من أكبر القاعات في أوروبا، وربما أكبر غرفة لا تدعمها الأعمدة في العالم.

كانت الجدران مغطاة بالكامل بلوحات تحتفي بتاريخ البندقية. معارك بحرية. استقبالات السفراء. مراسم رسمية. كل لوحة تروي حلقة رائعة من السيرينيسيما. شكل كل ذلك سردا بصريا ضخما لألف عام من تاريخ البندقية.

احتل جنة تينتوريتو الجدار الخلفي بأكمله. يبلغ ارتفاعها ما يقرب من سبعة أمتار ونصف وعرض أربعة وعشرين مترا ونصف. أكبر لوحة على القماش تم رسمها على الإطلاق.

تركيبة رائعة تظهر المسيح والعذراء في الوسط، محاطة بخمسمائة شخصية: قديسون، ملائكة، مباركون، أنبياء، آباء. كلها مرتبة في دوائر متحدة المركز تخلق حركة دوامة، دوامة غامضة تمتص النظرة نحو المركز الإلهي.

— عمل تينتوريتو على هذا العمل من 1588 إلى 1592، شرح موروسيني. كان عمره سبعين عاما عندما بدأها. ثلاثة وسبعون أو أربعة وسبعين عندما أنهى اللوحة. إنه وصيته الفنية. وهو مزيج من مسيرته المهنية بأكملها. انظر إلى التكوين: إنه يدور. كل شخصية مرتبطة بالأخرى من خلال الإيماءات، والنظرات، والستائر. الكل يخلق حركة كونية. رقصة سماوية.

فحص بيرثوليه بانتباه. كانت اللوحة ضخمة. مستحيل الحركة. الإطار نفسه كان واحدا مع الجدار. تم دمجها في هندسة القاعة. أي محاولة لتفكيكه ستستغرق شهورا ومن المحتمل أن تدمر العمل.

— هذا يبقى، قرر بعد الفحص. لا يمكن نقلها. سنأخذ تينتوريتو أخرى إلى مكان آخر.

لكن الأعمال الأخرى في الغرفة كانت متحركة. على الجدران الجانبية، كانت لوحات فيرونيزي وبالما الصغرى تصور معارك بحرية، واستعارات للجمهورية، ومشاهد تاريخية. كل واحدة منها تبلغ حوالي ثلاثة في مترين. أبعاد ضخمة، لكنها قابلة للنقل بالوسائل المناسبة.

توقف بيرثوليه أمام *معركة ليبانتو* التي نفذها أندريا فيتشينتينو. احتفل العمل بالنصر البحري العظيم للبندقية عام 1571 ضد العثمانيين. كان الأسطول المسيحي بقيادة دون خوان النمساوي قد سحق الأسطول التركي في خليج كورنث. وقد أوقف هذا النصر التوسع العثماني في البحر الأبيض المتوسط.

صور فيتشينتينو المعركة بدقة وثائقية. احتلت السفن الفينيسية بأشرعتها المنفوخة المقدمة. كان الجنود يرتدون دروعا لامعة يقاتلون على الأسطح. كانت المدافع تنفث النار. في الجنة، دعمت المسيحيين استعارات النصر والإيمان. كانت الألوان فاخرة: الأخضر العميق للبحر، الأحمر الزاهي للرايات، الذهب اللامع للدروع.

— هذه، قال بيرثوليه مشيرا إلى قائمته، «سنأخذها.»

— لا، احتج موروسيني. هذه المعركة هي فخرنا. آخر انتصار كبير لنا. بعد ليبانتو، بدأت فينيسيا في التراجع. لكن على مدى قرنين من الزمن، كنا نحتفل بهذا اليوم. هذه اللوحة جزء من ذاكرتنا الجماعية.

— إذا يجب أن يذهب إلى باريس. يصور الرسم التاريخي الفينيسي بشكل مثالي. التكوين، اللون، الحركة. كل شيء موجود.

— قصتك ستبقى في الكتب، في السجلات، في الذاكرة. سيتم حفظ اللوحة بشكل أفضل في باريس. مرممونا ممتازون. ظروف التخزين المثلى لدينا. هذا العمل سيبقى لفترة أطول في المتحف المركزي للفنون مما سيبقى هنا في هذه الغرفة الرطبة.

لم يجب موروسيني. لم يكن الأمر أنه مخطئ في أرضه. كان ذلك لأنه كان مرهقا من الدفاع عن أرض لم يأت أحد في هذه الغرفة للاستماع إليها.

واصلوا الجرد. اختار بيرثوليه ثماني لوحات من قاعة المجلس الكبير. فيرونيزي، بالما الأصغر، باسانو.

ثم زاروا قاعة البوابات الأربعة. كانت هذه الغرفة المنتظرة تستخدم كممر بين غرف الدولة المختلفة. على الرغم من وظيفته الثانوية، إلا أنه كان مزخرفا بشكل غني. على أحد الجدران، كان هناك تيتيان يصور دوج أنطونيو غريماني راكعا أمام الإيمان. رسم رمزي تم تكليفه في عام 1555 للاحتفال بانتخاب الدوق.

تم تصوير غريماني في ملامح جانبية، مرتدية ملابس احتفالية، راكعة أمام شخصية نسائية ضخمة تجسد الإيمان المسيحي. كان القديس يحمل صليبا وكأسا. خلفها، كانت فينيس تجسد، التي يمكن التعرف عليها بأسدها، تراقب المشهد. في السماء، كان الملائكة يحملون صفات القوة الدوقية.

كان ارتفاع العمل ثلاثة أمتار ونصف. أبعاد ضخمة، لكنها قابلة للنقل. كان الإطار مثبتا على الجدار، لكنه كان بالإمكان تفكيكه. بدت حالة الحفظ جيدة رغم مرور قرنين ونصف منذ إنشائها.

درس بيرثوليه هذه اللوحة. تركيب رائع. لكنها كانت صورة للدوج غريماني، رمز سياسي كبير. كانت عائلة غريماني لا تزال مؤثرة. أخذ هذه اللوحة سيخلق توترات غير ضرورية.

— هذا ما زال هناك، أعلن بيرثوليه. التعقيدات السياسية لا تستحق العناء.

— رمز لتاريخنا لا يزال في البندقية، تمتم موروسيني بارتياح. كان دوج غريماني أحد أعظم قادتنا. أعاد السلطة الفينيسية بعد سنوات صعبة.

— لقد اكتفى من تيتيان، أضاف، مشيرا إلى قائمته.

تم اختيار ما مجموعه اثني عشر لوحة من قصر الدوج. لم تكن ضخامة ضخمة مقارنة بمئات الأعمال التي احتوى عليها القصر. لكن الاثني عشر كانوا من بين الأهم. الأكثر رمزية. أولئك الذين جسدوا عظمة البندقية بأفضل شكل.

VI— فراري وسان سيباستيانو

قضى بيرثوليه الأيام القليلة التالية يتنقل عبر المدينة.

على عكس روما حيث تركزت الأعمال في الفاتيكان وفي بعض القصور الكبيرة، كانت الأعمال في البندقية متناثرة في أنحاء المدينة. كل كنيسة في الحي، وكل أخوية دينية، وكل دير كان له كنوزه.

هذا التشتت عكس تاريخ البندقية. لم يكن لدى الجمهورية محكمة مركزية كما في فلورنسا أو روما. تم توزيع السلطة بين العائلات النبيلة الكبرى. كان لكل عائلة مصلى خاص بها، وكنيستها المرجعية، وتكليفاتها الفنية. وقد خلق هذا اللامركزية ثروة فنية مشتتة لكنها هائلة.

كانت كنيسة سانتا ماريا غلوريوزا دي فراري، المعروفة عادة باسم الفراري، واحدة من أهم الكنيسة في البندقية. كانت بازيليكا قوطية كبيرة بناها الفرنسيسكان في القرن الرابع عشر، وكانت بمثابة بانثيون لعدة دوجات وعائلات كبيرة. كانت أبعادها ضخمة: مئة ومترين طولا، وعرض اثنين وثلاثين مترا تحت الصحن، وارتفاع ثمانية وعشرون مترا تحت القباب.

كانت فراري موطنا لاثنين من التيتانيين الرئيسيين. *هيمنت صعود العذراء* على المذبح الرئيسي. مذبح ضخم بارتفاع ستة أمتار وتسعين وثلاثة أمتار وعرضه ستين. التكوين الهرمي في ثلاث مجموعات: في الأسفل، يرفع الرسل أذرعهم نحو السماء؛ وفي الوسط، ماري رايزينغ، يحملها موسيقيون ملائكة؛ في الأعلى، يظهر الله الآب في مجد ذهبي لاستقبال والدته.

وقد أحدث هذا العمل، الذي رسم بين عامي 1516 و1518، ثورة في الرسم الفينيسي. قبل تيتيان، كانت لوحات المذابح الفينيسية تتبع إلى حد كبير التقاليد البيزنطية: شخصيات هيراطيقية، تركيبات ثابتة، خلفيات مذهبة. أدخل تيتيان الحركة، والمشاعر، والدراما. خلقت فرضية الفيلم ديناميكية تصاعدية لا تقاوم. تبعت النظرة مريم نحو السماء، محفورة بدافع الملائكة.

كانت الألوان زاهية. اهتز لون عباءة ماري الأحمر بشدة استثنائية. استخدمت تيتيان الزنجفر النقي، وهو صبغة باهظة الثمن، لكنها لا تضاهى مع الأحمر الفاخر. كان يخلطها مع لاكر ماددر ليصنع ظلالا مختلفة. طبقت كل شيء في طبقات متراكبة على طبقة تحتية حمراء-برتقالية زادت من اللمعان. والنتيجة كانت حمراء تبدو وكأنها تصدر ضوءا خاصا بها.

كان الذهب يلمع كالمعدن الحقيقي. تيتيان لم يستخدم ورق الذهب مثل البدائيين. كان يطلي الذهب بأصباغ — أوربمنت، أصفر رصاصي وقصدير — وكان يضيف إليها أحيانا مسحوق ذهب حقيقي لزيادة البريق. كانت هذه الذهبيات المطلية أكثر عمقا من ورق الذهب المسطح. لقد خلقوا تأثيرات ضوئية أكثر خفاء.

كانت أزرق السماء عميقا ومضيئا. لازورد نقي للمناطق الأكثر شدة. أزوريت أرخص للأجزاء الثانوية. سمالت — زجاج بلون كوبالت — لبعض التزجيجات. كل أزرق له وظيفته، ولونه، ودوره في التناغم العام.

ظل بيرثوليه أمام هذا المذبح. حتى هو، الذي لم يكن خبيرا في الفن، كان يستطيع إدراك قوته. سيطر العمل على الكنيسة بأكملها. جذبت العين من المدخل، على بعد مئة متر. بدت الأشقام حية. كانت ماري تطفو في الهواء حقا. كانت الملائكة تدور حولها. كل خلق وهم الحركة، والتسامي.

— هذه اللوحة غير قابلة للنقل، شرح رئيس فراري، فرا بينيديتو. تم طلاؤها مباشرة لهذا الموقع. حسب تيتيان الأبعاد وفقا للمنظور من الصحن. من هنا، من المدخل الرئيسي، تخلق لوحة المذبح تأثيرا مكانيا وهما. يبدو أن ماري ترتفع حقا نحو القبة. إذا حركت العمل الفني، يختفي هذا التأثير. تصبح لوحة بسيطة. يفقد سحره.

الأخ بينيديتو، الفرنسيسكان ذو الوجه النحيف ولحية رمادية، كان لديه يدان ملتويتان معتادتان على العمل اليدوي. كان يرتدي رداء بني من رهبانيته، مربوطا عند المرفقين.

فحص بيرثوليه لوحة المذبح من جميع الزوايا. كان ضخما. تم دمج الإطار في هندسة الحنية. أعمدة منحوتة كانت تؤطره. توجته كورنيش ضخم. تفكيك كل شيء سيستغرق أسابيع. وكيف تنقل لوحة بطول سبعة أمتار؟ ستحتاج إلى عربة خاصة. الطرق مقبولة. احتياطات استثنائية ضد المطر والرياح والصدمات.

— هذا ما زال هناك، قرر بعد دقائق من التأمل.

همس الأخ بينيديتو بصلاة امتنان. على الأقل كان صعود العذراء سيعفى. كان الأمر معجزة بالفعل. انتصار صغير ضد الكارثة العامة.

— الآن أرني الأعمال الأخرى لكنيستك.

قاد بيرثوليه عبر الكنيسة. في غرفة الخزانة، تصور ثلاثية لجيوفاني بيليني السيدة *العذراء والطفل* محاطين بالقديسين. لوحات من القرن الخامس عشر ذات رقة رائعة. تم تكليف اللوحات الثلاثة لهذا الموقع تحديدا، وهو غرفة الفرنسيسكان حيث كان الرهبان يحضرون الطقوس الطقسية.

مثل بيليني الجيل الأول من المدرسة الفينيسية. قبله في القرن الرابع عشر، كانت فينيسيا لا تزال تتبع إلى حد كبير الأسلوب البيزنطي: فسيفساء مذهبة، تماثيل هيراطيقية، تركيبات متماثلة ورثتها من الشرق. كان بيليني قد أدخل ابتكارات عصر النهضة. درس الفلورنسيين — ماساتشيو، دوناتيلو، برونيليسكي — الذين كانوا يحدثون ثورة في الفن في بداية القرن الخامس عشر. تعلم المنظور، والتشريح، والطبيعية. لكنه استوعبها بالطريقة الفينيسية: بتلييتها، بدمجها مع ضوء البحيرة الخاص.

حيث فضل الفلورنسيون الرسم الدقيق، طور بيليني لوحة أكثر جوية. خفف من الملامح. أنشأت انتقالات دقيقة بين الشخصيات والخلفية. كان ضوؤه منتشرا، يغلف، يكاد يكون سائلا، كما لو أن الأشكال تغمرها ضوء ذهبي لبحيرة فينيسية.

وقد تم تفسير هذا النهج المختلف بالجغرافيا. كانت فلورنسا مدينة قارية، ذات مناخ جاف، وضوء صاف ومتباين. هناك، برزت الأشياء بشكل حاد. كانت الظلال واضحة. الواقع كان دقيقا. بنيت فينيسيا على الماء. كان ضباب خفيف يتصاعد باستمرار من البحيرة. كان الضوء منتشرا، متغيرا، منعكسا من الماء. كانت الحدود ضبابية. تتغير الألوان حسب الوقت من اليوم والموسم. اندمجت الأشكال مع الجو الجو.

— هذا الثلاثي يعود تاريخه إلى عام 1488، شرح الأخ بينيديتو. كان بيليني يبلغ من العمر ثمانية وخمسين عاما. كان في ذروة إتقانه. انظر إلى العذراء: وجهها يعبر عن سكينة تامة. سلام داخلي لا يبدو أن شيئا يستطيع أن يزعجه. ومع ذلك، نشعر بالحزن. الوعي بالمعاناة القادمة. حقق بيليني شيئا غير مسبوق: إبراز شعور متناقض. الفرح والحزن في آن واحد.

تأمل بيرثوليه الثلاثية لفترة طويلة. ثم هز رأسه.

— هل هو محفوظ في هذا المذبح؟ سأل ثوين.

— تماما. التفكيك قد يتلف الألواح. الخشب قديم. المفاصل هشة.

— نتركه، قرر بيرثوليه. لدينا ما كفى من بيليني في قائمتنا. لن نقبل هذه المرة.

خفض الأخ بينيديتو رأسه. انتصار صغير آخر. غير ملحوظ. لكن حقيقيا.

في جوقة الكنيسة، تم تزيين نصب جنائزي للدوجي جيوفاني بيسارو، الذي توفي عام 1659، بمنحوتات باروكية. كانت هناك شخصيات رمزية ضخمة تحيط بالتابوت. كان الملائكة الممتلئون يرتدون صفات القوة. رؤوس الموريس — في إشارة إلى انتصارات البندقية ضد العثمانيين — دعمت التابوت.

كانت هذه التماثيل أقل إثارة فنية من اللوحات. كان الباروك الفينيسي في القرن السابع عشر أقل ابتكارا من الروماني. لكنهم مثلوا عصبة، وأسلوبا، وتقاليد. لاحظها بيرثوليه جميعها على أي حال. كان يجب أن يكون المتحف ممتلئا. تمثيل جميع الفترات. جميع الأساليب.

كان قد زار بالفعل كنيسة سان جيوفاني إي باولو، الكنيسة المنافسة لقبيلة فراري، التي بناها الدومينيكان. أبقته بيليني هناك، ثم دفعه بعيدا: براغي الإطار، التي صدأت في الطوب منذ القرن الخامس عشر، تغلبت على نواياه. عاد اليوم ليكمل جرد الغرف الأخرى.

كان الأب الأب فرا باولو ينتظره على عتبة الصحن المركزي. كان صوته أقل استسلاما من الزيارة الأولى، بل أكثر عدائية.

لم يحتج فرا باولو أيضا. لقد فهم، حتى قبل أن يفتح بيرثوليه فمه، أن شيئا لن يتغير. أجرى الجرد بصمت، مشيرا إلى الأبعاد والنقاط بصوت محايد، كما لو كان يملي تقريرا. تم تدوين وقياس وإدانة التينتوريتو في مصلى المسبحة.

في سان سيباستيانو، اكتشف بيرثوليه مجموعة أعمال فريدة من نوعها. قضى فيرونيزي عشر سنوات في تزيين هذه الكنيسة في رعيته. لقد رسم السقوف والجدران والأرغن والساكريستي. في كل مكان، حول أسلوبه المضيء الفضاء الكنسي إلى قصر سماوي.

كان سقف الصحن يصور مشاهد من العهد القديم: قصة أستير في ثلاث لوحات كبيرة. إستير تتوج على يد أحاشوروس. انتصار مردخاي. إستير تتهم هامان. مؤلفات فخمة تظهر روعة بلاط شرقي خيالي. لكن في الواقع، كان فيرونيزي يرسم مدينته الخاصة. كانت العمارة من تصميم البحيرة. الأزياء، تلك الخاصة بالنبلاء في ريالتو. وجوه، وجوه معاصريه. نقل القصص التوراتية إلى عالمه المباشر.

كان هذا الإسقاط سمة مميزة للمدرسة الشمالية. على عكس الفلورنسيين الذين سعوا للدقة الأثرية، أو الرومان الذين فضلوا المثالية الكلاسيكية، كان رسامو سيرينيسيما يمثلون عالمهم الخاص. لم يكونوا يحاولون إعادة بناء يهودا القديمة أو روما الإمبراطورية. وضعوا القصص المقدسة في بيئات مألوفة لأن مدينتهم كانت تجسد الحضارة نفسها بالنسبة لهم.

مثل هذا الموقف كان يعكس فخرا خاصا جدا. كانت الجمهورية تعتبر نفسها مساوية للإمبراطوريات الكبرى في الماضي. وريثة روما. أورشليم مسيحية جديدة. وضع المشاهد

التوراتية في أماكن القناة الكبرى لم يكن أمرا غير زمنيا. كان ذلك بيانا: مدينتهم بحجم القدس. بقوة فارس أحشواروس.

— هذه السقوف غير قابلة للنقل، شرح كاهن رعية سان سيباستيانو، دون ماركو. تم رسمها مباشرة على القبو. ليس على القماش مثل بعض السقوف. عمل فيرونيزي في الفريسكو، أو بالأحرى في التيمبرا على الجبس. من المستحيل فصلها دون تدميرها.

كان دون ماركو أصغر من أي حارس قابله حتى تلك اللحظة. لم يكن لديه بعد استسلام الشيوخ. كان لا يزال غاضبا. لكن الغضب كان عديم الفائدة. استمع إليه بيرثوليه حتى النهاية، ونظر إليه، ولاحظ الأربعة من فيرونيز في قائمته.

في ساكريستي سان سيباستيانو، زيّنت أعمال أخرى لفيرونيزي الجدران والسقف. مشاهد أصغر وأكثر حميمية. عذراء وطفل. مسيح في جنة الزيتون. قيامة. كان فيرونيزي يعامل الساكريستي كمكان خاص، أقل روعة من الصحن، لكنها أكثر تذكرا.

سجل بيرثوليه هذه الأعمال في قائمته. ثمانية من فيرونيز من سان سيباستيانو. كان هذا أكبر فرض في كنيسة واحدة حتى الآن. تم تجريد سان سيباستيانو من معظم لوحاتها المنقولة. كل ما سيبقى هو السقوف غير القابلة للنقل.

— ستشوّهون هذه الكنيسة، قال دون ماركو. فيرونيزي مدفون هنا. قبره هنا، أمام المذبح العالي. كان يريد أن يرتاح محاطا بأعماله. الآن انتزعتموها. أنتم تدنّسون ذكراه.

— نكرم ذكراه بالحفاظ على أعماله. في باريس، سيتم ترميمها إذا لزم الأمر. فيرونيزي نفسه سيكون سعيدا بمعرفة أن فنه يخدم البشرية.

قاد دون ماركو بيرثوليه إلى المخرج. في الصحن الرئيسي، كان بعض المصلين يصلون. نساء مسنات يتلون التسبيح.

كانت نظراتهم تعبر عن عداء صامت. لكن لم يقل أحد شيئاً. لم يجرؤ أحد على الاعتراض علنا. كان الخوف قويا جدا. كان الجنود الفرنسيون يجوبون الشوارع. أي مقاومة كانت ستكبت.

VII — مدرسة سان ماركو الكبرى والأكاديمية

كانت مدرسة سان ماركو الكبرى تقع على الجانب الشمالي من كامبو دي سانتي جيوفاني إي باولو، مقابل بازيليك الدومينيكان، التي بدا أنها ترغب في المنافسة على عظمتها من خلال روعة واجهتها فقط.

هذه الواجهة — المصنوعة من الرخام الأبيض والبورفير الأخضر، صممها بيترو لومباردو وأكملها ماورو كودوتشي في مطلع القرن السادس عشر — كانت من أجمل الواجهات في البندقية، وربما الأجمل بعد كنيسة سان ماركو نفسها. كانت النقوش البارزة في ترومب لويل تمثل أسودا مستلقية تبدو وكأنها تخرج من عمق وهمي. كانت الأعمدة الكورنثية تؤطر التجاويف. كان القمر الخارجي للبوابة المركزية يظهر القديس مرقس في مجد محاط بأعضاء من الأخوية راكعين. تذكر النقوش اللاتينية فوائد المدرسة للفقراء في

البندقية. عبر المبنى بأكمله عن ذلك الكبرياء الفينيسي الفريد، الذي كان تقيا وعالميا في آن واحد، والذي تمكن لخمسة قرون من التوفيق بين المحبة المسيحية والتبجح الأرستقراطي.

توقف بيرثوليه للحظة أمام الواجهة قبل الدخول. كان في البندقية لمدة ثمانية عشر يوما. زار القصور والكنائس والأديرة. لقد رأى روائع فنية في كل زاوية من المدينة. اتخذ مئات القرارات، اختارها، وتخلصها، وزنها، وحسابها. خلال هذه الأيام المرهقة، طور نوعا من القشرة التي سمحت له بالنظر إلى الأعمال دون أن ينجرف بها. لتقييمها. لتصنيفهم. ليقرروا مصيرهم بالانفصال اللازم.

لكن أمام مدرسة سان ماركو الكبرى، كان هناك شيء يقاوم هذا الخدر الطوعي. لاحظ التأثير دون أن يتوقف فيه، ودخل.

كان الحارس ينتظره في البهو.

كان وجه ألفيز زورزي يحمل علامات حياة مكرسة للسجلات والأرشيفات بدلا من الطبيعة المفتوحة: بشرة نحيلة، عيون زرقاء شاحبة جدا خلف نظارات دائرية، وأيد بأصابع طويلة ودقيقة. خدم السكولا منذ أن كان في السابعة والعشرين من عمره. كان يعرف كل وثيقة، وكل جرد، وكل تقرير عن الاستحواذ. لقد قضى خمسة وثلاثين عاما في فهرسة وحفظ وحماية. والآن كان يشهد ما لا يملك له كلمة، ولا فئة، ولا إجراء معد.

— السيد بيرثوليه، قال بالفرنسية، بلكنة واضحة، لكن بلغة متقنة تماما. كنت أنتظركم. أنا مستعد لأريكم مجموعاتنا. لا أنوي المقاومة أو الاحتجاج أو إضاعة وقتكم في حجج عديمة الفائدة. أطلب منكم شيئا واحدا: تصرفوا بنفس العناية بأعمالنا التي بذلنا فيها لمدة قرنين ونصف.

— هذا أيضا اهتمامي، أجاب بيرثوليه. الأعمال التالفة لا تساوي شيئا للمتحف.

— جيد. لذا نحن نفهم بعضنا البعض.

لم يكن هناك دفء ولا عدائية في هذه النبرة. دقة باردة، شبه سريرية. وكأن زورزي قرر، حتى قبل وصول الفرنسيين، أن الكرامة هي الشكل الوحيد من المقاومة المتاحة، وأنه كان يلتزم به بنفس التشدد الذي يلتزم به في سجلاته.

كان بهو سكولا يقطع منه عشرة أعمدة موضوعة على قواعد عالية للغاية، مما يوحي بموكب مهيب. كانت الجدران تحمل نقوشا حجرية، ومشاهد من حياة القديس مارك، وشعارات عائلات فينيسية عظيمة، ونقوش تذكارية. دخل الضوء من خلال نوافذ عالية الشكل وضرب ألواح الرخام في خطوط طويلة مضيئة. خلق الجميع جوا بين قصر وملاذ، وهو بالضبط ما قصده البناؤون: بيت الله بني بوسائل التجار.

— مدرسة سان ماركو الكبرى هي واحدة من أقدم الأخويات الفينيسية الست الكبرى، بدأ زورزي وهو يقود بيرثوليه إلى الدرج الرئيسي. تأسست عام 1260. ألغتها سلطاتكم قبل بضعة أسابيع. خمسة قرون من وجود المؤسسة. هذا ما تعنيه هذه الزيارة، بالتحديد.

— أعرف ماذا تعني هذه الزيارة، قال بيرثوليه.

— جيد. لذا، دعونا لا نتحدث عن ذلك بعد الآن.

صعدوا الدرج. تم تزيين سقف الدرج بالجص واللوحات الصغيرة من القرن السابع عشر، وهي مشاهد رمزية تمثل فضائل المحبة والحكمة والعدالة. لم ينتبه زورزي لذلك منذ سنوات. كان ذلك المكان الذي يعيش حياته اليومية، غير مرئي مثل جدران منزله. لكن هذا الصباح، كان ينظر إليها. نظر إليهم كما ينظر المرء للمرة الأخيرة إلى ما يعرف أنه قد ضاع.

دخلوا قاعة الألبيرغو.

كانت أقدم غرفة، وأول غرفة تزين بعد إعادة الإعمار عقب حريق عام 1485. كانت الجدران تحمل لوحات من أوائل القرن السادس عشر، من عمل أيدي مختلفة. بالما إل فيكيو، باريس بوردون، أعمال مجهولة ذات جودة متساوية. على السقف، كانت هناك خزائن منحوتة ومذهبة، تعود لعام 1495 وصنعها بيترو وبياجيو دي فاينزا، واحدة من عجائب البندقية غير المعروفة. أوراق الأكانثوس المتشابكة، والميداليات التي تحمل صور القديسين، ونجوم ذات ثمانية رؤوس مقطوعة من الخشب ومزخرفة على خلفية ذهبية. عمل ذو مهارة لا يراه سوى عدد قليل من الزوار، حيث كان الانتباه يجذب بشكل طبيعي إلى الجداريات.

فحص بيرثوليه السقف. لاحظ. قاس. حسب.

— الكايسونات متصلة بهيكل المبنى، قال زورزي. كان يجب تفكيك السقف بالكامل لأخذها. ومن المحتمل أن ينكسر في العملية. الخشب قديم. هش.

— أفهم. أما الجداريات، من ناحية أخرى.

— قابلة للنقل إلى حد كبير. الأبعاد معقولة.

كان هناك شيء غريب في صوت زورزي: دقة، تكاد تكون كفاءة، تشبه التواطؤ، لكنها ليست كذلك. بل كان الاستسلام مدفوعا إلى أقصى درجات التعقيد، تلك النقطة التي يتوقف فيها المرء عن مقاومة الحتمي ويبدأ في مرافقة ذلك للحد من أضراره.

توقف بيرثوليه لفترة طويلة أمام العمل الرئيسي في الغرفة: «إعطاء الخاتم للدوج» للرسام باريس بوردون، الذي رسم بين عامي 1534 و1535. بلغت أبعاد اللوحة ثلاثة أمتار وسبعين سنتيمتراً ارتفاعاً وثلاثة أمتار عرضاً. كان الموضوع أسطورة فينيسية: صياد يتلقى في حلم أمر القديس مارك بمنح الدوجي خاتما يرمز إلى سيطرة البندقية على البحر.

صور بوردون هذا المشهد في بيئة غنية معمارية كبيرة. أعمدة ضخمة من الرخام الملون كانت تؤطر التكوين. غطت قبو معقد بالذهب الجزء العلوي بأكمله. حشد المسؤولين والنبلاء، مرتدين الزي الاحتفالي الفينيسي—الأردية الحمراء للشيوخ، أردية الحرير للوكيل، وملابس الدوج المذهبة—شكلوا عرضا من الروعة يعادل ما ستفعله فيرونيزي لاحقا. الصياد في الوسط، شخصية متواضعة ترتدي سترة زرقاء، ركع ليعيد الخاتم، محاطا بذلك العظمة النبيلة التي لم تسحقه. وفي الخلفية، خلف الأعمدة، كان بإمكانك رؤية البحيرة، والقوارب، وأفق المدينة. دخلت البندقية في صورة خاصة بها.

— باريس بوردون، شرح زورزي، وهو ينطق الاسم ببطء متعمد، كما لو أن نطقه بوضوح كاف يمكن أن يرسخه في الواقع ويمنع محوه. ولد في تريفيزو عام 1500. تدرب في استوديو تيتيان قبل أن يجد طريقه الخاص. الأبعاد تتوافق تماما مع الارتفاع المتاح بين الأرضية والكورنيس. حسب نسبه مع مراعاة منظور الباب الأمامي. من هنا، من حيث تقف، التكوين يفتح بشكل مثالي. الأعمدة المرسومة تتماشى مع الأعمدة الفعلية في الأتريوم. إنها استمرارية معمارية متعمدة. انقل هذه الشبكة إلى مكان آخر، وستقطع هذا الحوار. العمل سيبقى ماديا. لكنها ستفقد نصف معناها.

لم يرد بيرثوليه على الفور. وقف أمام القماش، وذراعاه متقاطعتان، وعيناه مثبتتان على الصياد ذو القميص الأزرق الذي ركع في المنتصف. ما قاله زورزي للتو لم يكن خاطئا. امتدت الأعمدة المرسومة لتواصل الأعمدة الفعلية للبهو. المساحة المعمارية والمساحة المرسومة تواصلت وفقا لمنطق حسبه بوردون لهذا المكان الفريد. نقل القماش كان تفكيك معادلة لا يمكن لأحد المصطلحات — الغرفة نفسها — أن ينقلها.

— هذه تبقى.

تجمد زورزي. لم يتغير تعبير وجهه. لكن يده، التي كانت تمسك السجل، توقفت للحظة، ثم لاحظت.

— أسجل قرارك. تبقى لوحة بوردون.

كان هناك تردد غير معتاد في هذه النبرة، ليس ارتياحا، لأن زورزي فرض على نفسه ألا يشعر بأي شيء بعد الآن، بل اعترافا باردا: لقد سمعت الحجة. لم يكن ذلك تعبيرا عن الكرم. كان حسابا. لكن النتيجة كانت نفسها.

استدار بيرثوليه إلى بقية الغرفة. كانت هناك أعمال أخرى يجب دراستها. وبقيت لوحة بوردون في البندقية. وكانت هذه اللوحة الوحيدة في المدرسة الكبرى التي لم يأخذها الفرنسيون.

دخلوا إلى بيت الفصل العظيم.

توقف بيرثوليه عند العتبة.

جدران هذه الغرفة — التي يزيد ارتفاعها عن سبعة أمتار وعرض أربعة عشر منها — كانت تحمل سلسلة من اللوحات المكرسة لمعجزات القديس مرقس. على الجدار الجنوبي، الذي سيطر على المكان بأكمله منذ تركيبه عام 1548، كان هناك لوحة أطلقت مسيرة جاكوبو تينتوريتو وغيرت مسار الرسم الفينيسي: *معجزة العبد*.

بلغت أبعاد اللوحة أربعة أمتار وخمسة عشر سنتيمتراً ارتفاعاً وخمسة أمتار وواحداً وأربعين سنتيمتراً عرضاً. لقد رسمها عندما لم يكن تينتوريتو قد بلغ الثلاثين من عمره بعد، على يد رجل أراد إثبات شيء ما—ليثبت أنه مساوي لتيتان، ومساوي فيرونيزي، وربما أعلى منهم—وقد نجح بما يفوق ما كان يأمله.

كان التكوين جريئا للغاية. في وسط اللوحة، كان عبد عار ملقى على الأرض في وضعية تقصير مذهل، وجسده عرض على الجلادين الذين كسرت أدواتهم التعذيب — المطارق

والأشواك والمشابك — في أيديهم بشكل معجزي. حوله، كان حشد كثيف من الجنود والمشاهدين والنساء والأطفال يعبرون عن مشاعر متنوعة: الذهول، الرعب، عدم التصديق، الفضول المرضي. على اليمين، كان سيد العبيد — رجل شرقي بارز يرتدي عمامة حمراء جالسا على عرش مرتفع — يراقب المشهد من ارتفاعه بتعبير يمزج الغضب بشيء لا يمكن تعريفه، نوع من بداية الشك.

وفي قمة التكوين، خرج من السماء في تقصير مذهل، رأسه منخفض وذراعيه ممدودتان، اندفع القديس مارك كقنبلة إلهية نحو جسد العبد. لم يكن شخصية القديس ممثلة بهدوء الشفاع السماويين المعتادين. كان فيه عنف، وعجلة، وطاقة تتعارض مع كل الأعراف الأيقونية السابقة. لم يكن هذا القديس مرقس قاضيا جامدا يمنح النعمة. كان مقاتلا اندفع إلى المعركة.

كان الضوء يأتي من عدة مصادر في آن واحد. من اليسار، إضاءة طبيعية. من هالة القديس، ضوء ذهبي خارق للطبيعة. من خلف المسرح، كان ضوء بارد يبرز الظلال. خلقت هذه الأضواء المتناقضة جوا من عدم الاستقرار، من الاقتراب، كما لو أن العالم المادي نفسه يتذبذب عند الاتصال بالمعجزة.

توقف بيرثوليه. طويل جدا. أطول من المعتاد.

— كم سنة كان تينتوريتو عندما رسم ذلك؟ سأل أخيرا.

— تسعة وعشرون أو ثلاثون سنة. وقد منح له التكليف في عام 1547. لاحظت الأخوية موهبته. لقد صنع لنفسه اسما بالفعل في الأوساط الفينيسية، رغم صغر سنه. عندما اكتملت اللوحة في أبريل 1548 وثبتت على هذا الجدار، كان انتصارا فوريا. كتب الأريتينو بنفسه رسالة يمدح فيها العمل. حتى جورجيو فازاري، الذي لم يكن مولعا بلوحات تينتوريتو، أدرك لاحقا «السحر الاستثنائي» لمعجزة العبد و«التقصير الرائع» في الصورة.

— هذه اللوحة فتحت له كل أبواب البندقية. وبفضلها حصل على التكليف في سان روكو بعد عدة سنوات. يمثل اللحظة بالضبط التي أصبح فيها رسام شاب طموح عبقريا معترفا به.

اقترب بيرثوليه من اللوحة حتى أصبح على بعد بضعة سنتيمترات فقط. فحص الضربات. ضربات فرشاة واسعة، مطبقة بسرعة وثقة. جسد العبد يرسم ببعض البقع الخفيفة التي تخلق انطباعا بحجم نحتي تقريبا. تم معالجة الستائر بكميات سريعة، دون تفاصيل غير ضرورية، ولكن بكفاءة زخرفية ملحوظة. الخلفيات المعمارية — فناء محاط بأرواق شرقية غامضة — مرسومة باقتصاد في الوسائل ترك كل قوتها للشخصيات.

تراجع خطوة. ثم أخرى. عاد إلى المسافة التي نظر منها أولا، ووقف هناك بلا حراك، وذراعيه متقاطعتان.

ثوين، الذي كان يراقبه من مدخل الغرفة، اقترب بصمت.

— خمسة أمتار وواحد وأربعون عرضا، تمتم. أربعة أمتار وخمسة عشر ارتفاعا. لا نملك أسطوانة نقل بهذا الحجم. وحتى لو بنينا واحدا، فإن القماش صلب جدا بحيث لا يمكن لفها

دون خطر الانفجار. سيتطلب ذلك جسما مسطحا يزيد عن ستة أمتار. القافلة غير مجهزة لذلك.

— اصنع الصندوق.

قاطع ثوين نفسه.

— هنا؟ في البندقية؟

— نجارو الترسانة ما زالوا يعملون. ابحث عن اثنين. أعطهم الأبعاد الدقيقة. جسم مسطح ومعزز مع دعامات داخلية لمنع انحناء القماش أثناء النقل. نحتاج عشرة أيام. لدينا اثنا عشر قبل انطلاق القافلة.

زورزي، من مدخل الغرفة، سمع ذلك. دون ملاحظة في سجله الشخصي، سجله الخاص.

— اللوحتان الكبيرتان اللتان اختارهما دومينيكو تينتوريتو، بورتريه رانغوني، عد بيرثوليه. والمعجزة. كم يعادل المجموع؟

— سبعة، قال زورزي.

توقف زورزي عند العتبة تماما عندما كانا على وشك المغادرة.

— السيد بيرثوليه!

استدار بيرثوليه.

— السيد بيرثوليه، أود أن أسألك شيئا. ليس لتغيير أي شيء، أعلم أن ذلك مستحيل. لإشباع فضول فكري.

— أنا أستمع.

— عندما نظرت، ماذا رأيت؟ أنا لا أطلب منك التبرير الرسمي. أسألك ماذا شعرت، بيرثوليه، أمام هذه اللوحة.

فاجأ السؤال بيرثوليه. لم يطرح عليه هذا النوع من الأسئلة أبدا. احتج محاوروه، توسلوا، جدالوا، لعنوا. لكن عندما سأل عن شعوره، لم يفعل أحد ذلك من قبل.

— أرى تركيبة جرأة استثنائية لرجل في الثلاثين من عمره. إتقان للاختصارات ربما لم يضاهى في الرسم الأوروبي. وميزة يصعب تسميتها هي الطاقة، والتوتر، وطريقة يخلق بها الضوء والحركة معا شعورا بالوشك. وكأن اللحظة المصورة لم تكن متجمدة، بل على وشك الحدوث.

— هذا ما كان يريده تينتوريتو، قال زورزي. كان يسميه الغضب. القدرة على الرسم ليس لحظة واحدة، بل اللحظة التي تسبق اللحظة. اللحظة التي لا يزال فيها كل شيء ممكنا ولا رجعة فيه.

— أنا أفهم.

— ومع ذلك تأخذه.

— نعم.

كلمة واحدة. لكن كان هناك صراحة غير معتادة في هذه الكلمة. لا مبرر. لا خطاب عن الإنسانية أو التقدم. فقط الاعتراف العاري بفعل يؤدى وأنت واعي تماما لما هو.

— لا ألومك شخصيا، سيد بيرثوليه. أريدك أن تعرف ذلك. تقوم بما طلب منك فعله، بالكفاءة التي تتطلبها مهمتك. لكن ما تأخذه ليس مجرد لوحة بحجم أربعة في خمسة أمتار. أنت تأخذ دليلا حيا على أن شابا في الثلاثين من عمره، في هذه المدينة، عام 1548، كان يعرف كيف يخترع شيئا لم يره أحد قبله. تأخذ معك مسقط رأس عبقري. وهذا المكان لن يسافر مع القماش. سيبقى هنا، فارغا.

لم يجب بيرثوليه.

أرسل إشارة إلى كتبه، الذين دخلوا السكولا بأدواتهم وصناديقهم الجاهزة.

ظل زورزي على العتبة. شاهد الفنيين يختفون في البهو. سمع أصواتهم، خطواتهم، صوت صندوق يفتح. بقي هناك لفترة طويلة، ويداه خلف ظهره، وعيناه مثبتتان على واجهة بازيليك سان جيوفاني إي باولو المقابلة، وواجهاتها القوطية، ومبوبها الرخامي، ونوافذها الرمحية. في هذه الكنيسة دفن خمسة وعشرون دوجا. هذا البانثيون من سيرينيسيما الذي نجا من كل شيء وسينجو من هذا أيضا، لكن بطريقة مختلفة.

كان المعسكر شبه فارغ في ذلك الوقت من الصباح. كان طفلان يلعبان بالقرب من البئر المركزي. كانت امرأة تعلق الغسيل من نافذة في الطابق الثاني من منزل مقابل. استمرت الحياة العادية، غير مبال بما يحدث في السكولا خلفه.

كان هذا هو الجزء الأصعب، فكر زورزي. ليس وحشية الأمر، كان هناك شيء متوقع، شبه منطقي، في حقيقة أن المنتصرين يأخذون كنوز المهزومين. لطالما كانت الحروب تعمل هكذا. لا. ما كان صعبا هو اللامبالاة بالعالم من حولنا. الكامبو الذي استمر. السماء التي بقيت زرقاء. ماء البحيرة الذي استمر في الاصطدام بالأساسات. وكأن شيئا لا يحدث. اختفاء تحفة استغرقت مئتين وخمسين عاما لتجد مكانها في هذه الغرفة لم يكن حدثا، بل مجرد حقيقة من بين حقائق أخرى في مجريات الأحداث العادية.

عاد إلى سكولا. لا يزال لديه دور يلعبه، الإشراف على التفكيك، والتأكد من أن الفنيين الفرنسيين يتصرفون بالعناية التي يدعون أنهم يقدمونها. كانت هذه آخر وظيفة له كحارس. ليحمي حتى النهاية، الأعمال التي احتفظ بها. بما في ذلك مغادرتهم.

استغرق بناء الصندوق المسطح الكبير تسعة أيام. عمل النجارون الفينيسيون بلا توقف، موجهة بتعليمات ثوين.

استغرق تفكيك معجزة *العبد* يوما كاملا. سجل ثوين الأبعاد الدقيقة، حالة طبقة الطلاء، الشقوق الظاهرة، مناطق إعادة الطلاء. وضع كل شيء في الصندوق الكبير، ثم أغلق، وسُمر، ومحاطا بالمعدن.

كانت لوحتا دومينيكو تينتوريتو وبورتريه رانغون قد تم تعبئتهما في الأيام السابقة. *معجزة العبد* كانت آخر من غادر.

ذكر زورزي في سجله: «معجزة العبد، ياكوبو تينتوريتو، 1548. أخذت في 8 أغسطس 1797 لمتحف باريس.»

قدم بيت الفصل الكبير عرضا مؤثرا. لا دمار ظاهر، ولا ضرر واضح — الجدران سليمة، الأسقف سليمة، الأرضية سليمة. لكن المستطيلات الأفتح على الجدران — حيث كانت اللوحات جالسة لعقود، تحمي السطح خلفها من اصفرار الهواء — كانت تروي قصة خاصة بها. أشباح الأعمال. الغيابات ذات الشكل الدقيق والموثق. وعلى الجدار الجنوبي، أكبر مستطيل على الإطلاق: مستطيل *معجزة العبد*، الذي أصبح الآن شاحبا مثل الآخرين، فارغ.

كان زورزي في الغرفة. نظر إلى الجدران.

— هذا غريب. هذه المستطيلات الواضحة. الجدران الآن تحمل نفس الذكرى. الجدران تعرف ذلك.

نظر بيرثوليه إلى الجدران.

— خلال بضعة أشهر، سيوحد الضوء والغبار السطح. لن نرى شيئا بعد الآن.

— نعم. بعد بضعة أشهر. لكن خلال هذه الأشهر القليلة، كل من يدخل هنا سيعرف ما الذي تم أخذه. ستكون دقة الخسارة مرئية. بحجم. محلي. هذه خسارة يمكنك قياسها بالمسطرة.

بقي زورزي بضع دقائق إضافية في بيت الفصل الكبير الفارغ. نظر إلى الجدران، الجدران التي عرفها منذ خمسة وثلاثين عاما، الجدران التي لم تعد تحمل نفس العيون الليلة كما كانت في هذا الصباح. ثم أخذ سجله، وسجل الوقت والتاريخ، وكتب في أسفل الصفحة الأخيرة المملوءة: جرد خسائر مدرسة سان ماركو الكبرى، أغسطس 1797. كتبه ألويس زورزي، القائم على الحارس. دع هذه الوثيقة تكون شهادة.

أغلق السجل. وضعه على مكتبه. وذهب ليطفئ المصابيح.

في اليوم التالي، التحق بيرثوليه بأكاديمية الفنون الجميلة.

كان لديها مجموعة من البدائيين الفينيسيين وأساتذة المدرسة الفينيسية التي جمعت منذ تأسيسها في عام 1750. سرد كارباتشيو يروي أساطير القديسين. شهادة سيما دا كونيليانو على الكمال الفني في البندقية. لوتو النفسي الذي يستكشف داخلية البورتريه.

رحب مدير الأكاديمية، جيوفاني باتيستا مينغاردي، الرسام والأكاديمي، ببيرثوليه بكرامة.

الآن، كانت هذه البندقية قد ماتت. لم يضف مينغاردي شيئا إلى ما كان بيرثوليه قد سمعه بالفعل في أماكن أخرى؛ اكتفى بإرشاده.

قاد مينغاردي بيرثوليه عبر أروقة الأكاديمية. كان المبنى، الذي كان ديرا سابقا تم تحويله إلى مدرسة فنونية، يحتوي على أعمال من جميع الفترات الفينيسية. من البدائيات القوطية في القرن الرابع عشر إلى الباروك في القرن السابع عشر. مجموعة تعليمية تظهر تطور المدرسة الفينيسية.

في الغرفة الرئيسية، على قضبان الصور، شكلت أعمال القرن الخامس عشر قلب المجموعات الأكاديمية، تلك الأعمال الفينيسية البدائية التي قضى مينغاردي حياته في جمعها وفهرستها، والتي أصبحت الآن تمثل، في نظر بيرثوليه، العديد من القطع التي يجب تقييمها.

لفت انتباهه أولا فيفاريني. أنطونيو فيفاريني، معاصر لبيليني الشاب، رسم هذا البوليبتيك في النصف الأول من القرن الخامس عشر: ألواح مذهبة، تماثيل هيراطيقية، ذلك الصلابة القوطية التي كان من المفترض أن يذوب بيليني في الضوء والألوان. كان البوليبتيخ مكتملا وفي حالة ممتازة. أبعاد معقولة للنقل.

— فيفاريني. أسس مع صهره جيوفاني دالمانيا ورشة تحمل نفس الاسم. قبل بيليني، وقبل كارباتشيو، كان هو من وضع أسس الرسم الفينيسي. تعود هذه الألواح إلى حوالي عام 1440.

كان بيرثوليه يفحص الأرقام. متصلبة، بالتأكيد. لكن بجودة عالية في التنفيذ. تزيين الخلفيات. دقة الستائر. أظهرت هذه الأعمال للجمهور الباريسي أصول تقليد تصويري لم يعرفوه إلا في تحقيقه المتأخر.

— هذا. البوليبتيك الكامل.

لاحظ مينغاردي. لم ترتجف يده. قرر منذ الصباح الأول أن يديه لن ترتجفا.

احتفظ سيما دا كونيليانو بعد ذلك ببيرثوليه. عذراء ***وطفل*** بطول واحد وسبعين سنتيمترا في ثمانية وأربعين، بحلاوة رائعة. كانت العذراء تحمل الطفل يسوع بين ذراعيها، وكلاهما ينظران إلى المشاهد بتعبير من السكينة

— سيما دا كونيليانو. ولد جيوفاني باتيستا سيما في كونيليانو بمقاطعة تريفيزو حوالي عام 1459. واحدة من أفضل ورثة بيليني. تنسيق حميمي، لكن بجودة عالية.

— هذه أيضا، قرر بيرثوليه.

عرض على بيرثوليه أعمالا أخرى. صور شخصية للورنزو لوتو. تخصص هذا الرسام الفينيسي في القرن السادس عشر في البورتريهات النفسية، ساعيا لكشف الشخصية والشكوك والطموحات الداخلية. صورة تحمل رسالة أظهرت رجلا يحمل رسالة، ونظره تائه في الأفق. هل تقلق؟ الأمل؟ ندم؟ تفوق لوتو في هذه الغموض النفسي. اختار بيرثوليه ثلاث أعمال لوتو. كانت ستكمل مجموعة الصور الشخصية في المتحف المركزي للفنون، مظهرة جانبا مختلفا من الفن الفينيسي: التأمل النفسي الذاتي بدلا من التمجيد الزخرفي.

تم اختيار خمسة أعمال للأكاديمية في المجمل. لوحة متعددة القطع من تصميم فيفاريني. سيما دا كونيليانو. ثلاث لوتو. قطع من الدرجة الأولى ستثري بشكل كبير تمثيل المدرسة الفينيسية المبكرة في المتحف.

رافق مينغاردي بيرثوليه إلى المخرج.

VIII — الصعود النهائي

في 25 أغسطس 1797، اكتمل جرد البندقية. تم اختيار ستة وثمانين عملا. بالإضافة إلى الخيول الأربعة التي اختفت بالفعل. المجموع: تسعون قطعة كانت ستنضم إلى المتحف المركزي للفنون.

لم تكن هذه أكبر عملية في الحملة الإيطالية من حيث العدد المطلق. قدمت روما مئة وسبعة أعمال. بولونيا مئة وسبعة وثمانون.

تم تحميل الصناديق الفينيسية على القوارب لعبور البحيرة. ثم على عربات القطار للرحلة البرية إلى باريس. قافلة مكونة من ستة وعشرين مركبة يرافقها مئتا جندي. من المقرر أن تغادر في الأول من سبتمبر.

جاء موروسيني ليشهد الصعود النهائي. وقف على الرصيف قرب ساحة سانت مارك، يراقب الصناديق المكدسة على القوارب. في هذه الصناديق الخشبية كان ينام التيتيان، والفيرونيز، والتينتوريتو، والبيليني.

كان الطقس رماديا ذلك الصباح. غطت الغيوم المنخفضة البحيرة. ارتفع ضباب خفيف من الماء. كان الجو رطبا وكئيبا.

اقترب بيرثوليه من موروسيني ليودعه.

— السيد موروسيني، أردت أن أشكرك على تعاونك. بدون مساعدتك، كان الجرد سيكون أصعب.

— لم أتعاون، أجاب موروسيني بصوت منخفض. قللت من الضرر. تفصيل مهم ربما لا تفهمه.

كان القارب الأول ممتلئا. ابتعد عن الرصيف، ينزلق بصمت فوق الماء الرمادي. كان الجندولير يجدف بحذر. كانت الصناديق ثقيلة. حركة خاطئة واحدة قد ينقلب معها القارب. قرون من الفن ستغرق في البحيرة.

تابعه موروسيني بعينيه حتى اختفى في الضباب.

— لقد خدمت السيرينيسيما طوال حياتي. رأيت هذه الأعمال عندما كنت طفلا، شابا، رجلا ناضجا. كانوا جزءا مني بقدر ما كانوا جزءا من هذه الجدران. لكن اليوم، في هذه اللحظة بالذات، سأعطي كل شيء—سمعتي، ثروتي، السنوات المتبقية لي—لمنع هذه القافلة من المغادرة. لإعادة هذه الأعمال إلى كنائسهم. لترد الجميل لفينيسيا ما تنتزع منها.

— لكن لا يمكنك.

— لا. لا أستطيع. لا أحد يستطيع. أنتم أقوياء جدا. نحن ضعفاء جدا. إنها قانون الغابة. قانون الأقوى. وتطبقها بلا خجل رغم كل خطابك الجميل عن الحضارة.

كان قارب ثان يمتلئ. ثم ثالث. استغرقت العملية وقتا. كان يجب ترتيب الصناديق بعناية لموازنة الوزن. امنع القارب من الميل إلى جانب واحد. كان جندوليون البندقية يعملون في

العمل. نفذوا مهمتهم بشكل ميكانيكي، دون النظر إلى الجنود الفرنسيين الذين كانوا يشرفون على العملية.

تم تحميل آخر قارب حوالي الظهر. خمسة وعشرون قاربا في المجموع، تحمل الصناديق الستة والثمانين. شكلوا صفا طويلا ينزلق عبر البحية نحو اليابسة.

ومن هناك، كانت العربات تنتظرهم للرحلة البرية إلى باريس.

في الأول من سبتمبر عام 1797، عند الفجر، انطلقت القافلة.

ستة وعشرون عربة مغطاة. مئتا جندي مرافقة. رقيب أول يدعى دوبون، كان يعبر شمال إيطاليا لمدة ثمانية عشر شهرا، وكان يعرف الطرق والنزل والفخاخ. وفي صناديق خشبية ذات حواف حديدية، ملفوفة بقش وورق مدهون، مثبتة بحبال مبطنة، كانت ستة وثمانون عملا لفينيسيا.

غادرت القافلة ميستري قبل شروق الشمس. كانت الخيول تتقدم على الطريق المعبد، تهب في هواء الصباح النقي. كانت عجلات العربات تصدر صوتا منتظما، يكاد يكون موسيقيا على الحجارة. سار الجنود في عمود على جانبي القافلة، والبنادق على أكتافهم، يحدقون فيهم.

قاد بيرثوليه في الصدارة. لم ينظر إلى فينيس خلفه. لقد اعتاد على مر الأشهر ألا ينظر إلى الوراء أبدا.

كان مسار برينر هو الخيار الوحيد لعبور جبال الألب في هذا الموسم. كان ممر مونت-سينيس، الذي يقع غربا، مهددا بالفعل بأول تساقط ثلوج على ارتفاعات عالية. كان خط برينر، الذي هو أقل ارتفاعا وأكثر قابلية للمرور، يسمح للعربات بالمرور حتى بداية أكتوبر.

مرت الأيام القليلة الأولى دون حوادث. تقدمت القافلة، حوالي عشرين كيلومترا يوميا. كان الطقس معتدلا، خريف معتدل، سماء غائمة، لا أمطار. كان السهل البندقي مسطحا، والطرق واسعة، والعربات تسير بسلاسة.

كان بيرثوليه يقضي أمسياته في إعادة قراءة مخزونه. كان يريد التأكد من أن كل شيء على ما يرام قبل عبور جبال الألب. وأن لكل صندوق رقمها ويتوافق مع القائمة التي أعدت وقت التعبئة. وأن الأعمال كانت بالفعل تلك التي غادرت فينيسيا.

تحقق. أعاد الحساب. تحقق من الأرقام مرة أخرى.

كل شيء كان على ما يرام.

لكن هذا العمل الميكانيكي لم يكن كافيا ليشغل ذهنه بالكامل. عادت كلمات مينغاردي. كلمات موروسيني. تم تسجيل جملة زورزي في سجله كبيان للوقائع: أخذت في 8 أغسطس 1797 لمتحف باريس. كان هذا الحياد في النبرة ربما أكثر أشكال الاحتجاج فعالية، أكثر فعالية من

الدموع، وأكثر فعالية من اللعنات. فقط تسجيل جاف لما حدث. كان زورزي يريد أن يقول: ألاحظ. أنا أشهد. التاريخ سيعرف.

أغلق بيرثوليه دفاتره وأطفأ شمعته.

IX— القافلة — الطريق إلى جبال الألب

ركب بيرثوليه عربته دون أن ينظر خلفه.

في صباح اليوم التالي، استأنفت القافلة رحلتها شمالا.

توقفت في ترينت لمدة يومين. كانت الخيول بحاجة للراحة قبل عبور جبال الألب. فحصوا الحدادون الحدادات والمحاور والبراغي. كان الجنود ينامون في الحظائر. كان سائقو العربات يصلحون الأغطية الممزقة.

نزل بيرثوليه إلى شوارع ترينت. مدينة إيطالية تحت سيطرة النمساويين، تقع في منتصف الطريق بين عالمين. كانت الإيطالية والألمانية تتحدث أحيانا في نفس الجملة. كانت الكاتدرائية باروكية، والمنازل ذات الجملوين المرسومة، والنوافير مزينة بشعارات النبالة النبيلة. مدينة عرفت ساعة مجدها قبل قرنين ونصف، عندما انعقد المجمع هناك لتحديد عقائد الإصلاح المضاد، ومنذ ذلك الحين عاشت في ذاكرة هذا الحدث كمنزل كبير جدا.

دخل الكاتدرائية. كان الداخل جديدا وصامتا. بعض المخلصين الراكعين. كاهن يتلو كتابه الصباحي في زاوية. جداريات من القرن السابع عشر على الجدران، تماثيل قديسين بإيماءات واسعة، وسماء مفتوحة لأمجاد الغيوم والملائكة. عمل متوسط الجودة. ليس من النوع الذي كان متحف باريس يرغب به.

خرج في ضوء بعد الظهر.

كان هناك رجل مسن يجلس على الدرج، مواجها الساحة. راقب القافلة من موقعه، وملابس العربات الظاهرة في نهاية الشارع، والجنود يأتون ويذهبون. شاهد بيرثوليه يغادر الكاتدرائية، ثم سأل بالإيطالية دون تمهيد:

— هل هي لوحات البندقية؟

— جزئيا، أجاب بيرثوليه. وبالمناسبة.

— لقد سمعت. الجميع سمع عنه.

— ماذا قيل؟

— أن تأخذ كل شيء. اللوحات. التماثيل. كتب. لا تدع شيئا يبقى في مكانه.

تابع الرجل العجوز السير دون عداء، بهدوء من تجاوز السن الذي لا تزال فيه الأحداث مفاجئة.

— قال لي والدي إن البندقية فعلوا الشيء نفسه في بيزنطة. منذ زمن بعيد. أخذوا الخيول البرونزية ووضعوها في بازيليكتهم. الآن تأخذون أنتم الخيول البرونزية من البندقية. هكذا هي التاريخ.

— هكذا هي القصة، كرر بيرثوليه.

— لكن هذا لا يعني أنه عادل. يعني أنه يعيد نفسه.

توقف بيرثوليه على درجات الكاتدرائية. ثم عاد ليتفقد مخزونه.

بدأ عبور جبال الألب في 8 سبتمبر.

كان هذا أصعب جزء في الرحلة. كان الطريق يصعد تدريجيا من بولزانو، متعرجا بين جدران صخرية تضيق كلما اقتربت من الممر. كان يجب قيادة العربات بدقة مطلقة، حركة خاطئة، انزلاق عجلة على حافة حجر، ويمكن أن ينقلب الصندوق في الفراغ. حافظ السائقون على خيولهم قريبة من بعضهم، وتحدثوا بهدوء مع الحيوانات، وتقدموا بحذر. سار الجنود بجانب العجلات، مستعدين للتوقف، للدفع، للإمساك.

تم الوصول إلى قمة الممر في 11 سبتمبر، في نهاية الصباح. كان المنظر من هناك شاسعا، جبال الألب في كل الاتجاهات، القمم مغطاة بالثلوج بالفعل، والوديان العميقة في الظلال. كان الهواء باردا، جافا، مشرقا.

جمع دوبون القافلة عند القمة واستدعى الصناديق.

— ستة وثمانون صندوقا في طريق الخروج، قال لبيرثوليه. ستة وثمانون صندوقا في الأعلى. نحن ننزل.

كان النزول إلى إنتال أسرع، لكنه لم يكن أقل خطورة. كانت العربات تميل إلى زيادة السرعة على المنحدرات، وكان من الضروري الفرامل باستمرار، حيث كان الجنود الذين يمشون بجانبهم سدادات خشبية على عجلاتها، وأيديهم مشدودة على الفرامل، وعضلاتهم متوترة لحمل الحمولة. كان لا بد من ربط عربتين بالحبال على الأشجار في أكثر الأقسام انحدارا، حيث يتناوب الجنود على التمسك وتركها تدريجيا.

إنسبروك.

كانت المدينة النمساوية لا تزال تميزها الوجود الفرنسي، وكانت المفاوضات في كامبو-فورميو تقترب من نهايتها. كان من المقرر توقيع السلام خلال أيام قليلة، في 17 أكتوبر، لكن القوات الفرنسية لم تكن قد أخلت جميع مواقعها بعد. كان النزل الذي أقامت فيه القافلة ليلتين تحت إدارة تيرولي مغلق الوجه، يقدم الطعام بصمت ويأخذ المال دون كلمة.

تناول بيرثوليه الطعام وحده في غرفة المعيشة. على الطاولة التالية، كان ضابطان من سلاح الفرسان الفرنسيين يتبادلان السلام، الديركتوار، وبونابرت. وصلت الأخبار من باريس بشكل متفرق، رسائل، صحف عمرها عشرة أيام، شائعات تنقل عبر السعاة. عاد بونابرت إلى فرنسا. وقد تم الاحتفال به كمنتصر. كان الديركتوار يخاف منه بقدر ما يحتاجه.

طلب النبيذ ولم ينم جيدا.

دخلت القافلة باريس في 27 أكتوبر 1797.

كانت الساعة السابعة. كان الليل يحل الآن. كانت الشوارع لا تزال نابضة بالحياة، التجار يغلقون محلاتهم، سيارات الأجرة تمر ببعضها، مجموعات من المواطنين يعودون من

العمل. لم يكن أحد ينظر إلى العربات المغطاة التي كانت تتجه إلى المتحف المركزي للفنون. لم يكن أحد يعرف ما الذي يحملونه.

كان بيرثوليه قد أبلغ المتحف في اليوم السابق عبر البريد. انتظر الحراس، ومعهم الفوانيس. فتح باب عربة فناء متحف الفنون المركزي عندما وصلت القافلة، واندفعت العربات واحدة تلو الأخرى إلى الفناء الداخلي، عائدة إلى الصمت والظلام النسبي بعد ضجيج المدينة.

دوبون أجرى العد للمرة الأخيرة.

— ستة وثمانون صندوقا في فينيسيا. ستة وثمانون صندوقا في باريس. القافلة اكتملت.

— جيد، قال بيرثوليه.

هذا كل ما قاله.

كان مونج هناك.

لم يكن بيرثوليه يتوقع هذا. رأى ظل العالم في الظلال، قرب النافورة المركزية للفناء، وعباءته مرفوعة ضد برودة أكتوبر. وصل مونج وحده، دون أن يخبر أحدا بقدومه. تعلم وقت الوصول من حراس المتحف وجاء.

— غاسبار.

— كلود.

لم يصافحا بعضهما. لم يكونوا معتادين على ذلك. وقفا جنبا إلى جنب يشاهدان الجنود يبدأون في تفريغ الحمولة، والصناديق التي نزلت من العربات، يحملها كل منها أربعة رجال، موضوعة على أرضية الفناء المرصوفة بترتيب أشرف عليه دوبون بدقته المعتادة.

— هل حدث كل شيء؟

— كل شيء.

— تضرر؟

— لا. باستثناء بعض التعديلات على التعبئة في الطريق. لا شيء خطير.

أومأ مونج. راقب الصناديق تصطف. مستطيلات من الخشب الداكن في ضوء الفوانيس. مجهول الهوية، مغلقة. لم يكن هناك أي مؤشر على ما بداخلها.

— أنت تعرف ما بداخله، تمتم، كما لو كان يتحدث لنفسه.

— أعلم.

— وأنا أيضا، جزئيا. لقد قرأت تقاريركم الأولية. التينتوريتو. الفيرونيزي. التيتيان.

— والبقية. البيليني. اللوتو. البدائيون في الأكاديمية.

— البيليني، كرر مونج.

كان هناك شيء في هذه الكلمة ليس رضا ولا حزينا تماما. شيء وسيط لم يحاول بيرثوليه تعريفه.

— يبدأ المرممون صباح الغد. التعليق بعد ثلاثة أسابيع إذا سارت الأمور على ما يرام.

— وماذا بعد؟

— ثم الجمهور. الغرف ستكون مفتوحة في ديسمبر.

كانت الصناديق الأخيرة تنزل من آخر العربات. أعاد دوبون دفاتره إلى حقيبته، وأطلق سراح الجنود المرافقين، وتبادل بضع كلمات مع رئيس حراس المتحف المركزي للفنون.

— لقد تلقيت رسالة من فيسكونتي، استأنف مونج أخيرا.

أمين الفاتيكان الذي علق على كل شيء بدقة عالم وألم رجل يرى حياته مكشوفة.

— ماذا يقول؟

— لقد طلب أن يأتي إلى باريس. لرؤية التماثيل. يريد التأكد من أن *أبولو ولاوكون* في حالة جيدة. ولديه مشروع. اكتب فهرسا علميا للأعمال القديمة التي نقلت إلى المتحف. يعتقد أن هذا العمل ضروري للعلم. للذاكرة.

— من أجل الذكرى، كرر بيرثوليه. مثل زورزي مع سجله. مثل مينغاردي في تحذيراته.

— ربما. أو ربما حقا من أجل العلم.

— الاثنان ليسا متعارضين.

— لا. الاثنان ليسا متعارضين.

أصبح الفناء الآن خاليا من العربات. تم ترتيب الصناديق الستة والثمانون على الحصى. ظل الحراس في حالة تأهب بينهما. حل الليل تماما، وكانت الفوانيس تلقي بظلال طويلة على جدران المتحف المركزي للفنون.

— هل أنت جائع؟ سأل مونج.

— لم آكل منذ هذا الصباح.

— هناك طاولة في منزلي. لا شيء مميز. لكن شيئا دافئا.

غادروا ساحة المتحف عند باب العربة. في الخارج، عاشت باريس في ضجيج المساء، والأصوات، والعجلات، وصرخات التجار المتأخرين. كانت المدينة غير مبالية. لم تكن تعرف ما الذي تحتويه الصناديق في الفناء. لم تكن تعرف أسماء البندقية أو فيرونا أو بولونيا. تجاهلت موروسيني ودموعه، زورزي وسجلته، مينغاردي وسنواته الخمسة والستين.

باريس كانت على قيد الحياة. باريس لا تزال على قيد الحياة. ربما كان هذا هو الشيء الوحيد المؤكد في هذه القصة كلها.

كانت الأسابيع التالية مليئة بالعمل.

استلمت ورشة الترميم في المتحف المركزي للفنون الصناديق واحدة تلو الأخرى. كان المرممون — فريق مكون من ثمانية أشخاص يقودهم فلمنكي يدعى فان دير بيرغ كان قد عمل في بروكسل قبل الثورة — فتحوا كل صندوق. التغليف أولا، اقطع طبقة بعد طبقة. تم

إزالة القشة يدويا، وخيطا بخيط من الزوايا الرقيقة. بدأ الورق المدهون بالزيت يفتح ببطء. وأخيرا يظهر العمل في ضوء الاستوديو، السطح المرسوم، زوايا النقالة، حواف القماش.

فحص فان دير بيرغ كل عمل بعدسة مكبرة. لاحظ الحالة، وتم إملاء مساعده، وقرر التدخلات اللازمة، هنا ورنيش موحد، وهناك تعزيز للإطار، وأخرى لمسة طفيفة على منطقة تشقق فيها الطلاء أثناء الرحلة.

شارك بيرثوليه في جميع الافتتاحيات. كان يريد أن يكون حاضرا عندما يكشف كل صندوق عن محتوياته. كان ذلك شكلا من أشكال الجرد النهائي، للتحقق مما إذا كان ما وصل إلى الورشة يتوافق مع ما غادر البندقية.

كل شيء كان متطابقا.

كانت لوحة تينتوريتو «معجزة العبد» أول لوحة كبيرة يتم فردها. كان فان دير بيرغ قد خطط لوقت لهذه العملية، حيث كانت مساحة القماش أكثر من عشرين مترا مربعا، ملفوفة على أسطوانة خشبية بطول خمسة أمتار. استغرق الأمر ستة رجال لتحريكها، وساعة لاسترخاؤه تدريجيا.

كان سليما.

توجه فان دير بيرغ إلى بيرثوليه.

— حفظ مذهل. اللف كان جيدا. لا شقوق جديدة. حافظ نسيج التعزيز على التوتر بشكل متساو. فرق التعبئة لديك قامت بعمل نموذجي.

— لقد قام دوبون بعمل نموذجي، صحح بيرثوليه.

— ماذا تعني؟

— الرقيب الأول الذي قاد القافلة. كان هو من حافظ على ظروف النقل. هو وجنوده.

تجاهل فان دير بيرغ الاعتراض بإشارة — لم يكن مهتما بهذا التفصيل — وواصل تفتيشه.

نظر بيرثوليه إلى تينتوريتو الممددة على الطاولة. العبد المطروح بالإطاحة. الجلادون بأدوات مكسورة. كان الجمهور مذهولا. وفي القمة، غاصرا في التكوين من السماء كمذنب، جاء القديس مرقس لمساعدة خادمه. الشكل الإلهي مقلوب، ذراعاه ممدودتان، والعباءة ترفرف في حركة السقوط السماوي. هذه الجرأة التي أثارها زورزي: طريق مختصر لم يجرؤ أحد قبل تينتوريتو على القيام به، ولم يستطع أحد منذ ذلك الحين النظر إليه دون أن يشعر بشيء يتحرك بداخله.

زورزي وسجل سجله. هذا الخط الضيق، القلم يحمل دون ارتجاف بينما كانت الصناديق تخرج واحدة تلو الأخرى.

ما قاله زورزي في بيت الفصل الكبير الفارغ عاد إليه بلا سبب محدد: هذه المستطيلات الواضحة. الجدران الآن تحمل نفس الذكرى.

انتزع نفسه من الفكرة وذهب ليضع علامة على الصندوق التالي.

في 15 نوفمبر 1797، بدأ العمل على التعليق في الغرف الفينيسية الجديدة.

كان متحف الفنون المركزي يتوسع. لم تعد غرف القصر الملكي، التي تحولت قبل عدة سنوات إلى غرف عرض، كافية لاستيعاب تدفق الحملات المتعاقبة، والأعمال الفلمنكية لعام 1794، والمنحوتات القديمة في روما، والآن اللوحات الفينيسية. كان من الضروري طلب المزيد من الاعتمادات من المدير، والحصول على إذن لاستخدام غرفتين جديدتين في الجناح الشمالي، وتركيب قضبان تصويرية جديدة، وإصلاح الأسقف، وتركيب الإضاءة.

التعليق كان علما. لم نكن نعلق اللوحات بشكل عشوائي. قام أمناء المتحف بوضع مبادئ مجمعة، مجمعة حسب المدرسة والفترة والمواضيع؛ تناوب بين الصيغ الكبيرة والصغيرة لتجنب السحق البصري؛ وفر مساحات كافية حول الأعمال الرئيسية حتى تتوقف العين دون تشتيت.

لم يكن بيرثوليه أمينا للمتحف. لكن طلب منه حضور المناقشات حول التخلص من الأعمال الفينيسية، بصفته رئيس المجموعة. كان يعرف كل لوحة، وكل تمثال سيتم تعليقه. كان يستطيع أن يقول ما جاء من أين، وفي أي سياق، وفي أي ولاية.

لقد جاء. كان يستمع. كان يجيب على الأسئلة.

وعندما علقت أولى اللوحات على جدران الغرف الجديدة، وقف ينظر إليها للحظة في صمت بعد الظهر، عندما أخذ العمال استراحتهم وذهب المفوضون لتناول الغداء.

احتلت رواية فيرونيز «الزفاف في قانا» الجدار الخلفي للقاعة الكبرى، مقابل الباب. كما في سان جورجيو ماجوري، حيث كانوا يواجهون باب قاعة الطعام منذ عام 1563. كان الشكل مختلفا، لكن الفكرة بقيت كما هي: أول شيء يراه الزائر عند الدخول. هذه اللوحة التي غزت مجال الرؤية قبل أن تتاح لنا حتى الوقت للاستعداد لاستلامها.

توقف بيرثوليه عند العتبة.

لم يستطع رؤية الشرائط السبعة الملتصقة معا. لم يستطع رؤية التجهيزات. رأى اللوحة كما أرادتها فيرونيزي، كتلة من الحياة، من الألوان، من الحركة، مئتا شخصية مجتمعة في وليمة، ومع ذلك كل واحدة مميزة، كل حاضرة، كل واحدة تحمل في وجهها قصة معينة استطاع الرسام أن يلتقط وتثبيتها إلى الأبد.

ظل لفترة طويلة.

ثم غادر الغرفة دون أن ينظر خلفه.

فتحت أبواب الغرف الفينيسية للجمهور في 1 ديسمبر 1797.

منذ الساعة الأولى، تدفق الزوار. تم الإعلان عن الافتتاح في الصحف. كان هناك شائعات لأسابيع بأن كنوز البندقية ستعرض بعيدا. جاء الفضوليون، الفنانون، الطلاب، الأساتذة، البرجوازيون في زي الأحد، العمال الذين أخذوا ساعة من يومهم، جميعهم يأتون لرؤيتهم.

تسلل بيرثوليه بينهم، متخفيا. كان يريد أن يرى كيف يبدو الجمهور. كيف كان رد فعله.

نظر.

مجموعة من الشباب—طلاب، حسب ملابسهم—توقفت أمام معجزة العبد. أحدهم، رجل طويل ونحيف ذو وجنتين مجوفتين، حدق في وجه القديس مارك وهو يقصر الصورة. قال شيئا بصوت منخفض. اقترب رفاقه. كلمات متبادلة — التكوين، المنظور، اختصار — كلمات تقنية، كلمات تعلمتها في دروس الرسم. لكن في عيني الطويل النحيف، خارج المفردات، كان هناك شيء آخر. صدمة. شعور لا يوصف.

كانت امرأة وحدها أمام مادونا وطفل بيليني. نظرت دون أن تتحرك. لفترة طويلة. كانت يداها مطويتين أمامها، كما في كنيسة. لم تتكلم، ولم تقرأ الكتيب الموزع عند المدخل. كانت تراقب. وفي تلك النظرة قرأ بيرثوليه شيئا تعرف عليه دون أن يستطيع تسميته.

توقف أب وابناه الاثنان — أحدهما في العاشرة والآخر ربما في الثانية عشرة — أمام لوحة الزفاف في قانا لفيرونيزي. قرأ الأب النص، شرح المشهد، عرض التفاصيل. استمع الأطفال بنصف حماس، وعيونهم مشدودة إلى الألوان، إلى الهندسة المعمارية الفخمة للخلفية، إلى ذلك الخادم المنعزل الذي كان رداؤه البسيط يتناقض مع فخامة ملابس المدعوين.

— لماذا يرتدي ملابس سيئة الشكل؟ سأل الأصغر.

— لأنه خادم، قال الأب. رجل من الشعب.

— وهو على حق، وهم مخطئون؟

— انظر إلى اللوحة. ما رأيك؟

نظر الطفل. لفترة طويلة. ثم قال:

— أعتقد ذلك.

اختفى بيرثوليه.

غادرت المتحف المركزي للفنون في ضوء ديسمبر البارد. كانت الأرصفة مهجورة. كان نهر السين يتدفق باللون الرمادي بين ضفافه. كانت القوارب تصعد في النهر، محملة بالحطب لفصل الشتاء. كانت باريس باردة، حيوية، صاخبة، تلك الطاقة الخاصة للمدن التي لا تتوقف أبدا.

فكر في الطفل أمام فيرونيزي الذي قال: أعتقد ذلك.

حقيقتان من المستحيل التوفيق بينهما، ومع ذلك كلاهما صحيح.

عاد إلى منزله.

غدا، ستعاد فتح القاعات. وكان هناك آخرون يأتون ويشاهدون. وكان الأطفال الآخرون يطرحون أسئلتهم.

وفي البندقية، ستظل الجدران محددة بمستطيلاتها الشاحبة.

الفصل الرابع: المشروع المصري (1797-1798)

في 5 ديسمبر 1797، عاد بونابرت إلى باريس بعد انتصاره الإيطالي. هتف له الحشد في الشوارع. رمت النساء الزهور. صرخوا الرجال باسمه. عاد الفاتح.

لكن ما رآه في شارع الفيكتوار كان مقززا. حولت جوزفين منزلهم إلى صالون دائم، عشرات الطفيليات، والبلاطي، والمجاملين، والمستفيدين، جميعهم متجمعون في الغرف كالذباب على العسل، جميعهم يريدون الاقتراب من الجنرال المنتصر، مصافحته، الحصول على كلمة، ابتسامة، شيء يقوله في اليوم التالي.

طرد الجميع بعيدا.

— اخرجوا! اخرجوا جميعا! هذا البيت ليس سيركا!

احتجت جوزفين بضعف، كانت تحب أن تستقبل، أن تتألق، أن تعجب بها. لكن بونابرت كان جامدا، وأنهت بهز كتفيها بتلك الرشاقة اللامبالية التي اضطرت للاستسلام دون أن تبدو وكأنها تفعل ذلك. كان يريد الهدوء، الصمت، والتركيز.

كان لديه مشاريع. خطط. الطموحات.

I— الهوس بالحركة

استيقظ بونابرت في الساعة العاشرة. متأخر. فات الأوان لرجل قاد جيوشه في إيطاليا إلى المعركة عند الفجر. لكن هنا، في باريس، في هذه الغرفة الفخمة في شارع فيكتوار، ماذا للمرء أن يفعل سوى النوم؟

كانت جوزفين لا تزال نائمة، مدفونة تحت ثلاثة لحافات ريش. في اليوم السابق، كانت ترقص حتى الساعة الرابعة صباحا في منزل باراس. تركه بونابرت عند منتصف الليل، بحجة التعب. في الواقع، لم يعد يحتمل هذه الصالونات الباريسية، وهذه النميمة، وهذه المؤامرات وهؤلاء النساء في المكياج وهؤلاء الرجال الذين يتحدثون فقط عن أهميتهم الشخصية.

نزل إلى مكتبه دون أن يوقظ جوزفين. لا تزال الغرفة تفوح منها رائحة السيجار. كان يدخن حتى الساعة الثالثة صباحا أثناء قراءته لتقارير الجيش من جيش الراين. تقارير سيئة. جنرالات غير أكفاء. جنود سيئ التجهيز. عمليات مهملة. لا علاقة لها بجيش إيطاليا.

دخل سكرتيره بوريان الساعة العاشرة والنصف، حاملا ثلاث أكوام من البريد. وضع الحزم بعناية على المكتب. كان يعلم أن أدنى اضطراب صباحي قد يستحق توبيخا.

— صباح الخير، جنرال. يطلب الديركتوار حضورك هذا اليوم. الاجتماع الساعة 3 عصرا في لوكسمبورغ. الموضوع: إنجلترا.

تمتم بونابرت دون أن يرفع عينيه.

— إنجلترا مرة أخرى. هذا كل ما يفكرون فيه. وكأنك تستطيع غزو إنجلترا بثلاث قوارب وجنود يتقيؤون بمجرد رؤية الماء.

يمسك أول كومة بريد. دعوات. ثلاثة وعشرون دعوة للعشاءات، الحفلات الراقصة، الاستقبالات. كل ما أراده باريس هو رؤيته. أظهرها. أن يتفاخر بأنه حصل عليه. مر فيها، عابسا، قبل أن يرمي الكومة بعيدا، متعبا.

— ارفض كل شيء.

تردد بوريان.

— جنرال، بعض الدعوات تأتي من شخصيات مهمة. تصر مدام دي ستايل كثيرا. إنه ينظم عشاء حيث سيكون الحضور...

— لا يهمني مدام دي ستايل! قاطع بونابرت، ووضع راحة يده على المكتب. هذا الثرثرة التي لا تحتمل التي تعتقد أن الكلام هو تفكير! ارفض ولا تتحدث معي عن ذلك مرة أخرى.

لاحظ بوريان دون تردد. كان يعرف سيده. لا حاجة للإصرار.

— الكومة الثانية، جنرال؟

— قل لي.

— طلبات التوظيف. مئة وسبعة عشر رسالة من أشخاص يريدون منصبا، معروفا، معاشا.

قام بونابرت بإيماءة نفاد صبر.

— فرز. احتفظ بتلك التي تأتي من ضباطي من إيطاليا. الباقي، في القمامة.

— جيد. وماذا عن الكومة الثالثة؟

— أعطني.

— تقارير عسكرية. حالة الجيوش. الأعداد. المعدات.

استولى بونابرت على الكومة وبدأ في القراءة. كان وجهه يظلم مع كل صفحة، وفكاه مشدودان، وعيناه تزداد صلابة وقوة.

— خسر جيش الراين أربعة آلاف رجل في سبتمبر، قال أخيرا، وكأنه بالكاد يصدق ما يقرأه. هروب. أمراض. قاتل. أربعة آلاف رجل! مع جيشي الإيطالي، كنت سأغزو ألمانيا كلها بأربعة آلاف رجل إضافي!

رمى التقارير على المكتب بقوة مفاجئة.

— هؤلاء الجنرالات غير قادرين. جوردان، مورو. كلها غير كفؤة. هم لا يعرفون كيف يتحركون. يتحركون للأمام مثل الثيران. يرى العدو أنهم قادمون على بعد ثلاثة أيام من المسير فقط.

ظل بوريان صامتا. كان التحدث بسوء عن الجنرالات الآخرين أمام الشهود أمرا خطيرا. كان الديركتوار يراقب. الجواسيس كانوا في كل مكان.

ذهب بونابرت إلى النافذة. كان شارع فيكتوار ينبض بالحياة في الصباح الرمادي، وصاح التجار، ومرت العربات، وعاشت باريس. كان يشعر بالملل.

ظل ساكنا لفترة طويلة، ويداه خلف ظهره، ينظر دون أن يرى.

— بوريان، سأجن.

ظن السكرتير أنه سمع خطأ.

— جنرال؟

— مجنون. سأجن إذا بقيت هنا دون أن أفعل شيئا. لقراءة التقارير. أن ترفض الدعوات. يستمع إلى باراس وزملائه وهم يناقشون لساعات دون أن يقرروا شيئا.

دار بسرعة وضرب قبضته على الحائط، بعنف أفزع بوريان.

— أنا في الثامنة والعشرين من عمري! ثمانية وعشرون عاما! لقد غزوت إيطاليا! هزمت أربعة جيوش نمساوية! فرضت السلام على فيينا! والآن يطلب مني الجلوس في باريس وألعب دور السياسي الجالس على الكرسي!

اختار بوريان كلماته بعناية قبل أن يجيب.

— الديركتوار يخاف منك، جنرال. يفضلون أن تكون أمامهم بدلا من أن تكون بعيدا، مع جيش خلفك.

— أعلم أنهم يخافونني! ولديهم سبب للخوف مني! لكن هذا لا يغير شيئا. سأتعفن هنا إذا لم أجد شيئا أفعله.

عاد إلى مكتبه وعقد ذراعيه، وحدق في سكرتيره.

— يجب أن نعود. قريبا. في غضون ستة أشهر كحد أقصى. حملة جديدة. غزو جديد.

— إلى أين ستذهب؟ سأل بوريان بلطف.

ابتسم بونابرت، تلك الابتسامة البطيئة والغامضة التي يحتفظ بها للحظات التي تكون فيها أفكاره قد بدأت بالفعل ولم يبدأها الآخرون بعد.

— لا أعرف بعد. لكنني سأكتشف ذلك. هناك دائما مكان يمكن التغلب عليه لمن يعرف كيف يبحث.

كان قصر لوكسمبورغ يضم الديركتوار، وهو مبنى فخم، كان سابقا قصر ماري دي ميديتشي، وقد تحول إلى مقر السلطة الجمهورية. وصل بونابرت هناك في تمام الساعة الثالثة، يرافقه مساعدان في المعسكر، يرتديان زيا متقنا وبتعبير مغلق.

كانت غرفة الاجتماعات ممتلئة بالفعل. كان المديرون الخمسة وعدد من الوزراء — بمن فيهم تاليران للعلاقات الخارجية وشيرير للحرب — جالسين حول الطاولة الكبيرة.

انحنى بونابرت مع إيماءة رأس وجلس دون انتظار دعوة.

تحدث باراس بنبرة من يظن أنه يقدم معروفا.

— الجنرال بونابرت، شكرا لقدومك. أردنا التحدث معك عن الوضع مع إنجلترا.

— أنا أستمع إليك، قال بونابرت، وعيناه مثبتتان على باراس بشدة جعلت نظرة المدير تنخفض أكثر.

— السلام القاري مؤمن، أجاب باراس. وقعت النمسا مع كامبو-فورميو. إسبانيا هي حليفنا. بروسيا المحايدة. واصل الحرب فقط إنجلترا. أسرابه تحاصر سواحلنا. ذهبه يمول جميع التحالفات ضدنا. لا بد من ضربها.

— حسنا. كيف؟

تردد باراس. تولى روبل القيادة.

— غزو مباشر. وصل خمسون ألف رجل إلى إنجلترا. سير نحو لندن. السلام يفرض على رئيس الوزراء بيت.

نظر بونابرت إليهم واحدا تلو الآخر ببطء متعمد كما لو كان يحاول التأكد من جديتهما.

— غزو مباشر لإنجلترا، كرر. مع أي سفن؟

— سنبني القوارب، قال روبل. ألف قارب. قادر على حمل خمسين رجلا لكل منهم.

— ألف قارب، كرر بونابرت، مستمتعا بسخافة هذا الشكل. وبينما يتم بناء هذه الآلاف من القوارب، ماذا تفعل البحرية الملكية؟ تضم مائتا سفينة خطية، وخمسين فرقاطة، ومئات من السفن الصغيرة. يقومون بدوريات في القنال الإنجليزي ليلا ونهارا. لن تعبر آلاف قاربنا هذه الخمسة والثلاثين كيلومترا من الماء. ثلاثة أرباعها ستغرق قبل أن تصل إلى الساحل الإنجليزي.

انحنى لا ريفيلبير-لوبو للأمام وكأنه يعتقد أنه وجد الحل.

— سنختار الوقت المناسب. ليلة ضبابية. عاصفة. الإنجليز لن يروا شيئا.

هذه المرة لم يستطع بونابرت كبح ابتسامة لا تصدق.

— عاصفة؟ هل تريد إرسال خمسين ألف رجل في قوارب أثناء العاصفة؟ سيغرقون جميعا حتى قبل أن يروا الإنجليز، أيها المواطن المدير.

كان تاليران هو من تدخل من طرف الطاولة بصوته الأنيق والهادئ تقريبا.

— الجنرال بونابرت على حق. الغزو المباشر مستحيل في ظل هذه الظروف. يجب أن نبحث عن طرق أخرى لضرب إنجلترا.

التفت باراس إليه بانزعاج طفيف.

— ماذا يعني يا تاليران؟

أخذ وزير العلاقات الخارجية وقته، كعادته، تاركا الصمت يحل معه قبل أن يجيب.

— ممتلكاته البعيدة. طرق تجارتها. مستعمراتها. إنجلترا غنية لأنها تتاجر. دعونا نقطع طرقها، ندمر تجارتها، وسنخنقها بثقة أكثر من كل المعارك البحرية الممكنة.

نظر بونابرت إلى تاليران باهتمام جديد. كان الرجل ماكرا، فاسدا، ساخرا حتى النخاع، لكنه ذو ذكاء يصعب تجاهله.

— هل تفكر في مكان معين؟ سأل.

— الشرق، رد تاليران دون تردد. البحر الأبيض المتوسط الشرقي. الطريق إلى الهند. هنا تكمن الثروة البريطانية الحقيقية، وهنا يجب أن نضرب.

رفع روبل صوته فورا.

— الشرق؟ إنه بعيد جدا! مخاطرة كبيرة! أساطيلنا لا تستطيع حتى مغادرة تولون دون أن تتعرض للمضايقة من الإنجليز!

— كلما زاد سبب المحاولة، رد تاليران، غير متأثر. إذا نجحنا، سيكون التأثير كبيرا. إذا فشلنا، سنفقد جيشا بعيدا فقط.

لم يسمعه بونابرت تقريبا. ظهرت له حقيقة بوضوح كدليل: الديركتوار لم يكن يريد حقا هزيمة إنجلترا. كان يريد أن يبعده، بونابرت، عنه. لإرساله بعيدا، مع جيش، في مغامرة خطيرة قد لا يعود منها.

لكن هذا بالضبط ما كان يريده. ارحل. غزو. بعيدا عن باريس، بعيدا عن تلك الصالونات المملة، بعيدا عن أولئك السياسيين المتوسطين الذين كانوا يتخيلون أن لديهم السلطة.

— أنا مستعد للنظر في هذا الخيار. الشرق يهمني كثيرا. لفترة طويلة.

ابتسم باراس، ابتسامة راضية، الذي يظن أنه وضع قطعة في المكان الذي أرادها.

— ممتاز. سنعينك قائدا لجيش إنجلترا. رسميا، ستستعد للغزو. بشكل غير رسمي، ستبحث خيارات أخرى. على سبيل المثال، الشرق.

— جيد. في هذه الحالة، أريد صلاحيات كاملة: اختيار الضباط، التنظيم، المعدات. كل شيء، دون استثناء.

— ستحصل عليها.

— وميزانية غير محدودة.

يفكر باراس، محاولا التفاوض مع زملائه.

— اللامحدودة كثيرة...

— إذا أردت أن تضرب إنجلترا بجدية، تحتاج إلى وسائل جدية، قال بجفاف. وإلا، من الأفضل أن تبقى هنا دون فعل شيء.

كان المديرون يتشاورون بأعينهم. كان باراس هو من أومأ برأسه أولا.

— حسنا. ميزانية غير محدودة. لكن تبقينا على اطلاع منتظم.

— بانتظام، قال بونابرت.

استمر الاجتماع لمدة ساعة أخرى، تفاصيل إدارية، مواعيد، تمويل. استمع بونابرت بأذن مشتتة، يجيب بكلمات أحادية، يهز رأسه في اللحظة المناسبة. كان يفكر بالفعل في شيء آخر.

الشرق. البحر الأبيض المتوسط. ربما مصر. أو سوريا. أو حتى أبعد من ذلك، الهند. أن يمشي على خطى ألكسندر. سخيف. بالتأكيد خطير. كان مدركا لذلك.

II — المشروع المصري

في اليوم التالي، استدعى مونج إلى شارع الفيكتوار. الساعة التاسعة صباحا. وصل العالم في الوقت المحدد، حاملا حقيبة ثقيلة مليئة بالوثائق وضعها بعناية على الكرسي المجاور قبل أن يجلس.

— صباح الخير، جاسبار. قهوة؟

— بكل سرور.

قدم خادم كوبين. انتظر بونابرت حتى أصبحا وحدهما، ثم دار حول المكتب واتكأ عليه، وذراعاه مطويتان، في تلك الوضعية المألوفة التي يتبناها عندما يرغب في التحدث بصراحة.

— غاسبارد، أحتاجك.

كان بونابرت يخاطب بسهولة. كان ذلك وسيلة لإظهار نوع من القرب بالنسبة له. وأيضا نوع من الهيمنة. وبالمقابل، تجرأ القليل جدا على الرد بالمثل.

— أنا في خدمتكم. ما طبيعة المهمة؟

— ليس للعلم هذه المرة. حسنا، ليس بشكل مباشر. للسياسة.

رفع مونج حاجبه باستفهام.

— عينني الديركتوار قائدا لجيش إنجلترا. الذريعة: الاستعداد لغزو إنجلترا. المشروع الحقيقي: شيء آخر.

تردد مونج للحظة.

— الشرق؟

ابتسم بونابرت، تلك الابتسامة القصيرة التي كانت تدل على الدهشة والموافقة في آن واحد.

— خمنت بسرعة. نعم، الشرق. لكنني لا أعرف أين بعد. علينا أن ننظر في الخيارات.

جلس وفتح على مكتبه خريطة ضخمة تغطي شرق البحر الأبيض المتوسط إلى شواطئ الهند. اقترب مونج غريزيا ليرى ذلك بشكل أفضل.

— انظر. هذه المنطقة بأكملها ضعيفة التحكم. الإمبراطورية العثمانية تنهار. حكم المماليك مصر، لكن دون أي سلطة حقيقية من السلطان. فارس منقسمة. انهارت الهند المغولية. في كل مكان، فراغ. فرص في كل مكان.

درس مونج الخريطة بصمت، وجبينه متجعد قليلا.

— وإنجلترا، في كل هذا؟

— إنجلترا تتاجر مع الهند. ملايين الجنيهات كل عام. إذا قطعنا هذا الطريق، إذا هددنا ممتلكاتهم الهندية، سنضربهم في المحفظة. أكثر فعالية من كل المعارك البحرية في العالم.

— مصر ستكون الأساس المنطقي، قال مونج بعد لحظة تأمل. الموقع المركزي. السيطرة على القناة البرية بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. الثروة الزراعية. عدد سكان كبير.

— ما أعتقده. لكنني أريد رأيك كباحث، وليس فقط كاستراتيجي. ما هي مصر حقا؟

أخذ مونج نفسا عميقا قبل أن يجيب.

— أحد مهد الحضارة. ثلاثة آلاف سنة من التاريخ المتواصل. الأهرامات. المعابد. الهيروغليفية التي لا يستطيع أحد في أوروبا قراءتها. منجم من المعرفة مدفون لقرون، لم يكن لدى أحد الوسائل لاستكشافه.

تلألأت عينا بونابرت.

— منجم من المعرفة. هذا كل شيء. ماذا لو نقم بفتح مزدوج؟ بعثة ضخمة. عسكريون وعلماء معا. نغزو مصر بالسلاح، وفي الوقت نفسه نستكشفها بالعلم. نحن نقيس كل شيء. نرسم كل شيء. نحن نوثق كل شيء. أنشأنا وصفا ضخما لمصر جعل فرنسا الدولة العلمية الرائدة في العالم.

نظر إليه مونج. كان بونابرت واقفا، عيناه تلمعان، ويداه تلوحان فوق الخريطة كما لو كان يرى الجيوش في المسير.

— إنه طموح، قال العالم، بضبط لا يخفي اهتمامه.

— بالطبع هو طموح! المشاريع الصغيرة لا تهمني! أريد أن أصنع التاريخ!

جلس بونابرت مرة أخرى، وتغيرت نبرته، أكثر هدوءا ودقة.

— وهناك شيء آخر، يا غاسبار. المتحف المركزي للفنون.

— المتحف المركزي للفنون؟

— في 27 يوليو، رأيت الانتصار. تمتلك باريس الآن أرقى مجموعات الفن الإيطالي في العالم. لكن لماذا نتوقف عند إيطاليا؟ لماذا لا نمتلك أيضا أجمل مجموعات الفن المصري؟

فهم مونج فجأة وشعر بشيء يضيق في صدره.

— تريدون أن تأخذوا آثارا من مصر. كما فعلتم في إيطاليا.

— بشكل كبير. أي شيء يمكن نقله. تماثيل، ستلات، توابيت، مومياوات، بردية. سيصبح المتحف المركزي للفنون أول متحف عالمي في العالم. فن جميع الحضارات.

— سيكون الأمر أصعب حتى من إيطاليا، اعترض مونج. النقل، الحرارة، وزن الآثار المصرية. بعض هذه العمالقة تزن عشرات الأطنان.

— أعلم. لهذا أحتاجك. أنت وبيرثوليه. أنت من سينظم اللجنة العلمية. تجنيد أفضل العلماء. جميعهم متطوعون. جميعهم قادرون على تحمل الظروف القاسية. مساحون، رسامين، طبيعون، كيميائيون، مستشرقون، أطباء، مهندسون.

— كم عدد الرجال؟

— على الأقل مئة وخمسون. ربما مئتان. أريد لجنة تترك انطباعا، وتظهر للعالم أن فرنسا ليست فقط في حالة حرب.

كان مونج متحمسا وقلقا في آن واحد. متحمس للنطاق العلمي للمشروع. قلق بشأن ما يعنيه ذلك أخلاقيا. المزيد من السرقات. المزيد من العينات. إيطاليا أولا. مصر الآن. متى سيتوقف ذلك؟

قرر بونابرت. وعندما قرر بونابرت، انتهت الأمور.

— سأبدأ في التجنيد.

— ممتاز. غاسبار، تعليمات أخيرة...

رفع مونج رأسه.

— السرية المطلقة. يجب ألا يعرف الديركتوار شيئا عن مدى خططي. ليس بعد. جند العلماء بإخبارهم أن الرحلة لبعثة علمية. لا يذكر مصر. لا يذكر المقتنيات. هذا بالضبط: بعثة علمية، وجهة تحدد لاحقا، مغادرة بعد ستة أشهر.

— مفهوم.

أخذ مونج حقيبته. عند الباب تردد للحظة وجيزة، كما لو كان يريد أن يضيف شيئا، لكنه لم يفعل، وخرج بصمت.

عاد بونابرت إلى أوراقه. امتدت مصر أمامه: الإسكندرية، القاهرة، النيل، طرق الصحراء. أخذ قلما ورسم خطا من الساحل إلى الأهرامات.

انتخب بونابرت عضوا في المعهد الوطني، قسم الميكانيكا. ما كان يهم هو الصورة، العامة والمتعلمة، الفاتحة والمثقفة، الإسكندر وأرسطو في شخص واحد.

أقيمت مراسم التنصيب في 4 يناير 1798. غرفة فاخرة. حضر مئة أكاديم. لابلاس، لاغرانج، مونج، بيرثوليه، فوركروي، فولني، جميعهم هناك.

صعد بونابرت إلى المنصة مرتديا الزي الرسمي. لا زي مدني. كان يريد أن يتذكر: الجندي أولا.

قرأ خطابا معدا مسبقا. متعجرف. أجوف. لكن بشكل جيد، الإشارات إلى العصور القديمة، الإسكندر الذي يشجع أرسطو، أغسطس يحمي فيرجيل، قيصر يكتب شروحه بين معركتين. تصفيق مهذب.

رد لابلاس. خطاب مدح حول الرياضيات والفن العسكري، والباليستيات، والتحصين. كان يجب أن يكون الجنرال العظيم عالم رياضيات. بونابرت كان كذلك.

تصفيق إضافي.

بعد الحفل، قدم مونج ورقة بحثية عن الأسطح القابلة للتطوير. استمع بونابرت. فهم نصفها، ليس بما كفى ليواكب ذلك، بما كفى ليومئ في اللحظات المناسبة.

في نهاية الجلسة، جاء عدة أكاديميين ليحيطوا من قبل. فولني بشكل خاص تعامل بتلك الحذر المحسوب، الرجال الذين يريدون أن يظهروا وكأنهم لم يجهزوا شيئا.

— جنرال، سمعت أنك تتأمل في بعثة إلى الشرق.

ترك بونابرت بضع ثوانٍ قبل أن يجيب، وعيناه مثبتتان عليه دون أن يرمش جفن.

— من قال لك ذلك؟

— شائعات، لا شيء دقيق. لكن إذا كان هذا صحيحا، فسأكون مهتما جدا بالمشاركة فيه. لقد نشرت كتابا بعنوان «رحلة إلى سوريا ومصر» والذي ربما لا يزال موثوقا. لقد سافرت في هذه البلدان. يمكنني مساعدتك.

كان بونابرت يقيمه بعينيه، رجل صغير وجاف، نظرة حيوية وذكية، مستشرق معروف في جميع أنحاء أوروبا. سيكون ذلك مفيدا.

— لو كنت سأنظم مثل هذه البعثة، فسأحتاج إلى مستشرقيين من الطراز الأول. لكنتم على قائمتي، أيها المواطن فولني.

— سيكون لي الشرف يا جنرال.

اقترب أكاديميون آخرون في الدقائق التالية. فوريه، جومار، كونتي، جميعهم مهتمون، جميعهم مستعدون للمغادرة إلى هذه الوجهة التي لم ينطق اسمه بعد. دون بونابرت ملاحظات ذهنية. التجنيد بين الأكاديميين منح المكانة، وأظهر أنها كانت بعثة علمية جادة وليست مغامرة عسكرية بسيطة.

غادر المعهد راضيا. وقد عززت الانتخابات صورته. كل شيء بدأ يسير في مكانه.

III— تعيين اللجنة

كانت الأسابيع التالية أسابيع التنفيذ.

انتقل مونج إلى مكتب في المدرسة متعددة التقنيات وبدأ في التوظيف. منحه بونابرت حرية كاملة، ميزانية غير محدودة، دون قيود. كان لا بد من تشكيل اللجنة. أفضل العلماء.

كانت المهمة هائلة. أين يمكن العثور على مئة وسبعة وستين رجلا مستعدين للمغادرة إلى وجهة مجهولة، خلال ستة أشهر، لفترة غير محددة، مع مخاطر كبيرة؟

كان هناك حاجة إلى رياضيين للحسابات الفلكية والجيوديسية؛ وعلماء الطبيعة لدراسة الحيوانات والنباتات؛ كيميائيون لتحليل المعادن والمياه؛ مهندسون لبناء الطرق والجسور والتحصينات؛ رسامين لتوثيق كل ما سيتم اكتشافه؛ أطباء لعلاج الجنود؛ والمستشرقون لفهم اللغات والعادات؛ معماريون لقياس الآثار؛ الطابعون لتوزيع الإعلانات والصحف.

بدأ مونج بالأسهل: زملائه في المدرسة متعددة التقنيات. شاب. متحمس. كفء.

فوربيه، عالم رياضيات عبقري. ثوري متحمس خلال فترة الإرهاب، سجن ثم عفوا عنه. كان أستاذا في المدرسة العادية لفترة قصيرة، ولا يزال يحمل في عينيه ذلك الحمى الطفيفة لرجال عرفوا الموت عن قرب ولم يستسلموا للعيش بسرعة. استدعاه مونج إلى مكتبه صباح أحد أيام يناير.

— جوزيف، لدي اقتراح لأقدمه لك. اسمعني قبل أن تجيب.

جلس فوربيه وضم ذراعيه بانتباه.

— أنا أستمع.

— بعثة علمية. بعيدا. خطير. مثير للاهتمام. وجهة سرية في الوقت الحالي. ستعرفها في تولون. المغادرة بعد ستة أشهر. غير محدد. أجر مضاعف. وإذا نجوت، فمجد سيدوم لفترة أطول منك. مهتم؟

لا يفكر فوربيه طويلا، بالكاد كفى لمونج ليكمل جملته.

— نعم.

ابتسم مونج. كان يأمل في هذا الجواب دون أن يكون متأكدا.

وحتى الرحيل، لم يكن هناك كلمة لأي أحد.

— مفهوم، قال فوربيه وهو يمد يده. متى أعرف إلى أين نحن ذاهبون؟

— في تولون. ليس قبل ذلك.

فوربيه خرج.

وعاد إلى صفه، محافظا على وتيرته.

كونتي كان حالة خاصة. مهندس عبقري، مخترع قلم رصاص، قادر على إصلاح كل شيء، وبناء كل شيء، والارتجال بثلاث أدوات ومنطق سليم، وهو أمر أساسي لأي بعثة تهدف للعمل بعيدا عن الحضارة.

كان كونتي منحنيا فوق آلية فككها بصبر جراح. رفع عينيه عند مدخل مونج دون أن يقاطع إيماءته.

— نيكولا-جاك، قال مونج، أحتاجك في مهمة استثنائية.

— بأي معنى، استثنائي؟ سأل كونتي، وهو يضع مفك البراغي جانبا.

— البعثة العلمية والعسكرية. مناخ صعب، معدات نادرة، إمدادات غير مؤكدة. يجب تصنيع كل شيء في الموقع. أدوات علمية، أدوات، آلات، قطع غيار. أنت الوحيد القادر على القيام بذلك في هذه الظروف.

كان كونتي يمسح الورشة بعينيه وكأنه يحمله معه في أمتعته.

— أنا قادم. لكنني أحضر أدواتي.

— بالطبع.

— كل أدواتي، قال كونتي. بما في ذلك الحدادة المحمولة.

— أي شيء تحبه.

مد كونتي يده، وتم إتمام الصفقة في أقل من دقيقة.

كان التجنيد يتقدم. لكن ليس كلهم كانوا سهلين في الإقناع.

دولوميو، عالم معادن ذو سمعة أوروبية، متخصص في الصخور والبلورات، فارس وسام مالطا. رجل ذو مبادئ، لم يفعل شيئا دون أن يعرف السبب. استدعاه مونج إلى غرفة الجلوس في شقته في شارع فوسيه-سان جيرمان.

— ديودات، البعثة لا تستطيع الاستغناء عنك. معادن الصحراء، التكوينات الجيولوجية التي لم يدرسها أحد بعد.

أخذ دولوميو وقته قبل أن يجيب، كعادته.

— إلى أي وجهة؟

— لا أستطيع أن أخبرك الآن.

— إذن أرفض، قال دولوميو بهدوء. أنا لا أغادر إلى وجهة مجهولة لأسباب مجهولة في خدمة مصالح لا أعرفها.

— بونابرت هو من يقود هذه البعثة.

وأحدث الاسم تأثيره. عبس دولوميو. بونابرت، الفاتح، الطموح، الذي استخدم العلم كما استخدم جنرالاته، من أجل مجده الخاص. لم يكن له أي تقدير خاص لهذا الرجل.

— سآتي. لكن دعوني أكون واضحا: لن أبقى إلى أجل غير مسمى.

— ستبقى طالما لزم الأمر، قال مونج بحزم وطيب. وستقوم بعمل مهم.

وافق دولوميو على مضض بإشارة من يده، بنصف حماس، لكنه وافق.

بيرثوليه كان أمرا مختلفا تماما. كان كيميائيا بارزا، رجلا حكيما ومتأملا، لا يميل للمغامرة وأقل من ذلك إلى اتخاذ قرارات متسرعة. فضل مونج أن يكون بونابرت هو من يقنع نفسه بنفسه.

دخل بيرثوليه مكتب بونابرت بكرامة من يعرف اسمه المحترم.

— كلود-لويس، أنت ذاهب معنا إلى الشرق.

توقف بيرثوليه فجأة.

— في الشرق؟

— ربما في مصر.

ساد صمت، بدا خلاله وكأنه يزن الاقتراح كما يزن المرء مادة فعالة خطيرة، بعناية ودون استعجال.

— حسنا، أنا في الخمسين من عمري. المناخ المصري في هذه الظروف...

— ستأتي، قال بونابرت. أنا بحاجة إليك. ليس فقط من أجل الكيمياء. للتنظيم، ومن أجل المكانة، وأن تمنح هذه البعثة الوزن العلمي الذي تستحقه. أنت عضو في المعهد. اسمك في هذه اللجنة يساوي عشرة أسماء لشباب مجهولين.

ظل بيرثوليه صامتا للحظة أطول، ويداه تستقران على ركبتيه.

— وماذا عن عائلتي؟

— خذها معك إذا أردت. أو تبقى في باريس وترسل لها المال. هذا اختيارك، ليس اختياري.

فكر مرة أخرى، ثم رفع رأسه.

— أقبل. لكن بشرط واحد أوضحه بوضوح.

— أي واحد؟

— دع هذه البعثة تخدم العلم حقا. ليس فقط طموحات سياسية لشخص ما، مهما كانت عبقرية.

نظر إليه بونابرت للحظة بتلك النظرة التي كان يرتديها أحيانا، بين المرح والاحترام.

— كلاهما، يا عزيزي بيرثوليه. العلم والسياسة. هذا التحالف هو ما سيجعل هذه البعثة استثنائية في أعين العالم. لا أنت ولا أنا لن نجد أفضل من ذلك.

قبل بيرثوليه الحجة دون أن يبدو أنه يفعل ذلك، وغادر.

كان التجنيد يتقدم، لكنه كان يواجه مقاومة متزايدة. رفض العديد من العلماء ذلك، مخاطرة كبيرة، بعيدة جدا، غير واثقة بالنسبة للرجال الذين لديهم عائلات وكراسي وأبحاث مستمرة.

في 15 مارس 1798، قدم مونج نفسه في شارع الفيكتوار بتقرير لم يكن في عجلة من أمره لتقديمه.

— لدينا مئة واثني عشر قبولا. خمسة وخمسون مفقودون.

عبس بونابرت.

— لماذا يرفضون؟

أخذ مونج نفسا.

— أسباب مختلفة. خوف، في البداية. العائلة. الصحة. بعضهم لا يريد التخلي عن البحث المستمر الذي استغرق سنوات. وآخرون يخشون ببساطة الموت بعيدا عن فرنسا.

— اعرض عليهم المزيد من المال.

هز مونج رأسه.

— الأمر ليس متعلقا بالمال. هؤلاء الرجال ليسوا فقراء. إنها مسألة شجاعة. أو، لنكن منصفين، حساب معقول بين ما لديهم وما قد يخسرونه.

— إذا ابحث عن رجال شجعان. أحتاجهم خلال ستة أسابيع. الأمر متروك لك لتجد الحجة المناسبة لكل واحد منهم.

عاد مونج للتجنيد. وسع الدائرة ليس فقط في البوليتكنيك والمعهد، بل أيضا المدارس الإقليمية، وورش العمل، ومكاتب الرسم. استقطب جيفروي سانت-هيلير، عالم طبيعة متخصص في علم الحيوان؛ سافيني، عالم حيوان شغوف بالحشرات؛ دليل، عالِم نبات؛ كوستاز، مهندس الجسور والطرق؛ شابرول، مهندس جغرافي؛ فيلييه دو تيراج، مهندس؛ غراتيان لو بير، مهندس عسكري. جميعهم شباب. جميعهم موهوبون. جميعهم متعطشون للمجد والاكتشاف.

لكن كان هناك حاجة أيضا إلى رجال أكثر خبرة. علماء معترف بهم. أسماء ستبهر أوروبا.

وسع مونج الدائرة. قبل فينتورا، وهو جغرافي، دون تردد. كان رسم خرائط مصر هو حلم حياته. قبل دوتيرتر، الرسام والنقاش، عندما وعده مونج بأن رسوماته ستظهر في المنشور الكبير الذي سيختتم الحملة.

لجلب المترجمين، لجأ إلى دي فينتشر دي باراديس، وهو مستشرق يتحدث العربية والتركية والفارسية بطلاقة، وكان ينتظر هذه الدعوة لأشهر. وقد جمع بنفسه فريقا صغيرا: مارسيل، العربي؛ براسيفيتش، دالماسي يتحدث التركية؛ إليوس، مسيحي سرياني؛ فينتشر جونيور، تدرب على يد والده.

بالنسبة للمنشورات الأخيرة، استسلم مونج لأخذ شباب صغار السن جداً. جولوا، الذي لم يتجاوز العشرين من عمره، خريج المدرسة متعددة التقنيات، قبل، محاولا ألا يقفز من الفرح. رد فيلييه دو تيراج، البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما، ببساطة:

— جيد. سأكون هناك.

بدون تعجب، بدون أسئلة زائدة. مونج قدر ذلك.

في 15 أبريل، وضع مونج قائمة كاملة على مكتب بونابرت.

— لدينا مئة وأربعة وستين عالما مؤكدا. ثلاثة مفقودين.

— ابحث عنهم، قال بونابرت.

— نحن نبحث بنشاط. لكن الملفات التي نفتقدها نادرة. الأفضل قد قبلوا أو رفضوا بشكل قاطع.

رفض بونابرت الحجة.

— إذن خذ ما تجده. الأمر ليس مسألة شغل المناصب المرموقة. كما يتطلب الأمر أيدا لحمل الصناديق وعيونا لنسخ النقوش.

لذا جند مونج ثلاثة رجال آخرين: مساعد طبيعي بلا شهرة كبيرة لكنه جاد، ورسام موهوب متوسط لكنه مستعد ومثابر، وكيميائي شاب بلا خبرة لكنه متحمس لاكتسابها.

في 20 أبريل 1798، تمكن أخيرا من طرق باب مكتب بونابرت بشيء بدا وكأنه ارتياح.

— لدينا مئة وسبعة وستين عالما. اللجنة مكتملة.

ابتسم بونابرت. شيء صادق، أندر من المعتاد.

— ممتاز. اجعلهم يتجمعون في تولون قبل 10 مايو. وألا يُخبروا أحداً عن الوجهة. لدى الإنجليز جواسيس في جميع الموانئ وفي جميع غرف الاستقبال.

— مفهوم. هل هذا كل شيء؟

تردد بونابرت للحظة، ثم قال بصوت مختلف قليلا:

— مونج؟

— نعم؟

— شكرا لك. بدونك، لم يكن من الممكن تنفيذ هذه البعثة. ليس هكذا.

انحنى مونج. خرج بفكرة لم يعبر عنها بصوت عال: هذه اللجنة العلمية كانت عمله، طفله. وكان يعلم، بيقين هادئ ومؤلم، أن العديد من هؤلاء الشباب المتحمسين لن يعودوا أبدا.

IV—الصعود على متن السفينة في تولون

وفي الوقت نفسه، كان بونابرت ينظم الجيش.

كان هناك حاجة إلى ثمانية وثلاثين ألف رجل، الأفضل، الأكثر خبرة، الأكثر انضباطا، قادرين على تحمل الحرارة والعطش والمسيرات القسرية في صحراء لم يسبق لهم أن زحمها من قبل.

استدعى بونابرت جنرالاته واحدا تلو الآخر. أولا، بيرتييه، رئيس الأركان، مخلص كظل، دقيق جدا في الإفراط، لا غنى عنه في أي عملية واسعة النطاق.

— ألكسندر، قال بونابرت، وهو يستقبله واقفا، أنت قادم معي إلى الشرق. ربما في مصر.

لم يتردد بيرتييه لحظة: حيثما ذهب بونابرت، تبعه دون أن يسأل أي أسئلة عن الأسباب.

— جيد. متى سنغادر؟

— منتصف مايو. أنت تجهز الطاقم الآن. أريد أفضل الضباط. لا أشخاص ضعفاء، ولا أشخاص غير أكفاء تجاوزوا لعبة العلاقات.

— مفهوم. ستكون لديكم قائمة للموافقة عليها بحلول الأسبوع القادم.

ديزايكس بعد ذلك. جنرال فرقة، شجاع بانتظام اعتبره جنوده لا يقهر، ذكي ومحبوب من رجاله بمودة يعرف الجنرالات الطيبون كيف يستحقونها دون أن يطلبوا ذلك.

— لويس، قال بونابرت، أنت ترافقني إلى الشرق.

ابتسم ديزايكس.

— بكل سرور. ما هي المهمة بالضبط؟

— غزو مصر. لقطع الطريق إلى الهند عن الإنجليز. وربما، إذا سمحت الظروف، يسير إلى الهند بعد ذلك.

جلس ديزايكس في كرسيه، مرتاحا بوضوح مع الأفكار الرائعة.

كان كليبر من طبيعة مختلفة. ألزاسي، عملاق يقل طوله قليلا عن مترين، جنرال ذو عبقرية لا يمكن إنكارها، لكنه ذو شخصية صعبة، ناقد، عابس، غيور من استقلاله، ولم يكن يحمل لبونابرت احترام بيرتييه الأعمى أو الصداقة الدافئة لديزايكس. استدعاه بونابرت ذات صباح دون أن يحاول إقناعه.

— جان-باتيست، أنت قادم معنا إلى مصر.

رفع كليبر حاجبه.

— في مصر؟ لأي غرض؟

— لغزو البلاد. تأسيس مستعمرة فرنسية دائمة. وضع إنجلترا في موقف حساس على طرق تجارتها.

عبس كليبر.

— لا يزال بعيد جدا. يقولون إنه حار. والمخاطر كبيرة.

— هذا صحيح، قال بونابرت دون أن يحاول النقض. لكنها رائعة. وستكون جنرال فرقة، مع فرقتك الخاصة تحت قيادتك الحصرية.

تأمل كليبر. لم يكن يحب بونابرت، وجده طموحا جدا، متلاعبا جدا، سريعا في التضحية بالرجال من أجل الصورة. لكن الرفض كان مستحيلا: لم يغفر بونابرت الرفض، وكان أمام كليبر سنوات من المسيرة.

— أقبل.

لان، الغاسكوني، متهور، شجاع حتى فقدان الوعي، الصديق الذي كان بونابرت يستشيره أقل من غيره، لكنه كان يقدّر رفقته أكثر من أي أحد، وافق قبل أن يسمع حتى بالوجهة - «حيثما تريد، متى تريد» - ولم يطلب سوى الحق في أن يأخذ معه فرقته، محاربي أركول وريفولي القدامى.

مراد، فارس استثنائي، وسيم كالنقشة ومغرور بمقدار جماله، لكنه جسور كالأسد، وهو ما كان يعوّض كل شيء، لم يطرح سوى سؤال واحد - «مع الخيول؟» - وانطلق لتنظيم صعود فرسانه جميعا على متن السفن، بما في ذلك السروج والعلف، بثقة من لم يفوّت قط موعدا مع المجد.

مينو، أخيرا، جنرال متوسط المستوى على المستوى التكتيكي، لكنه جمهوري بحماسة شبه غامضة، غريب، غريب الأطوار، مع شيء غير متوقع جعل مرافقيه يشعرون ببعض التوتر. لكنها مفيدة للإدارة وغير مهتمة بما كفى لتثق بمسؤولياتها دون خوف من الإساءة لتحقيق مكاسب شخصية. استقبله بونابرت في نهاية اليوم.

— جاك-فرانسوا، أنت ترافقني إلى مصر.

— إلى مصر، كرر مينو، ببطء تأملي نوعا ما، كما لو كان يزن الكلمة.

— نعم. أن تغزو، وتدير، وأن تحضر.

— أقبل. وربما سأعتنق الإسلام هناك.

ساد صمت، وخلاله حاول بونابرت على ما يبدو معرفة ما إذا كان الآخر يمزح.

— عذرا؟

— الإسلام دين توحيدي وعقلاني، متوافق في أساسه مع مبادئ التنوير. إذا اعتنقت، سيثق المصريون بنا أكثر. هذا سيسهل الإدارة.

نظر بونابرت إلى مينو لفترة طويلة. كان الرجل مجنونا. لكن مع حماقة مفيدة، كان يؤمن بها حقا، وهذا جعله أكثر فعالية من عشرة متشائمين.

— افعل ما تشاء بضميرك ودينك. طالما أنك تطيع أوامري.

— بالطبع، جنرال، قال مينو، باحترام شخص لا ينوي عصيان أي أمر مهم.

تم توزيع هذه الاستدعاءات الفردية طوال شهر أبريل. ثم جاء الوقت لجمع الجميع معا. في 25 أبريل 1798، جمع بونابرت جميع جنرالاته في غرفة كبيرة بوزارة الحرب. جلس عشرون جنرالا من الفرقة واللواء — بيرتييه، ديسايه، كليبر، لان، مراد، مينو، بون، رامبون، فيال، فيرديه، دوغوا، رينيه وغيرهم — حول طاولات حدوة الحصان دون كلمة. كان هناك شيء مهم على وشك أن يقال.

صعد بونابرت إلى المنصة ونظر إليهم للحظة قبل أن يتكلم، وكان ذلك علامة في داخله على أن الكلمات التي ستأتي قد تم تقييمها.

— أيها السادة، سنغادر خلال أقل من شهر. الوجهة: الشرق. الهدف: الحصول على موطئ قدم، وكسر الهيمنة الإنجليزية على الطريق إلى الهند، ووضع أسس إمبراطورية متوسطية.

عم صمت مذهول الغرفة.

— مصر هي أغنى دولة في العالم بعد الهند. كان النيل يروي الأراضي الخصبة منذ فجر الزمن. عدد السكان كبير. المدن مزدهرة. كل هذا سيكون ملكا لفرنسا، للجمهورية. هذه الرحلة ستكون صعبة. صعب جدا. حرارة ساحقة. عطش دائم. أمراض مجهولة لأطبائنا. معارك ضد المماليك، وربما ضد الأتراك، وربما ضد الإنجليز. الكثير منكم سيموت. أخبركم بهذا لأنكم جنود، ولستم أطفالا. لكن من ينجو سيكونون قد غزوا الشرق. ستبقى أسماؤهم.

— سنبحر في تولون في 19 مايو، تابع بونابرت. ثمانية وثلاثون ألف رجل. ثلاث عشرة سفينة من الخط. ست فرقاطات. ثلاثمائة سفينة نقل. مئة وسبعة وستين عالما. إنه أكبر أسطول فرنسي تم تجميعه على الإطلاق. لم يحقق أي ملك في فرنسا أفضل من ذلك.

رفع كليبر يده من مؤخرة الغرفة.

— أسطول نيلسون الإنجليزي يقوم بدوريات في البحر الأبيض المتوسط. كيف تنوي تجنب ذلك مع وجود ثلاثمائة وسبع وأربعين سفينة؟

— سنبحر ليلا قدر الإمكان. سنسلك طرقا غير متوقعة. الإنجليز يبحثون عنا بالقرب من الساحل الإيطالي، سنمر في عرض البحر. سنصل إلى مصر قبل أن يفهموا إلى أين نحن ذاهبون.

— وماذا لو قابلناهم على أي حال؟ أصر كليبر.

— سنقاتل، قال بونابرت ببساطة مطلقة. وسننتصر.

عقد كليبر اتفاقا دون إقناع.

— أيها السادة، اختتم بونابرت، جهزوا فرقكم. اختر الأفضل. لا مرضى، لا ضعفاء، لا رجال سيكونون عبئا على رفاقهم. أراكم في تولون في 15 مايو. انفصل.

تفرق الجنرالات في مجموعات صغيرة، يتبادلون كلمات منخفضة لم يحاول بونابرت سماعها. بعضهم كان متحمسا. آخرون قلقون. جميعهم يدركون أنهم يشاركون في شيء استثنائي.

أو كارثية.

في 4 مايو 1798، غادر بونابرت باريس متجها إلى تولون. خمسة أيام من الجري على الطريق. سباق التتابع كل ساعتين، خيول جديدة في كل مرحلة. ووصل في صباح يوم 9 مايو، وعيناه حمراوان بالغبار والأرق، وكان يعمل بالفعل في السيارة قبل أن ينزل.

تولون. ميناء عسكري. ترسانة هائلة. أحواض بناء السفن، مستودعات الإمدادات، ثكنات على التلال المقشرة خلف المدينة. كل شيء كان موجودا. كل شيء كان جاهزا. تقريبا.

كان الأدميرال برويس ينتظره على الرصيف. فرانسوا-بول بروي ديغالييه، بحار ذو خبرة، ملكي انضم إلى الجمهورية بدافع القناعة وليس الانتهازية. قاد أسطول البحر الأدرياتيكي، ووصل إلى تولون في 2 أبريل مع سفنه، وكان ينظم التحضيرات منذ ذلك الحين بدقة عنيدة ككلب بحري قديم.

نزل بونابرت من العربة وصافحه دون مراسم.

— برويس. سعيد برؤيتكم. أريد أن أفحص كل شيء اليوم. سفن، ترسانات، أفراد، مؤن، ماء. قودوني.

انحنى الأدميرال.

— من أين تريدون أن تبدأوا؟

— عند الميناء. أريد أن أرى الأسطول بعيني قبل أن أنظر إلى الأرقام.

ساروا على طول الأرصفة. كان المشهد فخما، عشرات السفن تتأرجح في المرسى تحت شمس الصباح، وسفن خطية مهيبة تخترق جوانب الفتحات تنعكس في المياه المظلمة، وفرقاطات نحيلة، وسفن نقل ضخمة منخفضة تحت وزن شحنتها. كان النشاط في كل مكان يتصاعد: البحارة يركضون عبر الحبال، والجنود يصعدون في صفوف ضيقة، وعمال الأرصفة يحملون الصناديق على مسافة ذراع، والحدادون يطرقون المراسي وسط وابل من الشرر، والسفن الشراعية تصلح اللوحات الرمادية العظيمة على ركبهم.

ترك بونابرت نظره يتنقل بين طرفي الطريق والآخر قبل أن يتكلم.

— كم عدد السفن إجمالا؟

— ثلاثمائة وسبعة وأربعون، رد الأدميرال ببروزانة لم تخفي كبرياءه بالكامل. ثلاث عشرة سفينة خط، وست فرقاطات، وكورفيت، وسبعة وعشرون سفينة حربية متنوعة، وثلاثمائة سفينة نقل.

صفر بونابرت بهدوء بين أسنانه.

— ثلاثمائة وسبع وأربعون سفينة. جيش كامل على الماء.

— بالفعل. حتى لويس الرابع عشر، في أفضل سنواته، لم يكن لديه هذا العدد الكبير من السفن في مكان واحد.

دخلوا مكاتب المستودع، غرفة شاسعة مليئة بالبطاقات غير الملفوفة، وصناديق السجلات المكدسة، وقوائم لا تنتهي مغطاة بأعمدة مشفرة. كان ضباط البحرية مشغولين هناك، والأقلام في أيديهم، دون أن ينظروا إلى مدخلهم.

فرد برويس خريطة البحر الأبيض المتوسط على الطاولة الكبيرة ووضع إصبعه السبابة عليها كرجل يعرف عن ظهر قلب كل ميل بحري من هذا البحر.

— ها هو طريقنا. تجاوزنا كورسيكا أولا للبقاء خارج نطاق الدوريات الإنجليزية، ثم انضممنا إلى الأسراب التي غادرت منفصلة عن جنوة وأجاكسيو وتشيفيتافيكيا. تجمع الأسطول المجتمعي نحو مالطا. لم تدم الجزيرة طويلا، فقد بلغ النظام في نهاية قوته. ثم نتجه شرقا مباشرة نحو الإسكندرية.

درس بونابرت الخريطة بعين صارمة، وتبع إصبعه الطريق الذي سلكه بإصبعه.

— ونيلسون؟ هو في مكان ما في هذه المياه.

— تقوم بدوريات بين كورسيكا وسردينيا، وفقا لأحدث معلوماتنا. لكنه لا يعرف إلى أين نحن ذاهبون. أفاد جواسيسه بأننا نستعد لهجوم على نابولي، وربما على صقلية، وربما حتى على القسطنطينية. يركض خلف الظلال.

— جيد. يجب الاحتفاظ بها هناك لأطول فترة ممكنة. ما هي المسافة الإجمالية إلى الإسكندرية؟

— خمسمائة رابطة بحرية على الطريق الذي أقترحه عليكم. وربما أكثر اعتمادا على الرياح، نادرا ما يمكن عبور البحر الأبيض المتوسط دون أهواء.

— وماذا عن المدة المتوقعة؟

— أربعون يوما إذا سارت الأمور على ما يرام. لنفترض ستة أسابيع للحصول على هامش معقول.

بدا بونابرت راضيا، ثم سأل بصراحة:

— وماذا لو قابلنا نيلسون في الطريق؟

تردد الأدميرال، ليس من الجبن، بل لأنه رجل يقول الحقيقة حتى عندما يكون الأمر غير مريح، وكان يبحث عن الصياغة المناسبة.

— سنقاتل إذا لزم الأمر. لكنني لن أخفي شيئا عنكم: فرصنا ضعيفة.

— بعبارة أخرى، سنخسر.

— ربما. على الأقل في ظروف القتال البحرية العادية.

أومأ بونابرت. كان برويس يقول الحقيقة. لم تعد البحرية الفرنسية كما كانت في عهد لويس السادس عشر، فقد هاجر أفضل الضباط، وكانت الطواقم تفتقر إلى التدريب، وكانت السفن سيئة الصيانة.

— إذن يجب أن نتجنب نيلسون. بأي ثمن.

— هذه هي نيتي. السرعة والسرية هما أفضل أسلحتنا.

قضى بونابرت فترة بعد الظهر في زيارة المستودع. كان مجمعا ضخما: ورش عمل تصنع فيها الحبال عن طريق تضفير ألياف القنب على أطوال لا نهائية، ساحات تخيط فيها الأشرعة يدويا، حدادات تطرق فيها المراسي، ورش نجارة حيث تصلح هياكلها، مستودعات تكدس فيها الطعام والذخيرة والبارود وكرات المدفع بترتيب دقيق تفوح منه رائحة الراتنج والملح النبتوري.

رافقه أحد المفتشين بخطوات صغيرة متوترة. رجل صغير ونحيف، عالق تحت ذراعه، يعلن عن الشخصيات بصوت مستعجل، كما لو كان يخشى أن يقاطع قبل أن ينتهي.

— لقد جمعنا المؤن التالية: مليوني رطل من البسكويت، خمسمائة ألف رطل من اللحم المملح، ثلاثمائة ألف رطل من الأرز، مئة ألف رطل من الفاصوليا، خمسين ألف لتر من النبيذ، عشرون ألف لتر من البراندي، عشرة آلاف رطل من القهوة، خمسة آلاف رطل من السكر.

حسب بونابرت، وعيناه في الفراغ.

— كم من الوقت يكفي؟

— ثلاثة أشهر، جنرال.

— وماذا عن الماء؟

سعل الموظف.

— خمسة عشر ألف طن. شهر من الاستهلاك.

توقف بونابرت فجأة والتفت إليه.

— هذا ليس كافيا. في مصر، بدون ماء، يموت الجيش. أحتاج إلى ضعف هذه الكمية.

شحب وجه الوصي، وبدأ شحوب من الجبهة ووصل إلى الطوق.

— مرتين؟ جنرال، الأمر مستحيل كما هو. لم يعد لدينا أي براميل متوفرة في جميع أنحاء الميناء!

— اصنع بعضا. اشتر بعضا. طلب بعض الأماكن في المنطقة المحيطة. لا يهمني الطريقة. أريد أن يتم نقل ثلاثين ألف برميل من الماء إلى السفينة قبل 19 مايو.

— جيد، أيها الجنرال، قال الخادم بصوت يكشف عن الاستسلام أكثر من القناعة.

واصل بونابرت تفتيشه. أول من مخزن البارود. مئة طن من البارود مخزنة بعناية بعيدا عن أي لهب، في برودة قبو، تحت حراسة دائمة من جنديين. حريق هنا سيدمر الترسانة بأكملها ونصف الميناء معه. ثم محل قذائف المدفع. آلاف الكرات الحديدية مكدسة بأعيرة، اثنا عشر رطلا، أربعة وعشرون رطلا، ستة وثلاثون رطلا، في أهرامات عادية تصل إلى الخزائن. ثم متجر الأسلحة. أربعون ألف بندقية في حزم، عشرة آلاف سيف، خمسة آلاف مسدس، مئتا مدفع مفكك، كانت أنابيب السفينة تنتظر على جسور.

في كل مكان كان الجنود يحملون ويتراكمون ويتصببون عرقا تحت شمس مايو، يسبون بأصوات منخفضة وهم ينحنون تحت الأعباء.

نادى بونابرت على مجموعة من الجنود الذين كانوا يكافحون لرفع مدفع على عربة، وجوههم محمرة وأقدامهم تنزلق على الحجارة.

— أنت! صرخ في أحدهم. ما اسمك؟

وقف الجندي فجأة، واقفا في وضع الانتباه رغم العرق الذي كان يسيل من عينيه.

— الرقيب دوبوا.

— من أين أتيت؟

— من جيش إيطاليا.

— أين قاتلتَ؟

— أركولا، ريفولي، مانتوا، جنرالي.

نظر إليه بونابرت للحظة، ذلك الوجه المنحوت، ذلك الجسد النحيف والقوي في آن واحد، ذلك النظرة المباشرة التي لا تسعى لإرضاء أو تجنبها.

— رجل جيد. سترى القتال قريبا مرة أخرى، لكن هذه المرة في مصر.

ابتسم الرقيب، ابتسامة عريضة، بلا حساب.

— نحن جاهزون، جنرال. والرجال أيضا.

ربت بونابرت على كتفه وأكمل طريقه. في مساء التاسع من مايو، صعد على متن السفينة الشرقية.

V — الشرق وتحضيرات الأسطول

السفينة الرئيسية. مئة وعشرون مدفعا. أكبر سفينة حربية فرنسية، السفينة الرائدة للبحرية، حصن عائم بصاري يبلغ ارتفاعه مئة وثمانين قدما، يهيمن على كامل الرصيف.

رحب به القبطان كازابيانكا على سطح السفينة بمراسم جادة كرجل لا يحب الانفجارات، لكنه يلتزم بالبروتوكول.

— جنرال، مرحبا بك على متن الشرق.

— كابتن، قال وهو ينظر إلى السطح الضخم، أروني سفينتي. كل شيء. في كل التفاصيل.

قاده كازابيانكا دون استعجال، بفخر قائد يعرف كل لوح من ألواح سفينته. السطح العلوي أولا، طوله مئتان وخمسة وعشرون قدما، وعرضه ستة وخمسين قدما، وثلاثة صواري ضخمة، يرتفع الصاري الرئيسي منها مئة وثمانين قدما فوق الماء، ويمكن رؤيته من أميال إلى البحر في يوم صاف.

— كم عدد رجال الطاقم؟

— ألف ومئتان عادة لتشغيل هذه السفينة في ظروف جيدة. لكن لدينا فقط ثمانمائة في الوقت الحالي، ردّ كازابيانكا بصراحة لم يخلو من الإحراج.

— هل هناك أربعمائة مفقود؟ لماذا؟

— التجنيد صعب، جنرال. تنتشر شائعات في الموانئ. الكثير من البحارة يخشون هذه البعثة. ليس واضحا إلى أين يتجه، وعدم اليقين يغذي عدم الثقة.

فكر بونابرت للحظة.

— ضاعفوا الأرصدة وعدوا بمكافآت كبيرة في طريق العودة. افعلوا ما يلزم للإقناع، لكني أريد ألف ومئتي بحار على هذه السفينة قبل 19 مايو. ليس ألف ومائة وتسعة وتسعون.

— سأفعل كل ما بوسعي، أيها الجنرال، ردّ كازابيانكا، دون أن يَعِد بما لم يكن متأكدا من قدرته على الوفاء به.

قاده كازابيانكا بعد ذلك إلى البطاريات، في نصف ضوء السفينة الذي كان يفوح منه رائحة الخشب المبلل والبارود. اصطفت المدافع، وأفواه مفتوحة تتجه نحو المنافذ المغلقة، في صمت يحمل شيئا من الجدية.

— البطارية الأولى، قال وهو يضع يده على أقرب عربة. اثنان وثلاثون مدفعا عيار ستة وثلاثين رطلا. أثقل مدفعية في الأسطول.

— المدى؟

— ألف قامة في نيران ممدودة. ألفي طلقة منحنية إذا تم ضبط الزاوية جيدا.

— معدل إطلاق النار؟

— طلقة واحدة كل دقيقتين في إيقاع قتال مستمر. طلقة واحدة في الدقيقة إذا كان الطاقم مدربا تدريبا مثاليا ولم يكن الخدم متعبين.

أظهر بونابرت إشارة بذلك. كان يعرف المدفعية، كانت مهنته الأصلية، لغته الأولى. لكن المدفعية البحرية كانت مسألة مختلفة: السفينة تتحرك، تميل، وتتدحرج تحت الأمواج، والتصويب في هذه الظروف لم يكن مسألة تقنية بقدر ما كان نوعا من الغريزة لا يمتلكها إلا البحارة المخضرمون.

— هذا ليس كافيا.

أومأ كازابيانكا. كان على نفس الرأي منذ البداية.

— أعلم، جنرال. لكن الصناديق ممتلئة. لم يعد هناك أي مساحة حرة. انظر بنفسك.

نظر بونابرت. لم يكن كازابيانكا مخطئا. كانت العنابر مزدحمة لدرجة لم تعد قادرة على التحرك مباشرة من خلالها.

— أعد تنظيم كل شيء. تحسين حجم اللعب. حزم المزيد. لكن ابحث عن مكان لمئة برميل إضافية.

تردّد كازابيانكا.

— جنرال، مع كل الاحترام—

— إنه أمر، قال بونابرت دون أن يرفع صوته.

— جيد.

عادوا إلى السطح. حل الليل على المرسى، وتحول الميناء، مئات الفوانيس الآن تضيء السفن، والأرصفة ومباني المستودع، تجذب في الظلام كوكبة على حافة الماء.

اتكأ بونابرت على الدرابزين وأخذ نفسا طويلا من هواء البحر، المصنوع من اليود والمالح، المحمل بقطران الهياكل وقنب الحبال. لم يقل شيئا لفترة.

— هذه السفينة رائعة.

— إنها الأفضل في الأسطول الفرنسي، قال كازابيانكا، دون تواضع زائف. وواحدة من أقوى السفن الحربية في العالم.

— سيبقى كذلك. وفي غضون أسابيع قليلة، سيرسو قبالة الإسكندرية.

في 10 مايو، واصلت القوات التدفق إلى تولون. فرقة تلو الأخرى، فوج تلو الآخر، وصل الجنود عبر طرق بروفانس في أعمدة تثير غبا من الغبار الأبيض. كانوا يخيمون في أنحاء المدينة—في الحقول، في بساتين الزيتون، على التلال—حيثما كان هناك مكان وظل.

راجع بونابرت هذه الحالات، بدءا من الفجر مع فرقة ديزايكس.

خمسة آلاف رجل. جنود مشاة متمرسون، محاربون في إيطاليا. أجسام سمراء، نحيفة، صلبة، تبدو وكأنها منحوتة من الخشب الجاف بعد سنوات من الحملات. وقف ديزايكس أمامهم، بنظرة هادئة لشخص رأى كل شيء بالفعل.

— لويس، قال بونابرت وهو يقترب، رجالك جاهزون؟

— جاهز، قال ديزايكس. قاتلوا في ريفولي، في مانتوا، في أركولا. سيقاتلون في مصر بنفس الحماس، وربما أكثر، لأن هذه المرة سيتقدمون نحو شيء لم يره أحد منهم بعد.

تصفح بونابرت الصفوف، يفحص، يراقب، ويدون. كانت الزي الرسمي مهترئا، مرقعة، باهتة بفعل شمس إيطاليا. لكن نظيفا. كانت الأسلحة مصانة جيدا، والبنادق مدهونة، وحراب مشحذة، والسيوف مشحذة. هؤلاء الرجال اعتنوا بما سمح لهم بالبقاء.

استدار ووقف في مواجهة الخط.

— أيها الجنود! صرخ بصوت حمل بعيدا في هواء الصباح. لقد هزمتم النمسا! لقد غزوتم إيطاليا! الآن ستغزون الشرق! ستسيرون على خطى الإسكندر الأكبر!

ارتفع التصفيق فجأة، هتافات، هتافات، وشاكو أطلقت في الهواء تحت ضوء الشمس.

انتقل بونابرت إلى قسم كليبر. ستة آلاف رجل، العملاق الألزاسي في رأسهم، يقفون أمام صفوفه بحضور جسدي يخيف حتى من يحبونه.

— جان-بابتيست، هل رجالك في حالة جيدة؟

— جاهز، قال كليبر بصوته العميق.

ابتسم بونابرت.

— سيفهمون عندما نكون هناك. عندما يرون الأهرامات، النيل، المعابد. أشياء لم يرها أي جندي أوروبي منذ الحروب الصليبية.

عبس كليبر. تعلم أن يترك لبونابرت الكلمة الأخيرة في الأسئلة الكبرى.

واصل بونابرت تفتيشه. قسم بون، قسم مينو، قسم رينير، قسم لان، قسم مراد. في كل مكان، نفس الصورة: جنود متعبون، زي مهترئ، لكن معنوياتهم سليمة وثقة كاملة في جنرالهم، تلك الثقة الخاصة التي تمنحها الانتصارات المشتركة والتي لا تشبه شيئا آخر.

وبنهاية اليوم، كان قد فحص عشرين ألف رجل. كان هناك ثمانية عشر ألف آخرون يمكن رؤيتهم. لكنه كان راضيا. كان هذا الجيش جاهزا. أو تقريبا.

في 11 مايو، استدعى بونابرت مونج وبيرثوليه إلى مكتبه المؤقت في المستودع.

وصل العالمان معا. كان مونج يحمل تحت ذراعه حزمة القوائم التي لم تتركه منذ أسابيع. كان لدى بيرثوليه هدوء الرجال الذين قبلوا شيئا صعبا ولا يتراجعون عنه.

— أيها السادة، قال بونابرت مشيرا لهم بالجلوس، قهوة؟

قدم خادم ثلاثة أكواب. انتظر بونابرت حتى أغلقوا الباب خلفه قبل أن يتكلم.

— تلقيت أخبارا من باريس هذا الصباح. تستمر الأعمال الفنية في الوصول إلى المتحف المركزي للفنون.

تبادل مونج وبيرثوليه نظرة سريعة. المزيد من السرقات.

— ما الأعمال هذه المرة؟ سأل مونج.

— من بولونيا، نشوة القديسة سيسيليا لرافاييل. أخذها المفوضون من كنيسة سان جيوفاني في مونتي. كان واحدا من أكثر الأعمال الفنية احتراما في المدينة لمدة ثلاثة قرون. احتج سكان بولونيا وبكوا في الشوارع. لكن المعاهدات هي معاهدات، وبولونيا خسرت الحرب.

توقف للحظة، ثم تابع.

— من بولونيا أيضا، *مجزرة الأبرياء* بقلم غويدو ريني. تم أسره في كنيسة سان دومينيكو. رسم ضخم. مخيف. رائع.

وضع بيرثوليه كوبه.

— كانت هذه الأعمال في أماكن العبادة، جنرال. أماكن مقدسة لا علاقة لها بالمعاهدات العسكرية. أليس هذا نوعا من...

— من السرقة؟ قاطع بونابرت بوضوح لا يسمح بالنقاش. لا. إنها حرب. خسرت إيطاليا. فرنسا فازت. الفائز يأخذ الغنائم. كان هذا هو الحال منذ فجر الزمن، منذ أن أفرغ الرومان اليونان لملء معابدهم.

استأنف رسالته.

— من مانتوا، عذراء النصر لمانتجنا، التي أخذت بعد استسلام المدينة في فبراير 1797. من بيروجيا، تم تمزيق عدة لوحات مذابح من قبل بيروجينو رغم احتجاجات رجال الدين المحليين. ولدينا أيضا أعمال لكوريجيو من بارما، لوحات ميلاد، ولوحات مادونا ذات النعمة الفريدة. لوحات لأنيبالي كاراتشي ولودوفيكو كاراتشي من بولونيا، أساتذة الباروك. أعمال جيرسينو. أكثر من خمسمائة لوحة إجمالا منذ بداية الحملة الإيطالية.

ظل مونج صامتا، ويداه مسطحتان على ركبتيه. كانت هذه الغنائم تجعله يشعر بعدم ارتياح عميق، ليس لأنه أنكر واقع المعاهدات أو منطق غنائم الحرب، بل لأنه كان يعلم الثمن الإنساني لهذا التجريد. تم الحفاظ على الأعمال وترميمها وعرضها. لكن الاستياء الإيطالي كان هائلا، وأصبح الآن يعبر عنه في مثل انتشر من مدينة إلى أخرى: ليس كل الفرنسيين لصوص، لكن جزءا كبيرا منهم كذلك بالتأكيد.

وضع بونابرت الرسالة جانبا وحدق في محاوريه.

— أصبح المتحف المركزي للفنون أول متحف في العالم. كانت روما تملك روائع العصور القديمة. الآن، باريس تملكها. روما احتضنت روائع عصر النهضة. الآن، باريس لديها أيضا.

— ومصر تأتي بعد ذلك، قال بيرثوليه بلطف، ليس كسؤال بقدر ما هو ملاحظة.

— مصر ستكون الخطوة التالية، أكد بونابرت. سنأخذ التماثيل، والشواكي، والتوابيت. سنفرغ المعابد. سنستكشف القبور. سيحتفظ المتحف المركزي للفنون بأعمال فنية من جميع الحضارات والعصور.

تنهد مونج، تنهيدة طويلة ومتحكم بها، والتي قالت الكثير دون أن تصيغ شيئا.

— جنرال، أنا أفهم رؤيتك، ولا أعارضها في مخططها الشامل. لكن دعوني أذكركم أننا أيضا علماء. ليس مجرد جامعين في خدمة المتحف. يجب أن نوثق، ندرس، نفهم، لا نأخذ فقط ونأخذ. المعرفة التي نستعيدها ستكون ذات قيمة مثل الأشياء، وربما أكثر.

ابتسم بونابرت.

— غاسبارد، لهذا أنتم جميعا هنا. ستوثقون. ستدرسون. ستفهمون. ثم ستأخذونها بعيدا. النهجان ليسا متعارضين. بل على العكس، يكملان بعضهما البعض، ويمنح كل منهما الآخر شرعية لم يكن ليحصل عليها بمفرده.

نهض وذهب إلى النافذة. هذا التحرك يعني إغلاق النقاش.

— بعد أسبوع سنغادر. تأكد من أن كل عضو في اللجنة جاهز. أدوات، دفاتر، كل ما تحتاجه لتوثيق مصر.

في 12 مايو، بدأ تحميل المعدات العلمية على الأرصفة في حالة من الفوضى المنظمة التي كانت ستيأس المراقب العادي، لكنه أتقنها بدقة قائد الأوركسترا.

كان كافاريللي دو فالغا، جنرال مهندسين، قد فقد ساقه في النمسا خلال حملة سابقة، ومنذ ذلك الحين سار بساق خشبية تصطدم بحصى الميناء كأنها مترونوم. لم تمنعه حركته المحدودة من الإشراف على كل التفاصيل. أعد قوائم لا تنتهي، وعد كل صندوق، وزن كل آلة، تحقق من كل كتاب، ولم يفارقه سجل السجل أبدا.

وجده بونابرت على المنصة الرئيسية، واقفا رغم الحرارة، وصندوق الباب مفتوح في يده، وعينه تراقب كل حركة.

— كافاريللي، أين نحن؟

اتكأ كافاريللي على عصاه ومسح صفحاته.

— جنرال، نحن في هذه اللحظة نطلق أدوات الدقة: عشرون ثيودوليت للجيوديزيا، ثلاثون تلسكوبا فلكيا، خمسون بارومتر وميزان حرارة، مئة بوصلة، خمسة عشر مجهرا، عشرة تلسكوبات، عشرون سداس، عشرة أوكتانت، خمسة عشر جرافومترا. في الكيمياء، عشرون ميزانا دقيقا، وخمسون قرعة وجهاز تقطير، ومئة أنبوب اختبار، ومئات القوارير، والكواشف، والأحماض والقواعد التي اختارها بيرثوليه بنفسه.

— المكتبة؟

— خمسمائة عمل. تاريخ مصر، الجغرافيا، سرد الرحلات القديمة والحديثة، العلوم الطبيعية، الرياضيات، الفلك. كل ما استطعنا جمعه عن الشرق خلال أربعة أشهر.

— المطبعة؟

— مكتمل وتشغيلي. المطابع، الحروف العربية، الحروف الفرنسية واليونانية، الأحبار، الورق بكميات كافية لمدة عامين. سنتمكن من طباعة الإعلانات والصحف والملصقات باللغتين العربية والفرنسية منذ الأيام الأولى.

— وماذا عن صناديق التحف؟

وضع كافاريللي جهاز التسجيل.

— مئة صندوق فارغ، صلب، مقاوم للماء، قادر على احتواء تماثيل تزن عدة مئات من الأرطال. لدينا أيضا كل الأدوات اللازمة. مناشير بأحجام مختلفة، مطارق، إزميلات، معول، روافع، حبال، بكرات. كل ما تحتاجه لفصل النصب التذكارية عن قواعدها التي لحمتها آلاف السنين على الحجر.

فحص بونابرت صندوقا مفتوحا على الرصيف، مملوءا حتى الحافة بالأدوات التي تلمع تحت الشمس.

— مع كل هذا، يمكننا تفكيك هرم.

— تقريبا، جنرال، قال كافاريللي، بجدية مسلية. تقريبا.

في ظهر يوم 12 مايو، بدأ العلماء يصلون بأعداد كبيرة إلى تولون، بالعشرات، في مجموعات صغيرة متعبة، بعضهم من باريس بعد خمسة أيام من الاجتهاد، وآخرون من المقاطعات، جميعهم يحملون حقائبهم وصناديق أدواتهم، جميعهم متحمسون وقلقون في آن واحد، جميعهم مدركون للمشاركة في شيء لا يزال حجمه يفوق حجمهم.

وصل فوريه من بين الأوائل، وقبعته مائلة وسترة سفر مغبرة، مع تلك الطاقة الحمى التي لم تفارقه أبدا. كان مونج ينتظره على الرصيف ورآه من بعيد.

— جوزيف! من هنا!

اقترب فوريه من خلال التعرج بين الصناديق والجنود.

— غاسبارد! أخيرا!

صافحا بعضهما بحرارة.

— أين الآخرون؟ سأل فوريه.

— وصل جومارد هذا الصباح. كونتي أيضا. أخذ عربة البريد من بروفانس ومعه صندوق أدوات أكبر بثلاث مرات منه.

توقف فوريه ونظر حوله. كان الميناء في حالة اضطراب لم يرها من قبل، تلة نمل من آلاف الرجال والخيول والمدافع والصناديق والسفن التي تتراكب فوق بعضها إلى الأفق.

كان يفكر في مصر. في أرض الفراعنة، والأهرامات، والمعابد المدفونة. قرأ هيرودوت، سترابو، ديودوروس سيكولوس. قصص مثيرة للاهتمام، لكنها مجزأة، غير مكتملة، وغالبا ما تكون متناقضة. حتى الآن.

في مساء 12 مايو، جمع بونابرت في غرفة كبيرة من المستودع جميع العلماء الحاضرين، حوالي ثمانين، وكان الآخرون سيصل في الأيام التالية. صعد إلى منصة مرتجلة مصنوعة من صناديق مغطاة بلوح، وانتظر.

— أيها السادة، مرحبا بكم في تولون. بعد سبعة أيام، سننطلق. خلال ثمانية عشر يوما، سنغادر فرنسا. بعد شهرين، سنكون في مصر.

استمع العلماء، مفتونين، بعضهم واقف، وآخرون جالسون على صناديق، وكل الأنظار مثبتة على هذا الرجل بالزي الرسمي الذي تحدث عن مصر كمكان لقاء مؤكد.

— لقد تم اختيارك للمشاركة في أعظم بعثة علمية في تاريخ البشرية. ليس مجرد غزو عسكري. غزو فكري. غزو ثقافي. شيء سيظل يتحدث عن فرنسا بعد ألف عام، عندما تنسى معارك إيطاليا.

مسح الجماعة بعينيه.

— ستوثقون بلدا لا تعرف عنه أوروبا الكثير. ستقيسون ما لم يقاس من قبل. سترسمون ما لم يرسم من قبل. ستدرسون ما لم يدرس من قبل. ستقومون بإنشاء وصف لمصر الضخمة — عشرين مجلدا، وربما ثلاثين — مع آلاف الرسومات، والخرائط بدقة لا مثيل لها، ودراسات شاملة لكل شيء: الزراعة، العمارة، علم الفلك، علم النبات، الكيمياء، الجغرافيا،

الجيولوجيا، التاريخ، اللغات، الرياضيات، الطب، علم المعادن، علم الحيوان. كل ما تحتويه هذه البلاد على الإطلاق، من السطح إلى أكثر الحجارة مدفونة.

اندلع التصفيق، ممزوجا ببعض الضحكات المتوترة.

رفع بونابرت يده ليصمتهم.

— لكنني مدين لك بالحقيقة كاملة. الحرارة ستكون ساحقة. أبعد بكثير مما عرفته من قبل. الأمراض ستكون مجهولة لأطبائك. بعضكم سيموت. لكن من ينجو سيكون قد أنجز شيئا لم يحققه أي عالم قبلهم.

الصمت الذي تلا ذلك كان له طابع غريب، ليس قلقا ولا حماسا، بل جاذبية تعرف عليها بونابرت من رؤيته قبل المعارك.

— لن تكونوا مجرد مراقبين، تابع. ستصبحون أيضا جامعي آثار. ستجمع أجمل الآثار التي تقدمها مصر — التماثيل، والستلات، والتوابيت، والمومياوات، والبرديات — كل ما يمكن أن يثري المتحف المركزي للفنون ويجعل باريس العاصمة الثقافية للعالم.

نزل بونابرت من المنصة قبل أن يتمكن أحد من صياغة اعتراض.

— استعد. افحص آلاتك العلمية. أعد قراءة كتبك. ارتاح قدر الإمكان.

تفرق العلماء وسط ضجيج المحادثات الهمسية. بعضهم متحمس، وآخرون صامتون، جميعهم مدركون لحجم ما ينتظرهم.

في 13 مايو، قضى بونابرت صباح اليوم في تفقد مرافق الخيول. حملت البعثة ألف وخمسمائة منها. للفرسان وللمدفعية. كان نقل الخيول بحريا مهمة معقدة وخطيرة ومكلفة.

فحص بونابرت المنشآت، والضابط المسؤول يمشي على مستواه.

— كم عدد الخيول في كل سفينة؟

— خمسون، جنرال. بعيدا عن ذلك، ستكون الظروف غير محتملة، وستؤذي الحيوانات بعضها البعض.

— وماذا عن الطعام أثناء العبور؟

— تبن، شوفان، ماء. حسبنا لمدة شهر واحد.

— هل سيكون ذلك كافيا إذا سارت الأمور على ما يرام؟

أخذ الضابط ثانية قبل أن يجيب.

— إذا لم نواجه العواصف. إذا لم تمرض الخيول. إذا سارت الأمور حسب الخطة.

بدا بونابرت مقتنعا. الكثير من عدم اليقين. لكن لم يكن هناك خيار، الجيش كان بحاجة إلى خيول، والخيول بحاجة للعبور.

في ظهر 13 مايو، جمع بونابرت جنرالاته لاجتماع التنسيق الرئيسي الأخير قبل الصعود.

— أيها السادة، قال بونابرت وهو يأخذ مكانه، دعونا نعيد الحديث. بيرتييه، الأرقام.

كان رئيس الأركان يستعين بملاحظاته بدقة محاسب.

— ثمانية وثلاثون ألف جندي مقسمون إلى خمس فرق: فرقة ديزايكس، خمسة آلاف رجل؛ فرقة كليبر، ستة آلاف؛ فرقة رينير، خمسة آلاف؛ فرقة بون، أربعة آلاف؛ فرقة مينو، أربعة آلاف. فرسان تحت قيادة مراد، ثلاثة آلاف. المدفعية، ألفين. الهندسة، ألف. الطاقم والخدمات، ثمانية آلاف.

— معدات؟

— أربعون ألف بندقية، خمسة آلاف سيف، مئتا مدفع، عشرة ملايين خرطوشة، مئة ألف كرة مدفع.

— مؤن؟

— ثلاثة أشهر — بسكويت، أرز، لحم مملح، نبيذ، براندي.

— ماء؟

أظهر بيرتييه ترددا طفيفا.

— شهر الآن. لكن طلبت ضعف الطلب. الهيئة تعمل بنشاط على هذا الأمر.

التفت بونابرت إلى كليبر.

— جان-بابتيست، رجالك؟

— جاهز، رد كليبر، بضبط النفس الذي كان نوعا من الصراحة معه.

— سيفهمون في الحال. ديزايكس؟

— فرقتي ستنطلق في تشيفيتافيكيا كما تم الاتفاق. كل شيء جاهز.

— لان؟

— جاهز.

— مراد؟

استقام مراد.

— فرساني جاهزون. لكنني قلق بشأن الخيول. الظروف على متن السفينة ستختبر بشدة، ولن ينجو الكثيرون من العبور.

— أعلم، قال بونابرت. سنشتري المزيد في مصر. يمتلك المماليك خيول عربية ممتازة. أخف وزنا، أكثر ملاءمة للصحراء من خيولنا.

فتح خريطة مصر على الطاولة، واقترب الجنرالات.

— أيها السادة، هذا هو هدفنا كما أتصوره. ألكسندريا أولا. ننزل، نأخذ المدينة، يومين إذا سارت الأمور على ما يرام. ثم تقدمنا نحو القاهرة. ثلاثمائة كيلومتر عبر الصحراء. الحرارة، العطش، المعارك ضد المماليك طوال الطريق. سيكون الأمر صعبا. صعب جدا. لكننا سننتصر.

ابتعد كليبر عن الخريطة.

— لا نقلل من شأن المماليك. هم فرسان ممتازون، تدربوا منذ الطفولة، ومهاجماتهم مخيفة لمشاة لم يرهم من قبل.

— سنهزمهم بمربعات المشاة ومدفعيتنا. الانضباط مقابل الشجاعة. التنظيم مقابل الفوضى. لقد فعلناها في إيطاليا ضد جيوش أكبر بكثير. سنكرر ذلك في مصر.

استمر الاجتماع، متنقلا في التفاصيل التكتيكية، والأسئلة اللوجستية، وخطط الصعود من قبل الأسراب. في النهاية، أنهى بونابرت بنبرة بلا جاذبية.

— أيها السادة، بعد ستة أيام سننطلق على متن السفينة. تأكد من أن كل شيء جاهز. الرجال، الأسلحة، المعدات، الطعام، الماء. كل شيء، دون استثناء. لا يسمح بالأخطاء في هذه المرحلة. انفصل.

غادر الجنرالات دون كلمة.

VI — التعديلات النهائية

في 14 مايو، تلقى بونابرت رسولا من باريس. رسالة من الديركتوار. نبرة جافة، إدارية، باردة.

— أيها المواطن العام،

الديركتوار يوافق على تحضيراتك. يجب أن تغادر الشحنة بحلول 20 مايو على أبعد تقدير. كل فرنسا تعتمد على نجاحك. لا تخيب ظننا.

الموقعون: باراس، روبيل، لا ريفيلييير-ليبو، ميرلين، تريهارد.

كان يعلم ذلك منذ البداية.

طوى الورقة إلى أربعة وأدخلها في جيبه. على الطاولة، كانت الأوراق تنتظر.

في صباح 16 مايو، استدعى بونابرت جنرالاته إلى غرفة واسعة في المستودع، كانت نوافذها العالية تطل على الميناء. كان آخر اجتماع كبير قبل الصعود إلى متن السفن، وكان الجميع يعلم ذلك.

كانوا جميعا هناك. بيرتييه، كليبر، ديزايكس، لان، مراد، مينو، كافاريللي.

كان بونابرت ينتظرهم واقفا أمام خريطة ضخمة لشرق البحر الأبيض المتوسط ممتدة على طاولة من خشب البلوط. لم يدعهم يستقرون.

— أيها السادة، بعد ثلاثة أيام سننطلق، وأريد تقريرا كاملا عن كل فرقة. بيرتييه، ابدأ.

فتح رئيس الأركان دفتر ملاحظاته الكبير المغلف بالجلد وقرأ بحدة من لا يتسامح مع التقريب.

— فرقة ديزايكس: خمسة آلاف ومئتا رجل، الصعود المخطط له في تشيفيتافيكيا، تم تعيين ثلاث عشرة سفينة، مغادرة في نفس الوقت مع الأسطول الرئيسي. فرقة كليبر: ستة آلاف

وأربعمائة رجل، جميعهم حاضرون في تولون، سبعون سفينة نقل مكلفة. فرقة رينير: خمسة آلاف رجل، خمسون سفينة. فرقة بون: أربعة آلاف وثلاثمائة رجل، خمسة وأربعون سفينة. فرقة مينو: أربعة آلاف رجل، أربعون سفينة.

التفت بونابرت إلى مراد.

ـــ فرسانك؟

اعتدل مراد في وقفته، وهي حركة عادية جدا لدرجة أن رجاله لم يعودوا يلاحظونها.

ـــ ثلاثة آلاف فرسان، ألف وخمسمائة حصان على متن. الباقي سيتم شراؤه في مصر. لا يمكن للسفن حمل المزيد دون خطر التعرض لاستقرارها عند العاصفة الأولى. مع ذلك، سنقبض على خيول المماليك العربية بعد هزيمتهم. هم أفضل من خيولنا في الحرب في الصحراء.

ـــ هذا هو حسابي أيضا، قال بونابرت. كافاريللي، المدفعية.

وقف جنرال المهندسين، متكئا على عصاه.

ـــ مئتا مدفع على متنها: مئة وسبعون مدفعا ميدانيا، وثلاثون مدفع حصار. عشرة آلاف كرة مدفع. خمسمائة طن من البارود. للمهندسين: ألف مهندس، خمسمائة عامل منجم، ثلاثمائة قارب عائم، مع جميع المعدات لبناء الجسور والتحصينات والخنادق.

ـــ الخلاصة، بيرتييه.

ـــ أربعون ألفا ومئتا رجل على ثلاثمائة وسبع وأربعين سفينة.

طوى بونابرت ذراعيه، تلك الوضعية التي يتبناها عندما أراد أن تحمل كلماته قوة أكبر.

ـــ أيها السادة، هذا الأسطول هو الأكبر الذي جمعته فرنسا على الإطلاق. أعظم من أسطول لويس الرابع عشر، أعظم من الأرمادا التي لا تُقهر: قوتنا وضعفنا معا. قوتنا، لأننا ننقل جيشا كاملا بكل ما يحتاجه. ضعفنا، لأننا هدف ضخم وبطيء، مرئي من أميال. إذا وجدنا نيلسون قبل أن نصل إلى مصر، فنحن ضائعون. سفننا مثقلة بالحمول، وطاقمنا عديم الخبرة. الإنجليز سيغرقوننا. لكن نيلسون لن يجدنا. سنبحر ليلا، مع إطفاء جميع الأضواء. سنتجنب الطرق المعتادة. وسنكون سريعة.

تدخل كليبر من مؤخرة الغرفة بتلك الصراحة التي كان يجلبها إلى جميع الاجتماعات.

ـــ هل لدينا أي أخبار حديثة عن الأسطول الإنجليزي؟ أخبار دقيقة، ليست شائعات عن ميناء؟

أشار بونابرت بإيماءة. فتح بيرتييه خريطة ثانية تغطي كامل غرب البحر الأبيض المتوسط، مشروحة بحبر أحمر.

ـــ غادر نيلسون جبل طارق قبل عشرة أيام مع أربعة عشر سفينة خط. هو حاليا يتنقل بين كورسيكا وسردينيا. أخبره جواسيس أن أسطولا كبيرا يستعد في تولون، لكنه لا يعرف إلى أين نحن ذاهبون. تقاريره تشير إلى نابولي، أو صقلية، وربما حتى القسطنطينية.

ـــ وماذا لو فهم وجهتنا الحقيقية أخيرا؟ أصر كليبر.

— إذا وجدنا، فسيدمرنا، قال بونابرت بصراحة قطعت التعليقات. لهذا السبب كل شيء يعتمد على السرعة والتقدير. يجب أن نصل إلى مصر قبل أن يفهم إلى أين ذهبنا.

جلس مرة أخرى.

— عودوا إلى فرقكم. افحص كل شيء. لا أريد أي مفاجآت عندما أكون في البحر. تفرقوا.

خرج الجنرالات. الجميع ما عدا بيرتييه، الذي بقي خلفه وانتظر إغلاق الباب.

ظل واقفا، ممسكا بدفتره بكلتا يديه، وفهم بونابرت أن لديه شيئا ليقوله لم يكن ليقوله أمام الآخرين.

— هذه البعثة مجنونة. نرسل أربعين ألف رجل عبر البحر الأبيض المتوسط، نحو بلد لا نعرف عنه الكثير، ضد عدو لا نملك عنه معلومات تكتيكية دقيقة تقريبا، وأسطول أسطول أقل جودة من أسطول الإنجليز.

سمح له بونابرت بالكلام. لم يكن هذا اعتراض جبان. بيرتييه لم يكن جبانا. كان صوت رجل قضى الليل يرسم الأشكال ونظر في وجهه لما قالته تلك الأشكال.

— كل المشاريع العظيمة بدت مجنونة لمن اختبرها من الداخل، تابع. قيصر يعبر الروبيكون. الإسكندر يهاجم فارس. هانيبال يعبر جبال الألب في الشتاء. نجحوا لأنهم تجرأوا على فعل ما لم يجرؤ أحد غيره. ونحن كذلك.

— وماذا لو فشلنا؟

— لن نفشل.

أغلق بيرتييه دفتر ملاحظاته، وانحنى، وخرج.

في ظهر يوم 16 مايو، ذهب بونابرت إلى ورش الطباعة التي تم تركيبها خلف المستودع، في مخزن خشب قديم اختلطت رائحة الراتنج الآن برائحة الحبر الطازج. كانت المطابع تعمل ليلا ونهارا، تصدر الإعلانات التي ستوزع على السكان المصريين فور وصولهم.

مارك باوريل، الطابع الرئيسي، وأصابعه الملطخة بالحبر الأسود حتى أول مفاصل أصابعه، كان يشرف على العمل بحذر كاتب، لأن خطأ في الطباعة بالعربية، في إعلان يهدف إلى إقناع المسلمين بحسن نية فرنسا، قد يكون له عواقب غير متوقعة.

— أيها المواطن العام، لقد أعددنا ثلاث إعلانات. بالفرنسية، العربية، التركية.

ناول الورقة الأولى لبونابرت، الذي قرأها بصوت عال.

— «أيها شعوب مصر، سيقال لكم أنني جئت لتدمير دينكم. لا تصدق ذلك. أجيب أنني جئت لأعيد حقوقك، لأعاقب المغتصبين، وأنني أحترم الله ونبيئه والقرآن أكثر من المماليك.»

نظر إلى باوريل.

— هذا جيد. لكن يجب أن يضاف بعد هذا المقطع: «*نحن المسلمون الحقيقيون. ألم ندمر البابا الذي قال إنه يجب شن حرب ضد المسلمين؟ ألم ندمر فرسان مالطا الذين ادعوا أن الله يريدهم أن يقاتلوا المسلمين؟* »

كتب باوريل بسرعة، وقلمها يصدر صريرا على الورق.

— كم نسخة تريدها، أيها المواطن العام؟

— عشرة آلاف بالفرنسية، عشرة آلاف بالعربية، خمسة آلاف بالتركية. خمسة وعشرون ألف نسخة إجمالا، جميعها طبعت قبل مغادرتنا خلال ثلاثة أيام.

لم يظهر باوريل أدنى قلق بشأن التأخير، كان من واجبه العمل بسرعة.

أخذ بونابرت الحروف العربية من صندوق موضوع على طاولة العمل وفحصها للحظة، تلك الحروف المتعرجة والأنيقة، التي تتغير أشكالها حسب موقعها في الكلمة — الحرف الأول، الوسيط، النهائي — وفقا لمنطق لم يتقنه أحد من مرافقيه بعد.

— هل هذه الشخصيات متماسكة جيدا؟

— لقد تم التحقق منها ثلاث مرات من قبل فينتشر دي باراديس نفسه، قال باوريل. كل حرف، كل علامة تشكيل. قدم موافقته كتابيا.

— ممتاز. استمر.

غادر بونابرت المطبعة وعاد إلى الأرصفة. في كل مكان، نفس المشهد، في كل مكان نفس الإلحاح الصامت.

راقب بونابرت سفينة نقل كان الجنود يكافحون فيها لركوب مدفع على سطح مائل، حبالهم تحت أيديهم، وأقدامهم تنزلق على الخشب المبلل.

في مساء 16 مايو، تناول بونابرت العشاء مع مونج وبيرثوليه وبعض العلماء في نزل متواضع في الميناء. كانت الطاولة بسيطة، والطعام متوسط، ورائحة النبيذ كانت كرائحة البراميل، لكن المحادثة كانت ذات جودة مختلفة عما في جميع غرف الجلوس في باريس.

استمع بونابرت أكثر مما يتكلم، وهو أمر نادر. هؤلاء الرجال كانوا يعرفون الكثير، وبطريقة مختلفة تماما عن تلك التي يعرفها الجنرالات. طريقة تفكير تسعى للفهم بدلا من القرار.

رفع كأسه.

— سادة، إلى مصر. إلى الخلود الذي سنستحقه جميعا.

— إلى الخلود! كرر العلماء وهم يرفعون كؤوسهم.

في صباح 17 مايو، بدأ الصعود النهائي.

كانت عملية ضخمة، منسقة حتى اللحظة، وقد أبقت اللوجستيات بيرتييه وكافاريللي مشغولين لأسابيع. صعدت فرقة كليبر أولا، ستة آلاف وأربعمائة رجل على سبعين سفينة

نقل خلال ثماني ساعات، تيار مستمر من الزي الأزرق الذي صعد سلالم الإقامة بأوامر من كليبر نفسه، واقفا على حافة المنصة، بصوت حاد ينظر إلى كل رجل يمر أمامه.

— انطلق! أسرع! ليس لدينا اليوم كله ونيلسون لن ينتظر!

تسلق الجنود، حقائب ظهر على ظهورهم، وبنادق على أكتافهم، وشاكوهات على رؤوسهم. انزلق جندي شاب على سلم مبلل وسقط في الماء بين الهيكل والرصيف. تم إخراجه خلال ثلاثين ثانية، مبلل، لكنه لم يصب بأذى. انحنى رقيب فوقه أثناء رفعه.

— أحمق! هل تريد أن تغرق قبل مغادرة ميناء فرنسا؟

انطلقت الضحكات على طول الرصيف، متوترة وسريعة، لكنها خفت على الفور.

راقب بونابرت من بعيد، وذراعيه متقاطعتان، ووجهه مغلق. كان بيرتييه في مستواه.

قال رئيس الأركان: تم الصعود دون أي حادث كبير. الإيقاع جيد.

— كم يستغرق الأمر لجمع كل شيء على متن السفينة؟

— يومان. ربما ثلاث، إذا واجهنا صعوبات مع المعدات الثقيلة.

هز بونابرت رأسه.

— لم يتبق لدينا ثلاثة أيام. يمكن أن يظهر نيلسون في أي وقت. نحتاج إلى زيادة السرعة على جميع المنصات في نفس الوقت.

في الساعة الثانية ظهرا وصل تقرير مقلق. تم رصد السفن الإنجليزية قبالة كورسيكا بواسطة زورق استطلاع. استدعى بونابرت برويس فورا إلى مكاتب المستودع.

وصل الأدميرال خلال ثلاث دقائق، بوجه مشغول، لكنه بخطوات ثابتة.

قال بونابرت: أيها الأدميرال، نيلسون قريب جدا لدرجة أننا لا نستطيع الاستمرار بهذا الوتيرة.

فتح برويس خريطة بحرية على الطاولة وأشار إلى بقعة.

— وفقا لكشافنا، هو يبحر هنا، على بعد حوالي خمسين فرسخا، مع اثنتي عشرة سفينة حربية.

— في أي اتجاه؟

— شمال غرب. قد يكون متجها إلى تولون.

شحب بونابرت، ذلك الشحوب النادر الذي كان يشير إلى إعادة تقييم عاجلة للموقف، ليس خوفا.

— إذن يجب أن نغادر قبل أن يكون في الأفق.

— من المستحيل أن تذهب ليلة، قال الأدميرال بالصراحة التي تتطلبها الموقف. لا يزال هناك عشرة آلاف رجل على متن السفينة وعدة أطنان من المعدات، بما في ذلك بعض مهندسي كافاريلي. ونقلها في الليل، على عجل، يعني خطر وقوع حوادث خطيرة، مثل انقلاب السفن المحملة بشكل سيء، وصناديق البارود المؤمنة بشكل سيء.

وضع بونابرت قبضته على الطاولة.

— إذن ضاعفوا الورديات واعملوا طوال الليل. فوانيس، مشاعل، كل ما تحتاجه لإشعال الأرصفة. أريد أن يتم شحن كل شيء غدا قبل غروب الشمس.

— مساء الغد.

— إنه أمر، أيها الأدميرال.

انحنى برويس وخرج دون أن يقول كلمة.

خلال ليلة 17 إلى 18 مايو، استمر الصعود دون انقطاع. حولت مئات المشاعل والفوانيس الأرصفة إلى مسرح مضاء في ضوء الليل، ضوء برتقالي قافز، جعل ظلال الصواري والجنود ترقص على جدران المستودع. جاء الجنود بالمئات. تم رفع الصناديق بالآلاف. صعدت الخيول في مجموعات، متوترة من الضوضاء والضوء غير المعتاد، وأقدامها ترفض الألواح الخشبية والعريس يهمسون لتهدئتهم.

في جميع أنحاء الميناء، وبنفس الإلحاح الصامت، كان البحارة يعلمون أن نيلسون يقترب. لم يتحدث أحد عن الإنجليز بصوت عال، لكن كل رجل ينظر إلى البحر كان يعتقد نفس الشيء.

لم ينم بونابرت. قضى الليل على الأرصفة، ينتقل من نقطة إلى أخرى، يشجع، يضغط عليه، يحل الازدحامات المرورية، يفك الحواجز بكلمات قليلة أو قرار سريع.

— أسرع في الرصيف الشمالي. يمكن أن تنتظر خزائن اللجنة هذه. المدافع أولا.

في الساعة الثالثة صباحا، كانت فرقة بون على متن السفن بالكامل. في الساعة الخامسة، فرقة رينير. في الساعة السابعة، تسللت آخر المدافع إلى حوازن السفن الناقلة، وتوقفت أطقم الرافعات أخيرا.

أشرقت الشمس فوق ميناء متحول، شبه صامت، شبه فارغ، شبه جاهز.

صعد بونابرت إلى السفينة الشرقية في ضوء الصباح. كان كازابيانكا ينتظره على السطح، يبدو كرجل قضى الليل أيضا واقفا، لكنه لم يظهر ذلك.

— السفينة جاهزة. الطاقم مكتمل. قمنا بتجنيد آخر البحارة في تلك الليلة نفسها في حانات الميناء. تم أخذ الطعام على متن السفينة. كل شيء على ما يرام.

— هل يمكننا رفع المرساة؟

— بمجرد أن تطلبه.

اقترب بونابرت من الدرابزين ونظر إلى الميناء للمرة الأخيرة، حيث كانت ثلاثمائة وسبع وأربعون سفينة راسية في المرسى، جميعها محملة وتواجه مخرج القناة، كما لو أنهم أيضا في عجلة من أمركهم للمغادرة.

— كابتن، استعد. سنرفع المرساة غدا عند الفجر.

نزل إلى مقصرته، استلقى مرتديا ملابسه بالكامل على سريره، أغمض عينيه.

غدا، ستبدأ المغامرة.

غدا، سينطلق هذا الأسطول غير المسبوق.

غدا، مصر.

لكن أولا، نم لبضع ساعات.

غفا تقريبا على الفور، وحلم بأهرامات.

VIII— اليوم السابق للمغادرة

استيقظ بونابرت في الساعة الرابعة صباحا يوم 18 مايو. ارتدى ملابسه في ظلمة مقصورته، تحت ضوء مصباح زيت صغير، وصعد إلى سطح سفينة الشرق.

كانت الليلة لا تزال مظلمة—بلا قمر—لكن السماء المرصعة بالنجوم ألقت ذلك الضوء البارد والمنتشر على البحر الذي لا يشبه شيئا آخر. كان الميناء في حالة سكون. انتهت رحلة السفينة المحمومة في الليلة السابقة، ولم يكسر الصمت سوى صوت الماء على الهياكل، وصرير الحبال، وصراخ نورس بعيد.

اتكأ بونابرت على الدرابزين وتنفس. كان الهواء نقيا، مليء باليود، مثقلا بالقار والقنب المبلل. في كورسيكا، نشأ مع البحر، لكنه بقي، بشكل متناقض، رجل من الأرض. جنرال وليس أدميرالا. شخص يفضل المعارك المفتوحة في السهول على الشكوك في المعارك البحرية حيث كان القائد يفلت من الكثير. الليلة، كان البحر هادئا كالأوبسيديان.

بعد ساعات قليلة، سيكسر هذا الصمت طبول الاستيقاظ، والأوامر السعيدة، وطرق الأحذية على الحجارة. لكن في تلك اللحظة، في تلك الدقائق القليلة قبل الفجر، كان كل شيء صامتا، واستمتع بونابرت بهذا الهدوء كما يتذوق المرء شيئا يعرف أنه لا يمكن الاحتفاظ به طويلا.

كان يفكر في مصر. ليس ما قرأه عنها، المعرفة الباردة بالكتب، بل ما ستكون عليه فعلا، إذا رآه بعينيه. بعد بضعة أسابيع، سيعرف.

ترك بونابرت وحيدا. إلى الشرق، بدأ السماء تذوب بشكل غير ملحوظ. كان يفكر في نيلسون في مكان ما في البحر الأبيض المتوسط—على بعد خمسين فرسخا، وربما مئة—يبحث عن الأسطول الفرنسي دون أن يعرف أين يجده. فكر في المخاطر التي تنتظرهم: العواصف، الهدوء الموت، الأمراض التي ستنتشر في المخابئ المزدحمة. لكنه فكر أيضا في المجد الذي ينتظرهم إذا نجحوا. ستدخل الحملة المصرية جزءا من التاريخ. كان متأكدا من ذلك.

في الساعة السادسة استيقظت الترسانة على انفجار من الأصوات. الأبواق الحادة، دقات الطبول الجافة، صرخات الضباط الأجش، وطرق آلاف الأحذية على الحجارة بينما تجمع الأفواج لنداء الصباح.

نزل بونابرت على متن قارب القائد وتوجه إلى مكاتب المستودع. وجد بيرتييه حيث تركه في اليوم السابق، جالسا على مكتبه، الذي اختفى تحت أكوام الصوادر، مع الفرق أن ضوء

الصباح بدأ الآن يحل محل ضوء الشموع. الهالات السوداء تحت عينيه أشارت إلى أنه لم ينم أكثر من ساعتين.

— لويس-ألكسندر، قال بونابرت وهو يقترب، ألا تنام أبدا؟ سوف تنهار قبل أن نغادر الميناء حتى.

ابتسم بيرتييه بتعب، ولم يحاول إخفاء نفسه.

— سأنام عندما نكون في البحر. في الوقت الحالي، هناك الكثير من الأشياء المتبقية ليتم التحقق منها لتضيع الوقت في النوم.

— إذن أعطني البيان بالضبط. أين نحن هذا الصباح؟

أخذ بيرتييه نفسا عميقا، وراجع عدة سجلات، وبدأ تقريره بدقة منهجية جعلته منظما لا يمكن استبداله.

— الجنود: سبعة وثلاثون ألف وتسعمائة رجل على متن السفينة، ستصل ثلاثة أفواج في الصباح. العلماء: مئة وأربعة وستين حاضرا وعلى متن السفينة. ثلاثة من أصل مئة وسبعة وستين متوقعا مفقودون، وكانت عرباتهم تعاني من عطل ميكانيكي أثناء الطريق من باريس.

— المعدات؟

— مدافع على متن كاملة، مئتا قطعة. البنادق كاملة، أربعون ألف. خمسة وتسعون في المئة ذخيرة. البارود شحن بالكامل، خمسمائة طن. المخصصات عند خمسة وتسعين في المئة. تبقى بعض براميل البسكويت والنبيذ.

— ماء؟

— ثمانية وعشرون ألف برميل على متنها. تقريبا ضعف ما كان مخططا له في البداية.

— جيد. خيول؟

— ألف وأربعمائة وسبعون حصانا على متن أحياء. فقدنا ثلاثين خلال العمليات. توفي بعضهم بسبب كسور ناجمة عن الأحزمة البحرية، وآخرون اختنقوا من الذعر أثناء صعودهم إلى الصعود.

صر بونابرت على أسنانه. ثلاثون حصانا فقدوا قبل أن يغادروا الميناء. كانت هذه الخسائر حتمية، وكان بيرتييه يعلم ذلك كما كان يعرف.

— السفن؟

— كل شيء جاهز باستثناء ثلاث سفن نقل واجهت مشاكل في الأشرعة الليلة الماضية. سيتم الانتهاء من الإصلاحات قبل الظهر.

— جيد. انقل الأمر: الجميع على متن السفينة الليلة دون استثناء. سيتم إبحار المرساة غدا في تمام الساعة السابعة.

— سيتم ذلك.

خرج بونابرت وذهب إلى المستودعات حيث كانت آخر الصناديق تنتظر تحميلها. كان كافاريللي يشرف على العمليات من الرصيف، مستندا إلى عصاه، يصرخ بأوامره وسط ضجيج الرافعات وعمال الأرصفة.

— جنرال، ما الذي تبقى لتجميعه؟

نظر كافاريللي إلى قائمته دون أن ينظر للأعلى.

— حوالي خمسين صندوق من المعدات العلمية، حوالي ثلاثين برميلا من النبيذ، حوالي عشرين علبة أدوية، حوالي عشر صناديق كتب، مئة كيس قهوة، وحوالي خمسين برميلا من البراندي.

— كم من الوقت؟

— ست ساعات كحد أقصى. كل شيء سيكون على متن السفينة عند الظهر.

— لديكم حتى الظهر، ولا دقيقة واحدة أكثر.

استولى بونابرت على صندوق كتب مفتوح على الرصيف. دفعه فضوله ليغرس يده فيه. خرج منها مجلدا مغلفا بالجلد، مطليا بالذهب على الحافة، رحلة فولني إلى مصر وسوريا. فتحها عشوائيا وقرأ عدة أسطر في صمت.

— «كانت مصر في يوم من الأيام أكثر الدول ازدهارا في الكون. تتداعى نصبها إلى أنقاض. قنواتها مغطاة بالرمل. مدنها خالية من السكان. لكن ربما يوما ما ستعيده أمة مستنيرة إلى روعها السابق.»

أغلق الكتاب وأعاده إلى الصندوق.

في تمام الساعة التاسعة صباحا، اندفعت عربة مسرحية مغبرة إلى الميناء، وخيولها مغطاة بالرغوة بعد رحلة استغرقت خمسة أيام من باريس. العلماء الثلاثة الأخيرون هبطوا بصلابة واضحة لأولئك الذين ناموا في عربة لفترة طويلة جدا.

خرج دولوميو أولا. ديودات دي دولوميو، عالم المعادن الذي خلد اسمه بالفعل بواسطة الدولوميت الذي اكتشفه في جبال الألب. وجهه متآكل من سنوات العمل الميداني، ويداه الخشنتان لرجل معتاد على مطرقة الجيولوجي. نظر إلى صواري الأسطول التي تشير فوق أسطح الميناء، وتغير شيء في تعبيره بشكل طفيف.

مونج، الذي تم تحذيره من وصولهم، كان بالفعل يعبر الرصيف باتجاه العربة.

— ديودات! أخيرا! بدأنا نفكر في المغادرة بدونك.

صافحه دولوميو بدفء أصدقاء قدامى خشن.

— كان الطريق مروعا، يا غاسبار. محوران مكسوران، وعجلة انفصلت على بعد أربعين فرسخا من ليون، وحصان مات من الإرهاق في إكس. لكننا هنا.

— وصلتم في الوقت المناسب تماما. سنغادر صباح الغد عند الفجر. متأخر بيوم، وكنا بالفعل في البحر.

— كنت سأتجاوز البر حتى صقلية إذا لزم الأمر، قال دولوميو بنبرة تجمع بين المزحة والحقيقة.

هبط العالمان الآخران بدورهما. سافيني، عالم حيوان متخصص في اللافقاريات. قصير، داكن، حيوي، بعينين تبدوان وكأنهما تدوين الملاحظات طوال الوقت. دليل، في الثانية والعشرين من عمره، عالم نباتات شغوف بالنباتات الغريبة، أكثر تحفظا وأكثر توازنا، ينظر حوله بهدوء من يراقبون قبل الكلام.

اقترب سافيني من مونج بابتسامة امتلأت من وجهه كله.

— المواطن مونج! نحن جاهزون! أرنا هذا الأسطول الذي كان الجميع يتحدث عنه منذ مرسيليا!

— اتبعوني. لكن أحذركم: له تأثير خاص في المرة الأولى.

قادهم إلى ارتفاع يطل على الرصيف، وعندما اكتشفوا المشهد، توقفا فجأة، وأفواههما نصف مفتوحة. مئات السفن امتدت بقدر ما تراه العين، غابة من الصواري مضغوطة عاليا فوق المياه المظلمة، سفن الخط تعلو الجميع ككاتدرائيات عائمة، فرقاطات تتأرجح بينها برشاقتها النحيلة، وسائل النقل مكدسة حيثما تبقى مكان، كل واحدة تحمل علم الألوان الثلاثي يرفرف في رياح الصباح.

— لأجل الله، تمتم دليل، الذي لم يكن رجلا يشتم.

— ثلاثمائة وسبع وأربعون سفينة، قال مونج. أربعون ألف شخص. أكبر بعثة بحرية أطلقتها فرنسا على الإطلاق.

بقيا هناك لعدة دقائق دون أن يتحدثا، ثم قادهم مونج عائدا إلى الأرصفة.

— تعالوا. يجب أن تجدوا كبائن قبل الليلة. أنتما الاثنان على متن فرانكلين، معي.

في ظهر يوم 18 مايو، تحت شمس مايو القوية، أجرى بونابرت تفتشا نهائيا للسفن. أراد أن يرى بعينيه أن خمسين صندوقا من المعدات العلمية قد تم تركيبها بالفعل على متن فرانكلين دون أضرار.

راقبهم يتسلقون واحدا تلو الآخر، يرفعون بواسطة الرافعات التي تصدر صريرا تحت الجهد، ويتحكمون بحذر جراح من قبل عمال الأرصفة الذين حذرهم كافاريللي سابقا: هذه الصناديق تحتوي على أدوات هشة لا يمكن استبدالها بمجرد وصولها إلى مصر. تبع ذلك براميل النبيذ، تدحرجها فرق من أربعة رجال على الأرصفة. تم تحميل صناديق الأدوية تحت إشراف شخص معين من الديسجينيتس، الذي كان يضع علامة على كل خانة في قائمته. هذه الأدوية كانت تشكل الدفاع الجدي الوحيد للجيش ضد الأمراض: الزحار، التيفوس، الإسقربوط، وربما الطاعون. ثم ارتفعت أكياس القهوة، مما أسعد العلماء الذين لم يعتبروها رفاهية. كان بيرثوليه على وجه الخصوص، الذي كان يستهلك كميات هائلة من القهوة السوداء القوية جدا، قد أوضح أنه ليس مسؤولا عن مزاجه بدون ما كفى من المؤن.

عند الظهر بالضبط، كما وعد كافاريللي، تم رفع الصندوق الأخير على متن السفينة. كانت أرصفة تولون فارغة.

في مساء 18 مايو، مع غروب الشمس فوق البحر الأبيض المتوسط، ملقية على الماء أضواء غسق مايو الذهبية والوردية، جمع بونابرت جنرالاته للاجتماع الأخير قبل المغادرة. تجمعوا في نفس غرفة الترسانة التي عرفوها الآن عن ظهر قلب، لكن هذه المرة كان الجو مختلفا—أكثر توترا، وأكثر هدوءا—لأن الجميع كان يعلم أن هذا هو آخر اجتماع في فرنسا.

وقف بونابرت على رأس الطاولة.

— أيها السادة، سنغادر غدا عند الفجر. نقطة. بيرتييه.

غادر بيرتييه مقعده وفتح سجله.

— أربعون ألفا ومئتا شخص على متن السفن بالكامل. اللجنة العلمية كاملة منذ صباح اليوم.

— ممتاز. برويس، الطريق.

انحنى الأدميرال فوق الخريطة.

— الانطلاق من تولون، في مسار جنوب شرق نحو كورسيكا. حشد أسراب جنوة وأجاكسيو وسيفيتافيكيا، مما سيجعل أسطولنا يصل إلى حوالي أربعمائة سفينة. التشكيل في ثلاث فرق: في الوسط تحت قيادتي مع الشرق في المقدمة، تحت فيلنوف يمين، ويسار تحت قيادة ديكريس. اتجه جنوبا نحو مالطا. أسبوع إذا كانت الرياح مواتية. الهجوم والاستيلاء على الجزيرة خلال يومين أو ثلاثة. ثم جنوب شرق نحو الإسكندرية، حوالي أسبوعين. المدة الإجمالية: خمسة وثلاثون يوما إذا سارت الأمور على ما يرام، وخمسون يوما إذا اضطررنا للمناورة لتجنب نيلسون.

— بالضبط. أين هو الليلة؟

أشار برويس إلى مكان شمال جزيرة إلبا على الخريطة.

— آخر الأخبار هذا الصباح: إنه يبحر هنا مع أربعة عشر سفينة. إنه يبحث عن أسطولنا. استجوب جميع السفن المحايدة التي واجهها. لكنه لا يعرف إلى أين نحن ذاهبون بعد. تعتقد البحرية البريطانية أننا نهاجم نابولي، أو صقلية، أو القسطنطينية.

— إلى متى يمكننا أن نبقيه في هذا الغموض؟

فكر برويس للحظة.

— ربما أسبوع، ربما أسبوعين. لكنه سيفهم في النهاية. أسطول مكون من ما يقرب من أربعمائة سفينة لا يعبر البحر الأبيض المتوسط دون أثر.

— وماذا لو وجدنا على الطريق؟

أجاب برويس بصراحة.

— فرصنا شبه معدومة في هذه الحالة. سفننا محملة بشكل زائد وليست قادرة على المناورة كثيرا. طاقمنا يفتقر إلى التدريب. أطلق مدفعياتنا طلقة جانبية واحدة بينما أطلق الإنجليز ثلاث طلقات. إذا اعترضنا نيلسون في البحر، سيغرقنا.

— إذن كل شيء يعتمد على السرعة والسرية. نبحر ليلا قدر الإمكان، مع إطفاء جميع الأضواء، متجنبين الطرق المزدحمة. ونصلي من أجل رياح مواتية.

نظر إلى جنرالاته.

— آخر تفتيش هذا المساء. الجميع على متن السفينة عند منتصف الليل دون استثناء. المرساة سترفع غدا الساعة السابعة. أما من لا يكون على متن السفينة فسيبقى في فرنسا. هل لديكم أسئلة؟

كليبر رفع نفسه إلى النصف.

— لماذا مالطا؟ لماذا لا تذهب مباشرة إلى مصر وتوفر بعض الوقت؟

— هناك عدة أسباب. أولا، تحتل مالطا موقعا استراتيجيا في وسط البحر الأبيض المتوسط. من يسيطر عليه يسيطر على جميع الطرق البحرية. ثانيا، تمتلك الجزيرة ثروة كبيرة جمعها الفرسان على مدى قرون. ذهب، مال، أعمال فنية ستستخدم لتمويل الباقي. وأخيرا، سنأخذ ماء عذبا وطعام إضافي، لأن احتياطياتنا ستنفد بعد أسبوعين في البحر.

تدخل مينو بصوت شخص يتأمل في سؤال لفترة طويلة.

— يقال إن فرسان مالطا محاربون أقوياء. أن الحصن شبه منيع.

— كانوا كذلك في زمن الحروب الصليبية. اليوم، يعيش الأثرياء على دخلهم في القصور. سنأخذ الجزيرة خلال يومين. ربما واحد فقط إذا كان لديه الحكمة للاستسلام دون قتال.

نهض.

— أيها السادة، هذه آخر مرة نلتقي فيها في فرنسا. في المرة القادمة، ستكون في البحر، في مالطا أو مصر. لا تخيب الجمهورية، ولا فرنسا، ولا نفسي. انفصل.

الثامن — النظام

في الساعة الثانية والعشرين، بعد العشاء، عاد بونابرت إلى السفينة الشرقية. كان الميناء لا يزال مضاء بالفوانيس والمشاعل، وكانت التحضيرات الأخيرة مستمرة. كان الجنود لا يزالون يصعدون بعض السفن، والبحارة يفحصون الحبال، وبعض الصناديق المعزولة لا تزال ترفع إلى المخابئر.

كان كازابيانكا ينتظره على السطح، لا يشوبه شائبة رغم مرور الوقت.

— جنرال، السفينة جاهزة بكل الطرق. ألف ومئتا بحار في مواقعهم. مؤن لمدة ثلاثة أشهر. الماء لمدة شهر. كل الذخيرة. مدافع في الطارد. الأشرعة جاهزة للرفع. نحن في انتظار طلبك.

— غدا الساعة السابعة. ليس قبل دقيقة، ولا بعد دقيقة.

قام بونابرت بتفقد الجسر. المدفعيون يقتربون من أسلحتهم. البحارة في الحبال. القادة بالقرب من الدفة. الضباط في مواقعهم. ألف ومئتي رجل، جميعهم مستعدون، جميعهم متوترون، جميعهم ينتظرون بدء الإشارة.

نزل إلى كوخه. مكتب ضخم مغطى بالخرائط، مكتبة كتب عن مصر، سرير بحار ضيق. أخذ خريطة البحر الأبيض المتوسط ونظر إليها. تولون. كورسيكا. مالطا. الإسكندرية. ألفي كيلومتر. ربما أربعون يوما. ونيلسون في مكان ما، يبحث، يطارد.

طوى الخريطة، وضعها جانبا، واستلقى مرتديا ملابسه بالكامل.

خطرت جوزفين في باله. البقاء في باريس، ربما غير مخلص. أغمض عينيه وفكر في الإسكندرية، التي لم يرها من قبل.

أخيرا غط في النوم.

في الخارج، في ميناء تولون، كانت التحضيرات الأخيرة تكمل. كان آخر الجنود على متن السفينة. تم رفع الصناديق الأخيرة. آخر براميل الماء المحملة.

عند منتصف الليل بالضبط، كما أمر بونابرت، لم يبق أحد على اليابسة. كان على متن السفن الثلاثمائة وسبعة وأربعين شخصا الذين تأرجحوا في الميناء النائم.

انتظر الأسطول بصمت.

بعد ساعتين، عند الفجر، سيتم إعطاء الأمر.

وتبدأ المغامرة.

كانت ليلة 18 إلى 19 مايو ليلة بلا نوم تقريبا للجميع. لم يستطع أحد النوم. امتزج الحماس والألم والأمل والخوف في حالة غريبة لدرجة أنها منعت أي راحة حقيقية. كان آلاف الرجال مستلقين مستيقظين في الظلام، مستلقين في أرجوحتهم أو جالسين على الشرفة، يتساءلون إن كانوا سيرون فرنسا مرة أخرى، يصلون للآلهة التي ما زالوا يؤمنون بها رغم الثورة.

استيقظ بونابرت في الساعة الثانية صباحا. ظل مستلقيا للحظة، وعيناه مفتوحتان في ظلام كوخه حيث كان ضوء ليلي صغير يلقي ضوءا متقطعا على الحواجز الخشبية. عقله رفض أن يصمت. أخيرا نهض، وارتدى ملابسه ببطء في الظلام، وصعد إلى السطح دون أن يصدر صوتا.

كان القمر مكتملا. ألقت ضوءا فضيا على البحر وعلى السفن التي حولت كل شيء إلى منظر طبيعي شبه غير واقعي، مئات الصواري ترتفع إلى السماء كغابة متحجرة، ظلالها السوداء مرسومة على خلفية السماء المرصعة بالنجوم الأخف قليلا. لا تزال بعض الأضواء تضيء على بعض السفن: ضباط يتحققون من قوائمهم، بحارة يجهزون المعدات للإبحار، جنود مرضى يئنون بخفة في العيادات المؤقتة.

كان كازابيانكا بالفعل على السطح. لم يتفاجأ بونابرت، فقد تعرف على هذا القبطان الدقيق الذي لا يترك شيئا للصدفة.

انحنى القبطان وهو يقترب.

— ليلة جميلة لليلتنا الأخيرة في فرنسا.

— ليلة جميلة حقا، قال بونابرت وهو يتكئ على الدرابزين. هل كل شيء مرتب لصباح الغد؟

— جاهز قدر الإمكان، جنرال. الأشرعة مغلقة، لكن يمكن رفعها خلال دقائق قليلة. المراسي جاهزة للثبيت. الطاقم يعرف مواقعهم عن ظهر قلب. نحن في انتظار طلبك.

— وماذا عن الرياح؟ هل سيكون لدينا رياح عند الفجر؟

رفع كازابيانكا رأسه نحو السماء، وشم الهواء، ونظر للحظة إلى سطح البحر تحت ضوء القمر.

— لن أعد بأي شيء بثقة، جنرال. لا يزال علم الأرصاد الجوية فنا أكثر من كونه علما. لكنني أقول ربما سيكون لدينا نسيم شمالي غربي حوالي الساعة السادسة أو السابعة، عندما تبدأ الأرض في الدفء أسرع من البحر. سيكون خفيفا في البداية، ثم سيقوى في الصباح. يجب أن تكون الظروف جيدة لمغادرة الميناء.

بدا بونابرت راضيا. الطقس، على الأقل، لم يخونهم في الوقت الحالي. لم يكن أحد يعرف ماذا سيحدث بمجرد أن يكون في أعالي البحار: كان البحر الأبيض المتوسط مشهورا بتقلباته المفاجئة، وهدوئه المسطح الذي شل الأسطول لأيام، وعواصفه التي نشأت دون سابق إنذار. لكن بالنسبة لهذا الرحيل، بدا أن الظروف الجوية ملائمة.

ترك صمتا طويلا يمر، وكلاهما يحدقان في منفذ النوم.

— كابتن، قال بونابرت أخيرا، أردت أن أخبرك أنني أثق تماما بك لقيادة هذه السفينة ولإحضارنا إلى الميناء. أعرف قيمتك. لكنني أعلم أيضا أن المهمة ضخمة وأن نيلسون في مكان ما يبحث عنا. إذا قابلناه في البحر...

— إذا قابلنا نيلسون، جنرال، سنؤدي واجبنا كما فعلنا دائما. سنقاتل إذا اضطررنا للقتال، وسنفر إذا كان من الأفضل الهروب، وسنضحي بأنفسنا إذا لزم الأمر حتى يتمكن النقل من الهروب. الشرق هو السفينة الرئيسية لهذا الأسطول. السفينة الرئيسية لا تستسلم.

وضع بونابرت يده على كتف القبطان، وهي حركة احتفظ بها لبضع أيدي.

— أعلم، كابتن. لهذا السبب بالذات اخترتك لقيادة هذه السفينة.

بقيا على السطح لفترة طويلة، يتحدثان بأصوات منخفضة عن البحر وأسراره، والرياح، والتيارات، وكل ما يجب أن يتعلم البحار معرفته ليبقى على قيد الحياة.

مرت الثواني بسرعة.

الساعة السادسة وتسع وخمسون دقيقة وثلاثون ثانية.

أربعون ثانية.

خمسون ثانية.

الساعة السابعة.

فتح بونابرت فمه ليعطي الأمر الذي سيغير كل شيء.

لم يصدر الأمر فورا.

ظل بونابرت ساكنا على سطح القيادة في الشرق، فمه نصف مفتوح، وعيناه مثبتتان على كازابيانكا، الذي انتظر بصبر البحارة المعتادين على صمت القادة. لبضع ثوين، بدت وكأنها أبدية لكل من شاهد المشهد من السطح أو من السفن المجاورة، لم يحدث شيء. لم يتحرك شيء.

ثم أغلق بونابرت فمه دون أن ينطق بكلمة. استدار نحو ميناء تولون وتأمل فيه بتعبير لم يستطع أحد فهمه بالكامل. عبس كازابيانكا، فهذا التردد كان غير متوقع في رجل معروف باتخاذ القرارات بسرعة ودون عودة.

انتظر لحظة أطول، ثم:

— جنرال، لقد تجاوزنا السابعة. الفرق تنتظر. الظروف الجوية مثالية في الوقت الحالي، لكنها قد تتغير. هل نبدأ مناورات المغادرة؟

التفت بونابرت إليه.

— لا، كابتن. ليس بعد. بضع دقائق أخرى.

انتظر كازابيانكا.

— يجب أن أقيس للمرة الأخيرة ما نحن على وشك فعله، تمتم بونابرت. مصر ستغيرنا جميعا، على الأقل من ينجون. لن نكون نفس الرجال عندما نعود. وأردت أن آخذ معي صورة أخيرة لهذه المدينة، انطباعا أخيرا عن فرنسا، قبل أن يبدأ كل شيء.

توقف قليلا.

— هل تعرف ما الذي كنت أفكر فيه في الدقائق الأخيرة، كابتن؟ تذكرت الإسكندر الأكبر، الذي غادر مقدونيا قبل أكثر من ألفي عام لغزو الشرق. كان عمره عشرون عاما عندما بدأ، والرابعة والعشرين عندما غزا مصر. أنا في الثامنة والعشرين من عمري — متأخر بثلاث سنوات. لكنني سأحقق ما حققه هو وأكثر. لقد انتصر فقط. سأتحضر أيضا. سأجلب العلم، والتنوير، وتقدم العقل الحديث.

كازابيانكا استمع.

نادرا ما كان بونابرت يستسلم بهذه الطريقة، ليمنح لمحة خلف قناع الكفاءة الباردة للأفكار التي تزعج ذهنه حقا.

— توفي ألكسندر عن عمر يناهز ثلاثة وثلاثين، تابع بونابرت. ربما مسموم، أو منهك. لم ير مقدونيا مرة أخرى، ولا والدته التي أحبها. كانت حياته البالغة كلها حرب ومسيرته نحو آفاق جديدة. هل هذا هو المصير الذي ينتظرني؟

تردد كازابيانكا، لم يكن يعرف كيف يجيب على هذه الأسئلة.

— أنتم لا تزالون صغيرا. ستحققون كل ما تريدون تحقيقه. لكن للقيام بذلك، يجب أن تغادر أولا. يجب أن نعطي الأمر الذي سيحرك هذا الأسطول.

نظر إليه بونابرت للحظة، ثم أشار بأنه يفعل ذلك.

— أنتم على حق، كابتن. لكن أعطوني بضع دقائق أخرى.

تقدّم كازابيانكا.

— جنرال، قال، بنبرة من اللوم في صوته لم يحاول إخفاءها،— الظروف لا تزال مواتية في الوقت الحالي. لكن النسيم بدأ يخف. إذا انتظرنا أكثر، نخاطر بأن نجد أنفسنا في هدوء مسطح قد يشل حركتنا لساعات إضافية.

— أعلم، كابتن. كنت بحاجة إلى لحظة أخيرة وحدي. الآن أنا مستعد.

— أخيرا، همس كازابيانكا، بارتياح واضح لم يكلف نفسه عناء إخفاء ذلك.

التفت إلى نائبه.

— تحرك! كل الرجال في مواقع المناورة! جاهزون لتحويل المرساة!

ترددت الأوامر من سطح إلى آخر، تنتقل من صوت إلى آخر إلى أطراف السفينة. ركض البحارة إلى مواقعهم. تسلق البحارة إلى الحبال، مستعدين لترك الأشرعة عند الإشارة. تجمع رجال الكابستان حول العجلة الضخمة. اتخذ قادة الدفة مواقع عند الدفة.

على السفن الأخرى في الأسطول، تكررت مشاهد مماثلة، حيث نقل المراقبون معلومات بأن المغادرة على وشك أن تبدأ أخيرا.

صعد بونابرت إلى سطح القيادة، وضم ذراعيه في تلك الوضعية التي يتبناها في اللحظات المهمة، وراقب ما يمر حوله. وقف بيرتييه إلى يمينه، وسجل الهدايا الأبدي في يده، رغم أنه لم يكن هناك ما يذكر الآن بعد أن حان وقت العمل.

على السطح الرئيسي، كان كازابيانكا يدير المناورات.

— جاهزون لتوجيه المرساة!

— جاهز! رد العشرين رجلا حول الكابستان بصوت جماعي.

— ركل!

بدأ الرجال بالضغط على القضبان، وهم يدوران العجلة الضخمة التي تلف الكابل. كان عملا مرهقا، يتطلب قوة منسقة من الجميع، يدفعون إلى إيقاع غناء يردده أحدهم بالترديد. ظهر العرق على جباههم على الفور رغم انتعاش الصباح. شد الكابل تدريجيا، يصدر صريرا تحت التوتر الهائل وهو يرفع المرساة من قاع الميناء الموحل.

— المرساة تحفر بسرعة! صرخ الحارس في الأمام.

ضاعف الرجال جهودهم. بضعة أمتار أخرى.

— المرساة عمودية! المرساة واضحة! المرساة خارجة!

ارتفع هدير رضا من السطح، فتثبيت مرساة سفينة بهذا الحجم كان دائما عملية صعبة وخطيرة، وحقيقة أنها انطلقت دون حوادث كانت فألا حسنا.

التفت كازابيانكا إلى بونابرت.

— جنرال، المرساة مثبتة. نحن أحرار. يمكننا رفع الأشرعة بمجرد أن تعطي الأمر.

أخذ نفسا عميقا وشعر بهواء البحر يملأ رئتيه للمرة الأخيرة منذ زمن طويل.
ثم فتح فمه.
وخرجت الكلمات أخيرا، تلك الكلمات التي كاد أن ينطق بها مرات عديدة في الساعة الماضية، تلك الكلمات التي كانت ستطلق كل شيء.
ـــ كابتن كازابيانكا، يمكنكم رفع الأشرعة. سنغادر إلى مصر.

نهاية المجلد الأول